

ياسر ثابت

شهقة اليائسين

الانتحار في العالم العربي





د. ياسر ثابت

شهقة اليائسين

الانتحار في العالم العربي



شهقة اليائسين
الانتحار في العالم العربي

رقم الإيداع: 17572 - 2012
الترقيم الدولي: 5-37-582-9953-978

الطبعة الأولى: 2012

الناشر: © دار التنوير
بيروت - القاهرة - تونس

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان إبراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس 009611843340
مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 00201007332225 - 0020227738931 فاكس: 0020227738932

البريد الإليكتروني: info@dar-altanweer.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-altanweer.com

تصميم الغلاف: عمر مصطفى
تصحيح لغوي: رفعت فرج

المحتويات



المقدّمة

حتّى في الموت رسائل!

هكذا يرى بعضهم في قرار الترحّل عن الحياة، سبيلًا للخلاص والانعتاق. وفي حين يبدو هذا العنف المُوجَّه نحو النفس قرارًا ذاتيًّا للتخلّص من بؤس البقاء على قيد الحياة، فإنّه يكون في كثير من الأحيان رسالةَ إنذارٍ، أو غضب حيال المحيطين بالشخص المنتحر.

وفي ظلّ أزماتٍ اقتصادية خانقة، وتضييق سياسيّ على المشاركة في الممارسة الديمقراطيّة، وغياب ملامح العدالة الاجتماعيّة وتكافُؤ الفرص والحسّ المشترك والقيم الجماعيّة، يلوح الانتحار في الأفق بالنسبة إلى مَن يشعرون بالقلق والجزع ويَنشدون الخلاص أو يريدون التعبير عن رفضهم لواقعهم الأليم.

إنّ الانتحار ينجم، عادةً، عن كون المنتحر ترك نفسه ليُحشَر في فخٍ، حتّى يبدو الانتحار بالنسبة للمنتحر حلّا أو مهربًا، سواء من الإخفاق أو العزلة أو الأزمات النفسيّة والجسميّة والماليّة، التي يرى الفرد أنّه عجز عن مواجهتها أو التكيُّف معها.

وبين هذا وذاك تكون النتيجة واحدة: وهي الموت.

والعرضان الأشد خطورةً للانتحار هما الإحساس بفقدان الأمل، والإحساس بقلة الحيلة. فإذا اجتمعا معًا، انهارت قلاع الإنسان، واستسلم لأفكار قد تقوده إلى إزهاق روحه، على رغم أن فطرتنا الحقّة ترفض الإفناء الإراديّ للذّات.

ولعلّ ما زاد الطين بِلّة، حالنا التي لا تخفى على أحدٍ، من تقوقُع للشرائح الاجتماعيّة بعضها على بعض، سواء على أساس فكريّ أو طبقيّ معيشيّ أو وظيفيّ أو مهنيّ أو قبليّ أو عائليّ. نضيف إلى ذلك أنّنا نرزح تحت قيود مفروضة محسوسة ولكنّها ليست بملموسة: مثل الأعراف الاجتماعية والتقاليد، والمحظورات السياسية. ولهذه القيود آثارٌ نفسيّة واجتماعيّة جانبيّة، تعتصر كثيرين، وتُجبرهم على الرضوخ لسلسلة من الأوامر والنواهي والضغوط التي قد تقود بعضهم إلى ضعفٍ إنسانيٍّ، واستسلام لفكرة الانتحار.

هذه الظاهرة المُؤسِفة نهشت في جسد الوطن العربيّ الكبير، بتعقيداتِ واقِعِه، وثقل تجربته التاريخيّة، وأدّت إلى حوادث محزنة، وأوضاع مأساويّة، تستدعي النظر في الأسباب، والبحث عن حلول، حتّى نحمي أنفسنا وأحبتنا من خطرٍ داهمٍ وموجة عارمة تصبغ أيامنا بالسّواد.

كان الموتُ يتخطّف أبناء هذه الأمة بإرادتهم طوعـًا وقسرًا، ويجذبهم إلى سراديب النهاية ومداراتها. وإذا كانت الأزمات حقـًا وحقيقة، فإنّ الانتحار بدا حنقـًا وطريقة للتعبير عن السخط واليأس والاكتئاب، ومثالًا على قلّة الحيلة تارة، ودليلًا على ضعف الإرادة تارة أخرى.

إنّ الجروح المعنويّة العميقة والشديدة التي يتعرّض لها الإنسان، يمكن لها أن تدفعه للتفكير في إنهاء حياته بنفسه، بكامل سلطانه على ذاته، وفي هذا بعض التبرير لدى مَن يرصدون ظاهرة الانتحار في المنطقة العربيّة. ويبدو أنّ رؤية الإنسان اليائسة للواقع والأحداث والظروف الخاصّة والعامّة التي يمرّ بها، قد تجعل فكرة الانتحار بديلًا مقبولًا عن واقعه والكروب التي يمرّ بها.

وفي مدنٍ عربيّة دخلتْ نفق التخلّي، وقرى وبلدات ذاقت طعم التجاهل والنسيان، نجد أجيالًا بأكملها نُحرت قبل أن تنتحر، وشعوبًا أُهملت قبل أن تنحدر إلى قاعها الدّامي، وأفقرت إلى حدّ الاغتيال.

ونحن ننسى أنّه لا يعود البشر بشرًا، عندما يفقد الإنسان كرامته ويغيب إحساسه ويقتل تفكيره، وحين يصبح يدًا ممدودة لطلب المساعدة.

ومع ذلك، فإنّه ممّا يسترعي الانتباه هو أنّ المجتمع المصريّ بشكل خاصّ، ومعظم شعوب المنطقة العربيّة بشكلٍ عامّ، تتهرّب من مواجهة مرآة الواقع وتتحايل

على نفسها، بالتكتُّم على الحقيقة حيناً والتهرب من تسمية الانتحار بوصفه سبباً للوفاة في أحيان أخرى، لأسبابٍ اجتماعيةٍ وأخلاقيةٍ وقانونيّة. ولذا نجد من يُلبس الانتحار ثوبَ الغموض، لتجنب نظرة المجتمع أو الأحكام الدينيّة الواضحة التي تُحرم الانتحار، فضلاً عن القوانين التي تجرّم هذا الفعل. إذ يُنظر إلى الانتحار في الوعي الجمعيّ بوصفه سلوكـاً مشيناً. ويزيد من صعوبة الموقف، شبهاتٌ هنا وهناك بحدوث تلاعبٍ في الأرقام من قِبَل بعض الهيئات والجهات الرسميّة والأمنيّة في بلادنا العربيّة، لإخفاء الحقائق وتجميلها.

إنّ إزهاق الروح، وهي أمانة الله ـ عزّ وجلّ ـ التي اؤتُمن عليها بنو البشر، خطبٌ جلل، يستدعي البحث والرصد والتأمُّل والتحليل، حتّى نتصدّى للظاهرة ونحول بين المرء ونفسه إن أراد بها سوءًا أو فكّر في التخلّص من نفسه بنفسه.

وينبغي ألا ننسى أنّ الحياة هبةٌ ينبغي الاحتفاظ بها حتّى يطلبها واهبُها، وبالتالي فإنّ من واجب الفرد والمجتمع والدولة التكاتُفَ لإعانة المرء على تجاوز المشكلات والتغلّب على الأزمات، وتقوية مناعته في مواجهة أيّ دوافع أو ميول انتحاريّة.

وبعدُ، هذا كتابٌ ينظر في أمر ظاهرةٍ مقلقة، تستحق منّا ما هو أكثر من الشعور بالأسى وما هو أعمق من الإحساس بالأسف؛ لأنّ مَن يُقدِمون على الانتحار ليسوا سوى إخوة وأحبّة وأهل؛ ولأنّنا لا نريد أوطانـاً مصنوعة من خدر، ومن مسؤولين يتشبثون في كراسي مثبتة بأوتادٍ فولاذيّة، مغروسةٍ في أعناق الفقراء.

ليكن كتابُنا، إذن، نداءَ استغاثةٍ، وجرس إنذار، ودعوة للتفكر والنقاش الجادّ والموضوعيّ، حتّى ننقذ أرواحهم.. أو أرواحنا. وإذا نجح هذا الكتاب في أن يكون سببًا لإنقاذ روح بشريّة واحدة، فسيكون قد أحيا الناس جميعًا.

جميعًا!

ما أجملها من كلمة!، قد تكون درعـاً واقية لحماية الفرد.. بغض النظر عن اسمه وهُويّته وجنسه. فالفرد هو، ببساطة، نواة الجماعة؛ ولذا كانت هذه الوقفة الجادّة مع قضية تؤرّق كثيرين وتمُسُّ المصريين والعرب بشكل عامّ في عالمنا اليوم.

ياسر ثابت

أبوظبي ٦ أغسطس ٢٠١٢

email: yasser.thabet@gmail.com



خلفَ السّتار

«لا عذر للمنتحر في انتحاره مهما امتلأ قلبه بالهمّ ونفسه بالأسى، ومهما ألمَّت به كوارث الدهر، وأزِمَت به أزمات العيش، فإنّ ما قَدِمَ عليه أشدُّ ممّا فرّ منه، وما خسره أضعافُ ما كسبه»[1].

الانتحار، شهقة اليأس، والفعل الوحيد الذي يصبح الفاعل بعده جزءًا من الماضي.

وعلى حافّة الحياة، يرغب بعضهم في خلاصٍ يوقف دبيب جيوش الألم، وراحة وقتيّة قد تفتح باب عذاباتٍ أبديّة.

إنّها اللحظة التي يبدو فيها كلُّ شيء خاليـًا من المعنى والأساس والمبرّر، ويجتاح الأيام عقمٌ مطلق، بالنسبة لشخص عاجز عن الاستقرار أو الاستمرار، فيتأهب لمواجهة هاوية أخرى لا تنضب.

رسائل خلاص لن تصل، ونهايات يظنّ أصحابها أنّها فعل اختيار، ويرى كثيرون أنّها جناية على الروح التي نُؤتمن عليها.

والانتحار ـ بدايةً ـ معناه أن يُقدِم الفرد على قتل نفسه عمدًا وذاتيًا، لأسباب

(١) مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، ج ٢، الدار النموذجيّة للطباعة والنّشر، بيروت، ٢٠٠٨، ص ١٥٣.

مختلفة منها النفسيّ. أغلب القواميس أيضًا تضع ملحوظة الحاسّة المستعارة «الرغبة التدميريّة للذات».[1]

ويقدم كارل مننغر Menninger تعريفـًا للانتحار يهتمّ فيه بالنصّ على اختيار الوسيلة لما في ذلك من دلالة في التحليل النفسيّ، فالانتحار عنده «فعل قتل الإنسان نفسه بالطريقة التي يختارها، سواء كان الموت الناتج عاجلًا أو آجلًا»[2]. أمّا شارل بلوندل Blondel (١٩٣٢) ودلما Delmas إلى أنّ الانتحار «هو الفعل الذي يصدر عن إنسان يفضل الموت عن وعي، وبرغم قدرته على اختيار الحياة، دونما ضرورة أخلاقيّة»[3].

ويقرّر الباحث المصري مكرم سمعان أنّ «السلوك الانتحاريّ هو سلسلة الأفعال التي يقوم بها الفرد محاولًا تدمير حياته بنفسه دونما تحريضٍ من آخرَ أو تضحية لقيمةٍ اجتماعيّة ما»[4].

وفي اللّغة العربية، يفيد الانتحار معنى قتل النفس، فالكلمة مشتقة من «نَحَرَ» أي: ذبح وقتل، وفي معاجم اللغة العربيّة، نجد أنّه «انْتَحر الرجلُ أي نَحَر نفسه»[5].

جلُّ تفسيرات الانتحار في البداية كانت خرافيّة، بعيدة كلّ البُعد عن النظريات العلمية، بل كانت تفسيراتٍ خياليةً يعتريها الغموضُ والسطحيّة، مصحوبةً بقصص الجنّ والعفاريت، مدعمةً بدلائلَ مشبعة بقوة الشعائر والطقوس الدينيّة[6].

ظلّت هذه النزعة الدينيّة والخرافيّة سائدة إلى أن حلّت مجموعة من النظريّات والتفسيرات العلميّة.

---

(١) Merriam-Webster Online, Suicide, http://www.merriam-webster.com/dictionary/suicide.

(٢) Karl Menninger, Man Against Himself, New York, Harcourt, Brace $ Comp., 1938, p. 14.

(٣) Gabriel Deshaies, Psychologie du suicide, Paris, Press Universitaire de France, 1947, p. 102.

(٤) مكرم سمعان: الانتحار، دراسة نفسيّة اجتماعيّة للسلوك الانتحاريّ بالقاهرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٤٧.

(٥) جمال الدين أبو الفضل ابن منظور: لسان العرب، ط ٣، ج ٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٦.

(٦) Bernard Haring, La loi du Christ, tome 03, desclée, tourai, Paris, 1990.

وجاء وقت أصبحت فيه النظريّة السائدة بشأن الانتحار أنّه من نتاج الحضارة الحديثة أو بالتحديد من نتاج التقدّم التكنولوجيّ، مع أنّ كثيرًا من الباحثين يعتقد أن الانتحار كان سائدًا بشكل خاصّ في العصور الوسطى، أي في زمن هيمنة الكنيسة على الفكر والمعتقدات ومن ثمّ السلوكيات.

وكما ساد الاختلاف بشأن وجود ظاهرة الانتحار في الأزمنة المختلفة، فإنّ الاختلاف قد ساد بشأن مواقف الديانات والثقافات والمذاهب الفكريّة من الانتحار. ويمكن أن نرصد تسامحـًا واضحـًا لدى الرومان والإغريق مع فكرة الانتحار، إلى أن حرمت المسيحيّة هذا الفعل حتّى جرى وصفه في عام ٤٥٢ بأنّه من عملِ الشّيطان[١].

الرؤى عن الانتحار تأثرت بآراء وثقافات عن ملامح مستقرّة وحيّة مثل الدين، والشرف، ومعنى الحياة. فالدّيانات الإبراهيميّة تعتبِر الانتحار جريمةً منكرة بسبب اعتقاد دينيّ يخصّ قدسيّة الحياة. وبشكلٍ عامّ، وكما يقول د. عمار بلحسن، فإنه «يبدو الموت في الميتافيزيقا الإسلاميّة حدًّا بين الدنيا والآخرة، ممرًّا وجسرًا بين دار الإقامة ودار البقاء، بين الفناء وأبد الخلود. وبهذا المعنى، هو لحظة وسيطة لانحلال الجسد والتحاق الروح بالرفيق الأعلى وملكوته»[٢].

الثابت أن الإسلام حرّم بعبارات صريحة لا تحتمل التأويل قتل الإنسان لنفسه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (سورة النساء ـ الآية ٢٩). وفي التعاليم الإسلاميّة زجرٌ وتخويفٌ من خيار الانتحار، وبدلاً من كونه نوعـًا من الراحة والخلاص في خيال المريض، نجد أنّ التّصوّر الدينيّ يجعله مصيرًا مخيفـًا حيثُ يخلد المنتحِر في جهنّم ويتعذّب بالوسيلة التي استعملها في الانتحار. رَوَى البخاريُّ ومُسْلِمٌ في صَحِيحَيْهِمَا عن أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، أنّه قَالَ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا

(١) جورج مصروعة: الانتحار في التّاريخ، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩٨٦.

(٢) د. عمّار بلحسن: أنثروبولوجيا المخيال الشعريّ والشعبيّ.. الموت وما بعد الموت، مجلة «كتابات معاصرة»، عدد ١٦، مج. ٤، نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٩٢، بيروت، ص ٨٠.

مُخَلَّدًا فِيها أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَديدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَجَأُ بِها في بَطْنِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيها أَبَدًا».

وهذا التصوُّر وحده يعكس المنظومة الانتحاريّة برمّتها ويُغلق باب خيار الانتحار، وفي الوقت نفسه يفتح باب أمل في رحمة الله والأمل في تفريج الكربات مهما اشتدت، عملًا بقول الله، عزّ وجلّ، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر ـ الآية ٥٣).

«لا يمكن أن يكون هناك انتحار من دون معرفة الموت»، حسب المعالِج النفسيّ الدكتور عدنان حبّ الله، الذي يشرح لنا أنّ الانسان «منذ بدأ الدخول في الحضارة عبّر عالم اللّغة، أدرك ما يسمّى بصدمة الموت من طريق موت الآخر. جعلت هذه المعرفة فعل الموت محتملاً»[(١)].

وربّما كان سائدًا لدى الباحثين في ظاهرة الانتحار حتّى وقتٍ قريبٍ نسبيًّا أنّ الإنسان البدائيّ لم يكن يعرف الانتحار[(٢)]. غير أنّ المؤرّخين المحدثين لهذه الظاهرة الإنسانيّة يرون أنّ الانتحار كان جزءًا من التاريخ الإنسانيّ منذ أن بدأ تسجيله[(٣)]، وفي جلّ الجماعات الإنسانيّة ـ على اختلاف حضاراتها، أيًّا كان ترتيب وجودها الزمنيّ وأنّى كان موقعها الجغرافيّ ـ يوجد أفراد يُقدِمون على الانتحار بصورةٍ ما.

وتبرهن البحوث الأنثروبولوجيّة على انتشار السلوك الانتحاريّ في كثير من الجماعات البدائيّة، إذ يشير مالينوفسكي (١٩٤٩) إلى شيوع الانتحار في جماعات جزر التروبرياند. وأكّدت بندكت (١٩٥٣) انتشاره على نطاق واسع في جماعات الدوبو Dobu جنوبي المحيط الهادي وفي جماعات الكواكيوتيل Kwakiutil شمال غربي كندا، وذلك لأسباب مختلفة. وعادة ما كانت أسباب الانتحار في هذه

---

(١) أمل الأندري، مفاتيح لفهم ظاهرة الانتحار: كيف نعيد اكتشاف السّعادة؟، مجلة العلوم الاجتماعيّة، الرياض، ٢٥ يوليو ٢٠٠٩.

(٢) انظر: ستنمتن، الانتحار البدائيّ، مجلة الأنثربولوجيّ الأمريكيّ، يناير ١٨٩٤؛ أنتوني، الانتحار داخل الجيش الألمانيّ، المجلة العسكرية، باريس، ١٨٩٥.

(٣) Gabriel Deshaies, op. cit., p. 2.

الجماعات تتراوح ما بين قتل النفس للخلاص من موقف مشينٍ غير محتمل، أو التخلص من منازعات عائليّة، أو تضحية شخصيّة، أو عقابـاً ذاتيـاً على شعور عنيف بالإثم، أو ردِّ فعلٍ لمشاعرَ فاجعة نتيجة انفصام روابط عاطفيّة خاصة، أو نتيجة انهيار السلطة أو المكانة الاجتماعيّة بسبب فقدان ثروة، أو قد ينتحر المجنيّ عليه انتقامًا من الجاني فيضطر الأخير إلى الإقدام على مصير مماثل... إلخ[1].

وفي جماعة الويو Wayau كان المُعتدي على المحارم يُجبَر على الانتحار تحت ضغطٍ اجتماعيٍّ شديد. أمّا عند قبائل الإسكيمو التي تسكن المناطق القطبيّة، فإنّ المسنين والمرضى الذين يشعرون أنّهم أصبحوا عالةً على ذويهم ولم يعودوا قادرين على العمل ينتحرون بأن يَدفن الواحدُ منهم نفسَه في الثلج ويظلّ هكذا حتّى يموت وهدفه من ذلك أن لا يكون عالةً أو عبئًا على أبنائه. وكذلك الحال في أوقات نقص الطعام بوجه خاصّ، تقع حالات الانتحار لدى الإسكيمو؛ توفيرًا لطعام غيرهم.

وعند هنود ساحل أمريكا الشماليّ الغربيّ، كان من الشرف أن ينتحر الأسرى والخدم عند وفاة سيّدهم ويُدفنون معه في المقبرة نفسها. وبين قبائل أمريكا الوسطى كان موت الزعيم يقتضي أن تُقبِل زوجاتُه وأقاربُه وجواريه وأصدقاؤه على تنفيذ الموت الإراديّ[2].

والانتحار معروف أيضـاً في الحضارة الإغريقيّة، التي كانت تُعدّه وسيلةً عقابيّةً على الجرائم الكبرى وطريقة ـ في الوقت نفسه ـ للتخلّص من وطأة ظروف غير محتملة. أمّا في روما فإذا عرض للشريف أن تورّط في موقف مَشين يمسُّ سمعته ويُهين كرامته، فإنّه قد يلجأ إلى الانتحار تخلُّصـاً من ظروفه السيّئة وإثباتـاً لحرّيته، وتأكيدًا لكرامته الشخصيّة. وشهد العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام حوادث انتحار، وإن تكن نادرة.

وإذا كان بعضهم رأى «أنّ الانتحار نزعةٌ فاسدةٌ وعادةٌ مستهجنةٌ، رمتنا بها المدنيّة الغربية فيما رمتنا بها من مفادها وآفاتها»، فقد جانبه الصّوابُ من نواحٍ عدّة. ففي الغرب، اعتُبر الانتحار جريمة كبرى. ويرى اليابانيّون أنّ الشرف والدّين يدفعان إلى

(١) مكرم سمعان، ص ٢٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٨ - ٢٩.

سيبوكو، وهي واحدة من أبشع طرق الانتحار وأشدِّها إيلامـًا، ويعتقدون بضرورتها، واحترامها كوسيلة للتكفير عن الأخطاء والفشل، وكنوع من الاحتجاج خلال حقبة الساموراي.

وفي القرن العشرين، أصبح الانتحار شكلًا من التضحية بالنفس واستُخدم كإحدى صور الاحتجاج، ثم انتشر شكل الكاميكازي والهجوم أو التفجير الانتحاريّ لأغراض سياسيّة وعسكريّة تستند إلى مفهوم دينيّ لدى بعضهم يمجدّ مثل هذا العمل باعتباره ردًّا على أو استهدافًا المعتدين. أمّا ساتي فهو تقليد جنائزيّ هندوسيّ، وفيه تُقدّم الأرملُ أنفسَهنّ قربانـًا في نار حرق جثة زوجها، إمّا طوعـًا، أو تحت ضغط من أسرة زوجها(١).

بوجهٍ عامّ، تباينت المواقف من الانتحار تباينـًا شديدًا بصورة عكست التاريخ الثقافيّ النفسيّ للمجتمع. وفسّر علماء الاجتماع ذلك بأنّ رفض الانتحار كان سائدًا في المجتمعات التي تسود فيها الخرافات والسحر وترتبط فيها هذه المُعتقدات بالفزع والصراعات النفسيّة الحادّة والرغبة في إبعاد الشرور التي تنجم عن الانشغال بموضوع الموت. وكان هناك حرصٌ في هذه المجتمعات على إبقاء روح الرغبة في الانتحار سجينة حتّى لا تعود تطارد الإنسانَ الحيّ(٢).

ويعزو التفسير النفسيّ الانتحار إلى طيّات التكوين النفسيّ(٣). ومن روّاد هذه المقاربة صاحب مدرسة التحليل النفسيّ سيغموند فرويد، الذي يشير إلى أنّ الانتحار هو نتيجة إخفاق دوافع الفرد العدائيّة نحو التعبير عن نفسها، فتُوجّه نحو الفرد نفسه (أي اتجاه الذّات) لتدميرها (القتل)(٤).

المفارقة أنّ الإنسان في الموقف الانتحاريّ «تتنازعه قوتان: قوّة القاتل، وقوّة القتيل معـًا، قوّة الجاني وقوة المجنيّ عليه في وقتٍ واحد»(٥).

---

(١) Indian woman commits sati suicide, BBC World Service Online, 7 August 2002.

(٢) سمير كرم، الانتحار والاستشهاد، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٦ يناير ٢٠١١.

(٣) - Fuse Toyomasa,Théorie du suicide dans une perspective interdisciplinaire, bulletin de ps chologie, numéro 401.

(٤) Freud Sigmund, Le moi et le ca Une édition numériques réalisée à partir de l'essai «Le moi et le ça» publié dans l'ouvrage Essais de psychanalyse. Traduction de l'Allemand par le Dr.Jankélévitch en 1920, revue par l'auteur. Réimpression: Paris: Éditions Payot, 1968, (pp. 177 à 234), 280 pages. Collection: Petite bibliothèque Payot, n° 44. Traduction.

(٥) مكرم سمعان، مرجع سابق، ص ٩.

ويرى فرويد أنّ غرائز الموت تنشط في إطار نفسيّ، حيث يوجه المنتحر إرادته الكاملة في القضاء على نفسه، بمعنى أنّ الأنا يكون مكتمل الوجود في عمليّة الانتحار الذي يكون بمنزلة تأكيد لوجود الذات التي تصدر الحكم على الذّات المحكوم ضدّها.

وبالتالي يرى فرويد أنّ الانتحار عدوان تجاه الداخل، يستهدف موضوعـًا للحبّ تم استحضاره، وثارت نحوه مشاعر متناقضة من الحبّ والكره. فعلى سبيل المثال، فإنّ الشخص الذي يستحضر صورة أمّه بداخله ولكنّه يشعر نحوها بخليط من مشاعر الحبّ لرعايتها له ومشاعر الغضب والعدوان بسبب حرمانه منها في فتراتٍ معينة أو بسبب إحباطها له في مواقف أخرى، نجده حين يقتل نفسه فإنّه في الحقيقة يوجه العدوان نحو الأم المستحضرة في داخله نظرًا لغضبه وإحباطه منها. إذن فقتل النفس هنا يعني قتل شخص آخر داخل هذه النفس[١].

أمّا وقود تلك الدوافع العدائيّة فيتمثّل في حالات نفسيّة كثيرة كالاكتئاب، حيث عرَّفه ستور Storr أنّه مفهوم حالة انفعاليّة يعاني منها الفرد من الحزن وتأخّر الاستجابة والميول إلى التشاؤميّة، وأحيانـًا يصل إلى درجة الميل إلى الانتحار، وكذلك قد تعلو درجة الشعور بالذنب عند الفرد إلى حدّ أنّه لا يتذكّر إلا أخطاءه وذنوبه، وقد يصل إلى البكاء الحادّ[٢].

وذهب في الاتجاه نفسه كارل مننغر، وهو من أتباع المذهب الفرويديّ، حيث أرجع السلوك الانتحاريّ إلى مجموعة من الرغبات هي:

١ ـ الرغبة في القتل (عدوان).

٢ ـ رغبة الفرد في أن يُقْتَلَ (عقاب).

٣ ـ الرغبة في أن يموت (استسلام)[٣].

---

(١) Moses Laufer (Ed.), The suicidal adolescent, Madison, Connecticut, International Universities Press, 1995.

(٢) رشاد على عبد العزيز موسى، علم النفس المرضيّ: دراسات في علم النفس، عالم المعرفة، القاهرة، ١٩٩٣.

(٣) Fuse Toyomasa, op. cit.

وبناءً على ما سبق، فإنّ نظرية التحليل النفسيّ للانتحار ترى أنّ شخصية المنتحر تعبّر عن تناقض صارخ وشديدٍ يتراوح بين مشاعر الحبّ والكراهية، ممّا يولد نزعة عدائيّة تراكميّة، تنتهي برغبة مُلحّة وجامحة بالقتل والموت[1].

ووَفقـًا لفرضيّة التّوحُّد ـ الخروج، فقد اقترح فرويد أنّ التوحُّد الشديد مع مفقود أو مرفوض، أو كما أوضح غريغوري زيلبورغ، فإنّ التّوحُّد مع أيّ فقدٍ مثاليّ (الحياة العمليّة ـ الحريّة ـ الصّحة)، يكون حاسمـًا في فهم الشخص الانتحاريّ.

وفي الانتحار، تختلط مجموعة من الأحاسيس مثل الانعزال واليأس والاكتئاب، إذ يشعر الإنسان بألم انفعاليّ لا يُطاق ولا يُرى حلًّا لذلك سوى الانتحار. ويعتبر الاكتئاب من أهمّ العوامل المرتبطة بالانتحار، حيثُ يُعدّ من أكثر التشخيصات النفسيّة التي لها عَلاقة قوية بالانتحار؛ لأنّ الفرد المكتئب شخصٌ يهجر الحياة ويرفضها ولا يجد أيّة لذّة بها وبالتالي يرفض وجوده وينبذه ممّا يدفع به إلى الانتحار، وقد ينتحر ١٥ ٪ ممن يعانون من الاكتئاب الشديد.

وفي نشرة إحصائيّة صادرة عن المعهد القوميّ الأمريكيّ للصحة النفسيّة عام ١٩٨١، تبيّن أنّ الاكتئاب بأنواعه يعتبر في مقدمة الاضطرابات النفسيّة كافة من حيث الانتشار[2]. وفي بحث أجْـرِيَ عام ١٩٥٧، لدراسة حالات الانتِـحار لوحظ أنّ ٩٨٪ منهم كانوا يعانُون من أمراض نفسيّة أو جسمانيّة، وكانت أشهر الاضطرابات المصاحبة للانتحار، هي الاكتئاب وإدمان الكحوليّات. وعندما أجري بحث تتبعيّ للمقارنة بين مجموعتيْن: الأولى، مصابة بأمراض نفسيّة مختلفة، والثانية، مصابة بأمراض جسمانيّة، وُجد أنّ نسبة الانتحار في الأولى تصل إلى ٥,٥٪، بينما في الثانية، لم تتجاوز ٠,٦٪.

كما أثبتت دراسة أخرى أنّ ١٥٪ من مرضى الاكتئاب والانفصام ينتحرون، وأنّ ١٧٪ من المُـدمنين يُـمارسون هذا السلوك، وأنّ نسبة الانتحار بين مرضى الانفصام

---

(١) طاس وازي، ظاهرة الانتحار بين التفسير الاجتماعيّ والتشخيص النفسيّ، دراسات نفسيّة وتربويّة، مخبر تطوير الممارسات النفسيّة والتربويّة، عدد يناير ٢٠١٢، جامعة قاصدي مرباح ـ ورقلة، الجزائر، ص ٦٢ - ٧٤.

(٢) غريب عبد الفتّاح غريب، دراسة مستعرضة للفروق بين الجنسينِ في الاكتئاب لدى عيّنة من مصر، مجلة الصّحة النفسيّة، مجلد ٢٩، القاهرة، ص ٣-٦٣.

(الشيزوفرينيا)، تصل إلى ١٠٪، كما تُوجد أعراضٌ اكتئابيّة لدى ثلثي مرضى الانفصام المنتحِـرين، ولهذا، يُـعتبر المرض النفسيّ من أقوى دوافع الانتحار، وتزيد خطورة الانتحار في المرضى النفسيّين من ٣ - ١٢ مرّة، بالمقارنة بعموم الناس[١].

أمّا المدرسة المعرفيّة فقد صوَّرت الانتحار على أنّه رؤيا النفق أو التفكير غير المرن حيث إنّ الحياة مريعة ولا يوجد حلّ سوى الانتحار. والبعض رأى في الانتحار تعبيرًا عن البكاء الرمزيّ أو للفت الانتباه.

وهنا، يتمّ تفسير الانتحار على أساس وجود ألمٍ نفسيٍّ لا يُحتمل ويريد الشخص اليائس أن يخرج منه فيلجأ إلى الانتحار. وهذا ما لاحظه هنري موراي من أنّ الانتحار وظيفة؛ لأنّه يريد أن يُلغي توترًا مُؤلمـًا للفرد، وأنّه يقدم شفاء من معاناة غير مُحتملة[٢].

ومن خلال الدراسات الاسترجاعيّة لتاريخ الأشخاص المنتحرين وُجِدَ أنّه كانت لديهم التخيّلاتُ التالية: الرغبة في الانتقام أو القوة والسيطرة أو العقاب. الرغبة في التكفير أو التعويض أو التضحية أو العودة أو الهرب أو النوم أو الإنقاذ أو الولادة من جديد أو التوحُّد مع أحد الموتى الأعزاء أو الحياة الجديدة. وكما يبدو، فإنّ هذه الخيالات برّاقة ومُغرية للشخص الذي يعتزم الانتحار، ويساعده على تنفيذها أو تفعيلها أن يكون واقعـًا تحت معاناة نتيجة فقدِ شخص أو شيءٍ عزيز أو نتيجة جرحٍ نرجسيٍّ مُؤلمٍ أو يكون مشحونـًا بمشاعر طاغية من الغضب والإحساس بالذنب، أو يكون مُتحدًا مع شخص آخر منتحر.

وتبدو العَلاقة بين الانتحار والاضطرابات النفسيّة موضوع نقاش مُطوّل. والمقبول في الوقت الرّاهن أنّ للمرضى العقليين نزوعـًا إلى التدمير الذاتيّ أقوى من نزوع الأفراد الأسوياء. فالفعل يمكنه أن يكون اندفاعيـًا أو، على العكس، موضع تأمُّل طويل. والموت الإراديُّ متواتر بصورة خاصة لدى السوداويين، حتّى لدى أولئك

(١) همام سرحان، د. محمد المهدي: «الشّباب المصريّ افتقد العمل والأمل فأقـدَمَ على الانتحار!»، موقع سويس إنفو، ٥ أكتوبر ٢٠١٠.

(٢) Henry Murray, Explorations in Personality, New York, Oxford University Press, 1938.

الذين يبدون في مرحلة خمود، وغير نادر أن يرى المرء هؤلاء المرضى يسببون الموت لدى بعض أعضاء محيطهم.

ونُلاحظ بخاصة لدى المكتئبين، غير السوداويّين، محاولات انتحار. وفعل تدمير الذات، لدى الفصاميّين، طارئ اندفاعيّ، ترافقه تشويهات في بعض الأحيان، وبتر أعضاء يتحقق من دون انفعال ولا ألم ظاهر. ونواجه عادة لدى الهستيريين محاولات انتحار مشهديّة، ولكن يمكنها أيضاً أن تؤدّي بهم إلى الموت[١]. ومحاولات التدمير الذاتيّ لدى المصابين بعدم التوازن في الطبع متواترة، اندفاعيّة دائماً على وجه التقريب. كما أنّ الارتكاسات والنزعات الانتحاريّة متوافرة إلى حدٍّ كافٍ في حالات السكر الكحوليّ ولدى المصابين بالصّرع[٢]. ويضيف البعض إلى ذلك الأمراض المستعصيّة والأمراض العقليّة المُزمِنة[٣].

ويقول سترنز (١٩٢١) Sterns إنّه وجد بين ١٦٧ حالة انتحار في ولاية ماساشوستس، بينها ٥٢,٧٪ لمصابين باضطراب عقليّ على نحو ما، وأنّ ٣٨,٩٪ آخرين كانوا ذهانيّين فعلاً[٤]. وتتبعت سوزان سيرا ٤٣٠ حالة انتحار في باريس ١٩٢٥/١٩٢٦، فوجدت أنّ حَوالَي ٣٦٪ منهم كانوا مصابين بمرض عقليّ بصورةٍ ما، وأنّ حَوالَي ٣٠٪ آخرين كانوا مصابين بجنون إدمان الكحوليّات[٥].

إنّ الأمراض النفسيّة والعقليّة أحد أبرز العوامل المُسبّبة للانتحار. وينضوي تحت لواء تلك العوامل المرضُ النفسيُّ الناشئ عن خَلل عضويّ في الدماغ، وينشأ غالباً منذ الولادة، مثل الشلل الجنونيّ العام، والتخلّف العقليّ، والصرع.. ومنها الاضطرابات النفسيّة والعقليّة وهي تنشأ عن خلل وظيفي، وتشمل:

أولاً: الاضطرابات النفسيّة، والتي تظهر غالباً عبر سنوات العمر نتيجة التعرض

---

(١) Geo Stone, Suicide and failed suicide, New York, NY, Carroll & Graf, 2001.

(٢) مصطلحاتٌ اجتماعيةٌ: الانتحار، شبكة النبأ المعلوماتيّة، http://www.annabaa.org/nbanews/65/114.htm.

(٣) Craig Paterson, Assisted Suicide and Euthanasia, Farnham, Ashgate, 2008.

(٤) Samuel Kirson Weinberg, Social Problems in Our Time: A Sociological Analysis, UK & US., Prentice – Hall, 1960, p. 419.

(٥) Maurice Halbwachs, Les causes du suicide, Paris, Alcan, 1930, p. 382.

لصدمات ومشكلات ومنها: القلق، وتوهُّم المرض، والهستيريا، والخواف (الفوبيا)، والوسواس القهريّ، والاكتئاب.

ثانيًا: الاضطرابات العقليّة (الذهنيّة) وقد تكون وراثيّةً ومنها: الفصام، وذُهان الهوس الاكتئابيّ. وتلعب الأمراض النفسيّة والاضطرابات النفسيّة والعقليّة دورًا مهمًّـا في الكثير من حالات الانتحار لدى المراهقين والراشدين، تقريبـًا ٤٠٪ من حالات الانتحار المُسجَّلة[١].

من العوامل الأخرى المُسبِّبة للانتحار اضطرابُ الشخصيّة، وهو ليس مرضـًا نفسيًّا أو عضويـًّا، وإنّما سمات مُتطرِّفة تجعل تلك الشخصياتِ مُختلفةً عن بقيّة الناس. وهم لا يشعرون بأنّهم يعانون من اضطراب، ولهذا يعاني مَن يعيشون معهم، ويعانون هم أيضـًا من أنفسِهم وتصرفاتهم، وهم لا يستجيبون للعلاج بشكل جيّد؛ لأنّهم لا يقتنعون بحاجتهم إليها، ومنهم: الشخصيّة الهستيريّة، والشخصيّة غير الناضجة انفعاليـًّا، والشخصيّة العاجزة، والشخصيّة الانطوائيّة، والمُدمنون على الكحول أو المخدرات.. وكلّ هؤلاء يفكّرون في الانتحار.

وتشير إحصاءاتٌ في المجتمع المصريّ، مثلًا، إلى أنّ المُدمنين على الكحول والمخدّرات تصل نسبة انتحارهم إلى ١٥٪، وأنّ المصريين ينفقون على المخدرات ١٠٠ مليار جنيه مصريّ في السنة[٢].

نضيف إلى أسباب الانتحار المشكلاتِ الأُسريّةَ واحترام الذّات، إذ إنّ الصراعات الأُسريّة المتكرّرة أو الشديدة بين أفراد الأسرة وخصوصًا الوالدين، وكذلك عيش الطفل أو المراهق مع زوجة أَبٍ قاسية أو زوج أمّ قاسٍ، أو تعرُّض الطفل للضرب والإيذاء أو الحرمان العاطفيّ بشكل متكرّر، أو الإهمال للطفل وحاجته النفسيّة والجسديّة، أو تعرّض المراهق للنقد المستمرّ أو الاستهزاء وعدم احترام ذاته ومشاعره، وتعليم الوالدين المُتدنّي، وحالات الاغتصاب للنساء. قد تؤدّي جميعها

(١) سيد محمود طواب، الصّحة النفسيّة والإرشاد النفسيّ، مركز الاسكندريّة للكتاب، الإسكندريّة، ٢٠٠٨.

(٢) عزت السعدني، الشّيطان يسكن المدينة، ط ٢، نهضة مصر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٨٥.

إلى الوصول إلى حالة اكتئابٍ شديدةٍ ومن ثمَّ، التفكير في الانتحار والتخلّص من الحياة[1].

وتشير دراسة كنديّة حديثة أجراها باحثون من جامعة تورونتو إلى أنّ إساءة معاملة الأطفال والعنف الجسديّ الذي يتعرّض له الأطفال قد ينعكس على مستقبلهم بشكل كارثيّ، إذ تسيطر الأفكار الانتحاريّة على عقولهم بعد البلوغ بشكل أكبر بكثير مقارنة بأولئك الذين لم يسبق أن تعرضوا للإساءة.

وأوضحت الدّراسة، التي نُشرت في مجلة «سويسايد آند لايف»، أنّ ثلث البالغين الذين تعرّضوا لسوء المعاملة في صغرهم لدرجة تصل حدّ الإيذاء الجسديّ، فكّروا بجديّة في إنهاء حياتهم بأنفسهم مرّة واحدة على الأقل[2].

وتبقى من أهم أسباب الانتحار المشكلاتُ الاقتصاديّة كالفقر، والبطالة وعدم الحصول على المهن اللازمة على الرّغم من الشهادات والمؤهّلات، أو فقدان المهنة أو المنزل.

وعندما نقول إنّ «البطالة هي الرعب»، فنحن نستلهم قول سارتر: «إنّ الحريّة هي الرعب». فقد بيّنت الدراسات حول الراشدين في هونغ كونغ مثلًا أنّ ٥٥٪ من حالات الانتحار يقوم بها عاطلون عن العمل. وأعربت منظمة الصّحة العالميّة عن خشيتها من أن تؤدّي الأزمة الاقتصاديّة العالميّة إلى ارتفاع حالات الانتحار خاصةً بعد إقدام بعض رجال الأعمال على الانتحار.

والشاهد أنّ الأزماتِ الاقتصاديّةَ تؤثّر تأثيرًا بالغـًا على الميل إلى الانتحار. فحينَ انفجرتِ الأزمة الماليّة في فيينا عام ١٨٧٣، وبلغت ذروتها عام ١٨٧٤، ارتفع عدد جرائم الانتحار على الفور من ١٤١ انتحارًا عام ١٨٧٢ إلى ١٥٣ عام ١٨٧٣، ثم إلى ٢١٦ عام ١٨٧٤، بزيادة قدرُها ٥١٪ بالقياس إلى عام ١٨٧٢، و٤١٪ بالقياس إلى عام ١٨٧٣. وفي أثناء الانهيار الماليّ في بورصة باريس خلال شتاء عام ١٨٨٢، بلغ متوسط الزيادة السنويّة لجرائم الانتحار ٧٪ مقابل ٢٪ في السنوات الثماني السّابقة[3].

---

(١) رغدة شريم، سيكولوجيّة المراهقة، دار المسيرة، عمان، ط١، ٢٠٠٩.

(٢) العنف في الصّغر: انتحار في الكِبَر، جريدة «السفير»، بيروت، ٣٠ إبريل ٢٠١٢.

(٣) إميل دوركايم، مرجع سابق، ص ٢٠٢-٢٠٣.

وفي دراسة أجرتها وزارة الصّحة الأمريكيّة عن العَلاقة بين حالات الكساد والإقدام على الانتحار في الولايات المتّحِدة خلال الفترة من ١٩٢٨ - ٢٠٠٧ ، يمكن رصدُ الكثير من النقاط المُهمّة. في هذه الدراسة التي تُعدّ الأولى من نوعها التي تحلّل العَلاقة بين حالات الكساد وحالات الانتحار حسب التوزيع العمري للمنتحرين، إضافة إلى تحليل العَلاقة بين حالات الدورات الاقتصاديّة وحالات الانتحار، كما أنّها غطّت أطول فترة زمنيّة تناولتها دراسة في هذا المجال، حيث غطّت ٨٠ عامـًا، وأوسع مجموعات عمريّة للمنتحرين.

توصّلت هذه الدراسة إلى أنّ هناك عَلاقةَ ارتباطٍ قويّةً بين الدورات الاقتصاديّة والإقدام على الكساد. فقد وُجد أنّ عَلاقة الارتباط الأقوى تُوجد بين الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٥ و٦٥ عامـًا. كذلك أوضحت نتائج الدراسة أنّ معدلات الانتحار ارتفعت بشكل عامّ خلال الكساد الكبير (١٩٢٩-١٩٣٣)، ويُعدّ معدل النمو خلال السنوات الأربع التي مرّ بها الاقتصادُ الأمريكيُّ في الكساد الكبير والذي بلغ ٨ , ٢٢ في المائة هو أكبر معدلات النمو في حالات الانتحار في التاريخ الأمريكيّ. كذلك ارتفعت معدلات الانتحار خلال الفترة (١٩٣٧ - ١٩٣٨)، وخلال أزمة ارتفاع أسعار النفط (١٩٧٣-١٩٧٥)، وخلال الكساد المزدوج في الفترة (١٩٨٠-١٩٨٢).

من ناحية أخرى، انخفضت حالات الانتحار خلال فترة التوسّع الاقتصاديّ بين ١٩٣٩-١٩٤٥، وكذلك خلال أطول فترات التوسّع التي مرّت على الولايات المُتّحدة ١٩٩١-٢٠٠١ في القرن العشرين، حيث تمتّع الاقتصاد الأمريكيّ بمعدلات نمو مرتفعة ومعدلات بطالة منخفضة، وتشير نتائج الدراسة إلى أنّ أكبر زيادة في حالات الانتحار في الولايات المُتّحدة حدثت خلال الكساد العالميّ الكبير (١٩٢٩-١٩٣٣)، حيث ارتفعت معدلات الانتحار من ١٨ حالةً لكل ١٠٠ ألف نسمة في ١٩٢٨ إلى ١ , ٢٢ لكل ١٠٠ ألف نسمة في ١٩٣٣، بينما انخفضت معدلات الانتحار إلى أقلّ مستوياتها التاريخيّة في عام ٢٠٠٠.

بشكل عامّ، أشارت الدراسة إلى أنّ حالاتِ الانتحار انخفضت خلال الفترات التي كان أداءُ الاقتصاد الأمريكيّ فيها جيدًا، فبانتهاء الكساد العالميّ الكبير مالت معدلات الانتحار نحو الانخفاض، بينما حدث ارتفاعٌ في تلك المعدّلات مرّةً أخرى خلال

فترات الضغط الاقتصاديّ، أي أنّ المشكلاتِ الاقتصاديّةَ التي يتعرّض لها الاقتصاد تؤثّر في شعور الأفراد نحو أنفسهم وحول مستقبلهم وعَلاقاتهم داخل الأُسرة ومع الأصدقاء، ففي عام ٢٠٠٧، قبل الأزمة الماليّة مباشرةً، انخفض معدّل الانتحار في الولايات المتّحدة إلى ١١,٢ لكل ١٠٠ ألف نسمة، حيث أقدَمَ ٣٤٥٩٨ شخصاً على الانتحار[١].

ويُعدّ الفشل الماليّ كالفشل في سداد الالتزامات الماليّة أو التّعرُّض للخسائر، أو الفشل العاطفيّ، أو الفشل الدراسيّ، أو الفشل الاجتماعيّ، أو الفشل المهنيّ كتأمين وظيفة كريمة والمحافظة عليها، أحدَ الأسباب الرئيس\ة المؤدِّية للانتحار. وقد أظهرت الدراسات الدُّوليّة أنّ ٦٠ ٪ من حالات الانتحار كانت بسبب الفشل.

ويُعتبر الشعور بالذّنب أو الوَحدة سببًا رئيسًا في الانتحار وهو الشعور بالذنب والرغبة في عقاب الذّات، أو الشعور بالوَحدة والاعتقاد بأنّ العالم لا يفهمه ولا أحدَ يشعرُ به، وبسبب عدم القدرة على توجيه العقاب للآخرين فيوجه العقوبة إلى ذاته. وتكثُر هذه الحالة عند المراهقين وغير الناضجين فكريًّا أو المضطربين نفسيًّا.

ولا شكّ أنّ الحالة الصحيّة لها عَلاقة مباشرة بالاكتئاب والانتحار، فالمرضى المصابون بأمراض مستعصية الشفاء كالإيدز والسرطان، أكثر إقبالاً على الانتحار، وتتراوح نسبتهم بين ١٥ – ١٨٪ من بين المنتحرين.[٢]

وقد تكون للانتحار أسبابٌ بيولوجيّةٌ، كاختلالات في التوازن الهرمونيّ وخاصةً لدى الفتيات أثناء البلوغ، أو فقر الدم الناتج عن نقص الحديد، أو اضطرابات في الغُدّة الدرقيّة أو في سكر الدّم، أو عدم التوازن الكيميائيّ في المرسلات العصبيّة[٣].

إن أسبابًا عدّةً قد ترتبط بمحاولة الانتحار، بينها الصحة النفسيّة والحالة الصحيّة للفرد بشكلٍ عام.

ولنأخذ نموذجًا بسيطًا في هذا الشأن.

---

(١) محمّد إبراهيم السقا، الاقتصاد والانتحار، جريدة «الاقتصادية»، الرياض، ٢٩ إبريل ٢٠١١.

(٢) آندي حجازي، الانتحار.. أعراضه ومسبباته وسبل الحدّ منه، مجلّة «الوعي الإسلاميّ»، مايو/ يونيو ٢٠١٢ الكويت.

(٣) المصدر نفسه.

فقد خلصت دراسة شملت أكثر من ٤٥ ألف امرأة دنماركيّة إلى أنّ النساءَ اللّاتي يصبن بطفيل شائع هنَّ أكثر عرضةً لإيذاء النفس أو محاولة الانتحار.

وتحدُث العدوى نتيجة طفيل يُعرف باسم توكسوبلازما غوندي. ويمكن أن يُصاب الإنسان بعدوى مُزمنة بهذا الطفيل من خلال أكل اللحوم غير المطهُوّة جيّدًا والخَضروات من دون غسلها أو التعامُل مع فضلات القطط؛ نظرًا لأنّ هذا الطفيل يتكاثر في فضلاتها.

وربطت بعض الدراسات بين هذا الطفيل ومخاطر عالية للإصابة بالفصام. ويَعتقد باحثون أنّه نظرًا لأنّ هذا الطفيل يعيش في المخّ فإنّه يمكنه التأثيرُ على الانفعالات والسلوك.

وكتب تيودور بوستولاتشي، الباحث الذي قاد الدراسة وهو من كليّة الطبّ بجامعة ماريلاند في بالتيمور، في دوريّة سجلات الطبّ النفسيّ العام أنّ «النّساء اللّاتي يُصبنَ بعدوى الطفيل تي. غوندي هُنّ أكثرُ عرضةً لإيذاء النفس».

واستند بوستولاتشي ورفاقه في الدّراسة على السّجلات الطبيّة الدنماركيّة لنحو ٤٥٧٨٨ امرأة شملتهنّ دراسةٌ سابقةٌ عن الطفيل توكسوبلازما لدى المواليد[1].

نموذج آخر: الصُّداع النصفيّ.

فقد وجدت دراسةٌ أمريكيّة أنّ احتمالاتِ محاولة الانتحار ترتفع لدى الأشخاص المصابين بصُداعٍ حادٍّ سواء كان نصفيًّا أم لا. وحسب ناعومي بيرسلو من جامعة ولاية ميشيغان في آيست لانسينغ والتي رأست هذه الدراسة، فإنّ عددًا من الدراسات على مدى سنوات أشارت إلى أنّ الأفرادَ المُصابين بصُداع نصفيّ تزيدُ لديهم معدلاتُ الانتحار بالمقارنة مع الأشخاص غيرِ المصابين به، ولكن لم يتّضح ما إذا كان لهذا عَلاقة بشكلٍ مُحدّدٍ «ببيولوجيّة الصُّداع النصفيّ».

وقالت بيرسلو لرويترز هيلث: «لم نعرف ما إذا كان هو الصُّداع النصفيّ أو الألم بشكلٍ عامّ»، برغم أنّ نتائجها لا تثبت أنّ الصُّداع يسبِّب محاولاتِ الانتحار.

---

(١) رويترز، دراسة تربط بين طفيل ومحاولات الانتحار وإيذاء النّفس، جريدة «القدس العربيّ»، لندن، ٩ يوليو ٢٠١٢.

وتابعت الدراسة ـ التي نشرت في دوريّة الصُّداع ـ نحو ١٢٠٠ شخص بالغ من منطقة ديترويت في ميشيغان، ٥٠٠ منهم من المصابين بصُّداع نصفيّ في حين كان ١٥١ يعانون صداعـًا حادًا وليس نصفيـًّا، والباقون لا يعانون صداعـًا خطيرًا وعملوا كمجموعة مقارنة.

وعلى مدى عامينِ كان لدى المجموعات المُصابة بالصُّداع النصفيّ والأخرى المُصابة بصُّداع حادٍّ معدلات متشابهة من محاولات الانتحار. وقال ٩٪ تقريبـًا من المصابين بصُّداع نصفيّ إنّهم حاولوا الانتحار مثلما فعل ١٠٪ من المصابين بصُّداع حادٍّ غيرِ نصفيّ.

واستبعدت بيرسلو أن يكون الصُداع النّصفي فقط هو المرتبط بخطر الانتحار.

ووجد فريق بيرسلو بعد دراسة تاريخ الأشخاص من الاكتئاب والقلق ومحاولات الانتحار في السابق أنّ المصابين بالصّداع النّصفي أو الصّداع الحادّ تزيد لديهم محاولات الانتحار بما يتراوح بين أربع وست مرات بالمقارنة مع مجموعات أخرى.

وتقول بيرسلو لنشرة رويترز الطبيّة إنّ الأمر الأساسيّ هو أنّ الأشخاص المُصابين بصداع حادّ لا بد أن يسعوا للحصول على مساعدة من طبيبهم أو إذا دعت الحاجة لمستشفى مُتخصّص في الألم، لتجنّب الاكتئاب الذي قد يؤدّي في النهاية للانتحار.

ويعتقد الباحثون أنّ موادّ كيميائيّة معيّنة في المخ ـ ومن بينها السيروتونين ـ لها دور في الصّداع الحادّ. وتم الربط أيضـًا بين الخلل في تلك المواد الكيميائيّة وخطر الانتحار.

وحسب باحثين، فإنّ للانتحار أسبابًا عضويّةً منها الوراثة[1]. ويمكن أن تكون الجينات الخاصّة بالانتحار جينات منفصلة تؤدى إلى نوع من السلوك الاندفاعي من خلال اضطراب في مستوى مادة السيروتونين في المخ أو تكون هي نفس

(١) Ghanshyam N Pandey, Yogesh Dwivedi, Hooriyah S Rizavi, Xinguo Ren, et al., Higher expression of serotonin 5-HT(2A) receptors in the postmortem brains of teenage suicide victims. The American Journal of Psychiatry, 159 (3), 2002, 419-29.

جينات الاضطرابات النفسيّة كالاكتئاب وإدمان المخدرات والفصام واضطرابات الشخصيّة.

ومن الملاحظ إكلينيكيا أنّ هناك عائلات تكثر فيها حالات الانتحار، والمثل الشهير لذلك عائلة الروائيّ الأمريكيّ إرنست همنغواي، فقد انتحر هيمنغواي وانتحرت أخته وانتحر الأب قبلها، وانتحر أشخاص آخرون في العائلة، ومنهم الحفيدة مارغو في ١٩٩٦. إنّ هذه الحوادث قد تتكرّر على نحوٍ متماثل تقريبـًا، ليس من حيث أن الضحايا يقعون في الفئة العمريّة نفسها فحسب، بل إنّها تنفذ أيضـًا بطريقة متشابهة، مثل الانتحار شنقـًا أو بالسقوط من مكان مرتفع أو باستخدام سلاح مماثل. وبدراسة التوائم المتماثلة وُجِدَ أن هناك ٩ حالات فقط انتحر فيها التوأمان من بين ٥١ حالة أي بنسبة تقترب من ٢٠ ٪ في حين أنّ التوائم غير المتماثلة لم يحدث أي اتفاق في الانتحار بين التوأمين. وهذا قد يشير إلى احتمالات الوراثة الجينيّة ولكن بشكل جزئيّ وغير حتميّ.

وتبيّن دراساتٌ أنّ معدل الانتحار في أقارب الدرجة الأولى للمرضى النفسيّين يزيد ٨ مراتٍ عن معدل الانتحار بين سائر الناس. غيرَ أنّ باحثينَ يرون أنّ الأمرَ ليس مرتبطـًا بالوراثة بقدر ما هو متّصل بـ«القوة المعديّة للنموذج المُحتذى»، إذ يرى هؤلاء أنّ «الانتحار مُعدٍ للغاية. وهذه القابليّة للعدوى تظهر، على الأخصّ لدى الأفراد الذين تجعلهم بنيتهم أسهل انفتاحـًا على كل الإيحاءات، بوجهٍ عامّ، وعلى أفكار الانتحار بوجهٍ خاصٍّ»[١].

كما وجد الباحثون أنّ انتحارَ شريك حياةٍ يجعل الشريك الآخر عُرضة بشكلٍ واضح للانتحار هو الآخر. وأظهرت الدراسة التي أعدّها فريق من جامعة آرهوس الدنماركيّة أنّ الرجال الذين يفقدون شريكـًا للحياة يكونون عُرضة ٤٦ مرة أكثر للإقدام على الانتحار أنفسهم، وهو ما يمثل ثلاثة أضعاف احتمال إقدام النّساء على الشيء نفسه.[٢]

---

(١) إميل دوركايم، الانتحار، ترجمة: حسن عودة، الهيئة العامّة السوريّة للكتاب، دمشق، ٢٠١١، ص ٨٦.

(٢) «علاقة» انتحاريّة بين شركاء الحياة، موقع بي بي سي عربيّ، ١٦ إبريل ٢٠٠٥.

وتابع فريقُ البحث بياناتٍ من السّجل الطبيّ الوطنيّ الدنماركيّ لنحو ٤٧٥ ألف شخص، بينهم تسعة آلاف شخص أقدموا على الانتحار في أعمار مختلفة تتراوح بين الخامسة والعشرين والستين، فضلًا عن شركاء حياتهم وأطفالهم، ومجموعة مقارنة.

كما بحثت الدراسةُ ـ التي نشرت في دوريّة «الحدّ من الأوبئة وصحة الطفل» ـ في معلومات حول أسباب الوفاة، ومرّات الدخول لوحدات للعلاج النفسيّ والعصبيّ، وعن الوضع الاجتماعيّ، وحجم الأسرة، فضلًا عن عناصر اجتماعيّة واقتصاديّة أخرى.

وينبه دوركايم إلى أنّ جائحة الانتحار قد تشهد تشابهـًا إلى حدّ التطابق بين حالات الانتحار، ويشير إلى قصة المعلولين الخمسة عشر الذين شنقوا أنفسهم عام ١٧٧٢ واحدًا بعد الآخر، وفي وقتٍ متقارب بالكلاّب عينه، تحت ممر معتم في أحد الفنادق. وحينما انتزع الكلاّب من موضعه انتهت الجائحة[١].

في الشهور الأولى من عام ٢٠١٠، ضجت الصحافة العالميّة بحوادث انتحار عمال شركة فوكسكون (Foxconn) في الصّين. خلال أشهر قلائلَ، أقدم ١٢ عاملًا من عمّال هذه الشركة على الانتحار مستعملين وسائل مختلفة، منها رمي أنفسهم من مبنى الشركة إلى درجة أنّ إدارة الشركة باشرت في مدّ شباك حول مباني الشركة لمنع العاملين والعاملات من الانتحار عبر رمي أنفسهم من الطوابق العليا[٢].

وفي إبريل ٢٠١٢، فجع أهالي عدد من القرى التابعة لولاية «تيزي وزو» الجزائريّة بانتحار ١٥ حدثـًا لا يتجاوز عمر أكبرهم ١٤ عامـًا، وذلك خلال ثلاثة أسابيعَ فقط، وتبيّن من التحقيقات أنّ السبب الرئيس في إقدامهم على الانتحار هو التأثر بالمسلسل الكرتونيّ «المحقق كونان»، الذي يبرز كيف يمكن لشخص أن ينتحر أو يقتل نفسه بطريقة يمكنه بعدها العودةُ إلى الحياة[٣].

---

(١) إميل دوركايم، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٢) شامل العظمة، انتحارات «فوكسكون» والاستهلاك الأخلاقيّ، جريدة «الأخبار»، بيروت، ٧ يونيو ٢٠١٠.

(٣) «المحقّق كونان» يتسبّب بانتحار ١٥ طفلاً جزائريـًا، جريدة «السفير»، بيروت، ٢٦ إبريل ٢٠١٢.

نقطة البداية، جاءت حين اهتزّت قرية «آخرين» التابعة لبلدة «تيزي راشد» على وقع خبر انتحار التلميذ كريم أمقـران المدعوّ زيدان، وهو من مواليد ١٩٩٩ في الصف التاسع، وكان من المفترض أن يجتاز شهادة التعليـم المتوسط، لكنّه كان من بين الأطفال المتلهّفين لتنفيذ ما يشاهده في المسلسل الكرتونيّ «المحقّق كونان». ويقول زميله في المدرسة محمد أمين إنّ زيدان كان يردِّد دائمـاً أنّه سيفعل مثلما فعل كونان. وحدث الأمر نفسه في قرية «أبهال» التابعة للولاية ذاتها بخبر مقتل هني محند آكلي، من مواليد العام ٢٠٠٠ ، الذي انتحر على طريقة كونان، وبفارق نصف ساعة عن توقيت كريم.

كما انتحر تلميذ آخر في سنة أولى متوسط بحزام ملابس الكاراتيـه الذي يتدرّب به، عقب مشاهدته إحدى حلقات المسلسل ذاته وفق رواية والده. وتؤكّد الوالدة أنّ ابنها كان يتابع السلسلة الكرتونيّةَ بشغفٍ بعد عودته من المدرسة، وتوضّح أنّه في إحدى الحلقات عرض مشهد مُثير ومروع، انتحرت فيه إحدى الشخصيّات شنقـاً؛ لأنّها سئمت الحياة لتعود بعدها إلى حياة ملؤها السعادة والهناء. وتقول الوالدة بحسرة: «يبدو أنّه تأثّر بالحلقة وحاول تقليدها، لكنّه فارق الحياة دون رجعة».

وتوالت بعد ذلك الأخبار عن حالات انتحار أولاد في عمر الزهور، متأثّرين بالمُحقّق كونان، إذ أقدم مراهقٌ في الرابعة عشرة من عمره على الانتحار بإحراق نفسه في ولاية باتنة شرق العاصمة الجزائريّة، وآخر شنق نفسه في مدينة تيارت غرب العاصمة. وسُجّلت حالة في ولاية بسكرة، وأخرى في سكيكدة، وحالتان في ولاية برج بوعريرج، وثلاث حالاتٍ في ولاية خنشلة، وحالتانِ في ولاية بجاية، وآخرُها في ولاية وهران[1].

موجة وراء أخرى، تثبت كيف يمكن أن يكون الموت متشابهـاً في الشكل والأسباب.

على أنّ هناك أسبابـاً اجتماعيّةً للانتحار فسّرها عالم الاجتماع الفرنسيّ إميل دوركايم، حيث عزا هذا الفعل إلى تكسّر الروابط الاجتماعيّة والانعزال، وقد تؤثّر

---

(١) المصدر نفسه

عوامل الضغوط النفسيّة وعدم القدرة على كبحها وخاصةً الفقر والبطالة[١]. وقد أُعِيد النظر فيما بعد بأطروحات دوركايم وصُحّحت عدة مرات ولا سيّما من قِبل هالبواش في Les causes du suicide (1930) أو من قبل هنري وشورت Suicide and homicide (1964)

تقع كلّ هذه الدّراسات في مجرى (الإحصاء الأخلاقيّ)، كونها تتناول جميعها الانتظام والتغيّر والفروقات في معدّلات الانتحار كما تُلاحظها الإحصاءات الرسميّة[٢]. ومنذ فترة غيرِ بعيدةٍ كانت صحّة هذه الرؤيّة الكميّة موضوعـًا للنّقد الجذريّ، لاسيّما من قبل دوغلاس (١٩٦٧).

وقد تكون هناك أسبابٌ أخرى للانتحار مثل ضعف الضمير وعدم القدرة على التكيّف مع المجتمع، وهنا تظهر فكرة إريك فروم حول الانتحار، حيث الصراع بين الداخل والخارج وعدم الالتفات إلى العوامل الحضاريّة الاجتماعيّة[٣].

إنّ كتاب «الانتحار» لدوركايم هو بالتأكيد المؤلّف الأساسيّ الصّادر عن تيار الإحصاء الأخلاقيّ، وكان أول مَن تعرّض لتحديد مفهوم الانتحار وأعراض السلوك الانتحاريّ[٤].

اعتبر دوركايم الانتحار ظاهرة اجتماعيّة بل دلالة عن طبيعة الأخلاق السائدة في مجتمع معيّن، وبذلك عارض ورفض بشدة التفسيرات السائدة في القرن التاسع عشر والمتمثّلة في دور الوراثة، والجنون، والمناخ وتقليد الآخر في انتحاره.

وأكّد دوركايم من خلال الإحصاءات عن التبدلات التي تطرأ على نسبة الانتحار في الزمان والمكان، محاولًا كشف العوامل المفسّرة لتلك الظاهرة من المنظور الاجتماعيّ إذ توصل إلى أنّ الانتحار يشير إلى سلطة المجتمع على الفرد، فالانتحار يتغيّر ويتأثّر بطريقة معاكسة لتكامُل المجموعات الاجتماعيّة في ما بينها بناءً على أنّ الفرد جزء لا يتجزّأ من تكوين هذه المجموعات الاجتماعيّة، فعندما تكون الجماعة

---

(١) Emile Durkheim, Suicide: A Study in Sociology, New York, Free Press, 1997.

(٢) ليون ميتارد، الانتحار والأخلاق، ترجمة: عادل العوا، دار دمشق، دمشق، ١٩٨٧.

(٣) انتحار، ويكيبيديا.. الموسوعة الحرّة الإلكترونيّة.

(٤) Jean Beachler, Les suicides, vol 01, Paris, édition Calmann-Lévy, 1975.

متماسكة يتماسَك فيها الأفراد وتتبلور قيم وقواعد السلوك لتنظيم العَلاقات بين الأفراد، بمعنى آخر فالجماعة تعمل على مساعدة الأفراد في إيجاد السُّبل الناجعة لتحقيق ما يصبون إليه ومن ثمّ تقلّ نسب الانتحار في مثل هذه المجتمعات[1]. وقد اعتبر دوركايم أنّ معدل حوادث الانتحار يعكس سيطرة المجتمع على الفرد، ولهذه السيطرة وظيفة معقدة يدعوها بوظيفة الاندماج الاجتماعيّ[2].

يحاول دوركايم أن يبرهن، مستعملًا مجموعة مهمّة من المُعطيات، أنّ الانتحار لا يمكن اختزاله إلى ظاهرة نفسيّة أو نفسانيّة مرضيّة: فلا نرى عَلاقة إحصائيّة بين معدل الانتحار ومؤشّرات حدوث الأمراض العقليّة، لكن برهان دوركايم حول هذه النقطة ليس مقنعـًا إلى حدّ كبير. فهو يقفز فوق صعوبة التفسير التي أبرزها التحليل الأيكولوجيّ الكميّ للترابطات المحسوبة على وحدات جماعيّة، والانتحار لا يمكن أن يختزل ـ حسب دوركايم ـ إلى التأثير الفسيولوجيّ للعوامل الجويّة والمناخيّة، برغم وجود دورات فصليّة للانتحار.

وبالفعل، تترافق الدّورات الفصليّة للانتحار بدورات أسبوعيّة ودورات يوميّة. الأولى وحدها يمكن أن ترتبط بتأثير من هذا النمط، وهذه الفرضيّة أيضـًا يقتضي رفضها ليس إلا لأنّ الدورات الفصليّة للانتحار أكثر بروزًا في الريف منها في المدينة. فأشكال الانتحار التي لا يمكن ربطها لا بالأسباب الفرديّة ولا بالأسباب (الطبيعيّة) ينبغي إذن أن تدرك حسب دوركايم بصفتها أثرًا لمتغيرات اجتماعيّة.

حينئذٍ يُوسّع دوركايم نظريّته الشهيرة عن الأنماط الأربعة للانتحار: إنّ تكيف الفرد مع المجتمع يفترض ألّا تكون التفرديّة فظّة جدًّا أو قصوى جدًّا. إذا كانت قصوى جدًّا، تولّد فرديّة مفرطة يسميها دوركايم بالأنانيّة. وعندما يميل الفرد إلى الانقطاع عن محيطه والانعزال فإنّ الانتحار هنا ينبع من النمط الأنانيّ. وإذا كانت التفرديّة فظّة جدًّا، فإنّ الانتحار من النمط الغيريّ يصبح أكثر حدوثـًا.

من جهة أخرى، يفترض التوازن بين الفرد والمجتمع ألّا تكون الضوابط الاجتماعيّة إكراهية جدًّا ولا قليلة الإكراه أو مشكوكـًا فيها: إنّ الضوابط شديدة الإكراه تساهم

(١) د. أحمد عياش، الانتحار: نماذج حيّة لمسائل لم تُحسم بعدُ، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٣.
(٢) د. محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعيّة للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.

في حدوث انتحارات من النمط القدريّ. وإذا أخذنا مثلًا لاحقًا لدوركايم فإنّ انتحار الكاميكاز من هذا النمط، وإنّ الضوابط القليلة الإكراه تترافق بتطوُّر الانتحار من النمط الارتباكيّ. إنّ الأنانيّة ـ حسب دوركايم ـ تميل إلى الانخفاض في فترات الأزمات السياسيّة والحرب، كذلك الانتحار الأنانيّ فإنّه يتراجع بشكل موازٍ. والمسيرة هي نفسها فيما يتعلّق بالأنماط الأخرى للانتحار. وهكذا يظهر دوركايم وجود ما سيسمى فيما بعد (الترابط) بين معدلات الانتحار ومؤشرات الارتباك[1]. فالانتحار أكثر حدوثًا مثلًا في مرحلة الازدهار الاقتصاديّ المفاجئ، ويكون أكثر حدوثًا في المهن المُميّزة للمجتمعات الصناعيّة الحديثة منه في المهن التقليديّة. وهو يتزايد في الوقت نفسه مع الطلاق... إلخ.

والسلوكيّات الانتحاريّة يمكنها أن تكون ذات وظائف مختلفة ثلاث: فالانتحار، بالنسبة لبعض الأفراد، يكون وسيلة تجنُّب الهروب من وضع هم عاجزون عن قبوله. وهو، بالنسبة لآخرين، يقابل الارتداد ضدّ الذات، ارتداد دافع عدوانيّ لم يكن يمكنه أن يوجّه ضدّ الغير. إنّهم يعتدون مع ذلك على مَن يحيطون بهم حين يعتدون على حياتهم هم، ذلك أنّ على مَن يحيطون بهم أن يواجهوا الحزن، بل تأنيب الضمير، والانتحار بالنسبة للكثيرين، أخيرًا، رسالة يائسة تعبّر عن ضروب اللّوم الموجَّهة إلى الغير على اللا مبالاة، كما تُعبّر في الوقت نفسه عن العجز عن الاضطلاع بوضع صعب. ويعاني كثير من المنتحرين عاطفة العُزلة والنبذ[2].

حاول دوركايم ذو البصيرة الأكثر نفاذًا في رؤية أبعاد الانتحار، أن يستقرئ حالات الانتحار في نهاية القرن التاسع عشر وتوصّل إلى تقسيم لتلك الحالات طبقًا للموقف الاجتماعيّ، كما يلي:

الانتحار الأنانيّ (Egoistic) وهنا يكون المنتحر في حالة عزلة وليست له ارتباطات بأيّ مجموعات اجتماعيّة وهذا يؤكّد زيادةَ الانتحار بين غير المتزوّجين، وزيادةَ الانتحار في المدن أكثر من القرى وزيادة الانتحار في المجموعات الدينيّة الأقل ترابطًا مقارنة بالمجموعات الدينيّة الأكثر ترابطًا.

---

(١) Emile Durkheim, op. cit.

(٢) مصطلحات اجتماعيّة: الانتحار، شبكة النبأ المعلوماتيّة، مصدر سابق.

وعندما تحتدّ الفرديّة عند الإنسان، ويحسّ أنّه في عزلة عن الكيان الاجتماعيّ، فإنّه يعجز حينئذٍ أن يُدرك أو يحسّ بقوة أية سلطة أخرى خارج نطاقه الفرديّ، فيصير فريسةً لعزلة حتميّة تُؤثّر في حياته وتطبعها، ممّا يجعلها غير مُحتملة، فتكون حياته متوترة كما يشعر بالقلق والخوف من المستقبل ولا يجدُ أمامه الدعم الاجتماعيّ، ومن ثَمّ، فإنّ النهاية قد تكون التفكير في وضع حدٍّ لأيّامه(١).

إنّ الشعور القهريّ بالعُزلة والاغتراب هو عاملٌ أساسيٌ غالبًا في الدفع باتجاه السلوك الانتحاريّ.

الانتحار الإيثاريّ (Altruistic) وهنا يحدث العكس، حيث نرى المُنتحر شديد الانتماء إلى مجموعته وهو لذلك يضحّي بنفسه من أجلها، ومثال على ذلك الجندي الذي يدفع نفسه للموت في المعركة في سبيل وطنه. ويعرف هذا النوع أيضًا بالانتحار الغيريّ، حيث ينبثق من تكامل اجتماعيّ قويّ وروابط اجتماعيّة صُلبة إلى درجة ذوبان النزعة الفرديّة في التكامل والتضامن الاجتماعيّ(٢).

الانتحار الفوضوي (Anomic) ويسمّى أيضًا هذا النوع من الانتحار «الانتحار اللا قياسيّ أو اللا معياريّ» وينتج من الخلل الذي يعمُّ النظم الاجتماعيّة السائدة نتيجة التغيُّرات الاجتماعيّة المفاجئة والسريعة التي تهتز لها الأعراف والقيم والمعايير الاجتماعيّة السائدة.

وفي هذا النموذج، تضطرب وتتشوّه العَلاقة بين الشخص والمجتمع لذا تجده يسلك سلوكًا مناقضًا للأعراف والتقاليد أو غريبًا عليهما. وهذا يمكن أن يحدث من جانب الشخص حين يمرُّ بظروف ماديّة شديدة الاضطراب تجعله مضّطرًا للخروج من السياق الاجتماعيّ المألوف، أو أن يحدث هذا من جانب المجتمع في مراحل الانهيارات والتحولات الاجتماعيّة المفاجئة(٣).

ونظرًا لنجاح نظرية دوركايم في تفسير ظاهرة الانتحار إلى حدٍّ كبير، طوّر

---

(١) يوسف ميخائيل أسعد، المشكلات النفسيّة.. حقيقتها وطرق علاجها، دار النهضة للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٨٨.

(٢) M. Quido; M (1970): Le suicide, perspective et prévention, vol 01, E .S.F.France.

(٣) Emile Durkheim, op. cit.

جيمس مارتن النظريّة الاجتماعيّة، حيث يشير إلى وجود علاقة عكسيّة بين التضامن الاجتماعيّ والانتحار. وجوهر هذه النظريّة هو أنّ معدلاتِ الانتحار في مجتمع ما تتباين عكسيـًا مع استقرار العَلاقات وقوتها داخل المجتمع[1].

وحسب المدرسة الاجتماعيّة، فإنّ الانتحار يعود أساسـًا إلى هشاشة العَلاقات الاجتماعية أو اختفائها، مما يدفع بالفرد إلى الشعور بالوحدة والعزلة الاجتماعية الذي يكون دافعـًا قويـًا إلى نمو الميول الانتحاريّة. كما يشير دوربات وربلاي (١٩٦٠) إلى أنّ الانتحار غالبـًا ما يتمُّ تنفيذه في كيان منعزل. ووجد هذان الباحثان في دراستهما أنّ من بين المنتحرين نسبة كبيرة من الذين فقدوا عَلاقات شخصيّة مهمة مع آخرين، فضلًا عن ظهور استجابات حزن وحداد شديدينِ لمدّة طويلة.

ومع أنّ لكلّ حالة انتحار خصوصيتها، فإنّه يوجد عدد من إشارات التنبيه والأعراض التي يُظهرها المُقْدِمون على الانتحار ومنها: التغيّرات المفاجئة في السلوك، التغيّر في نمط النوم أو نمط الطعام، والإهمال في الدراسة أو العمل، إهمال الشخص لعَلاقاته الاجتماعيّة ولمظهره الخارجيّ، التحدّث عن الانتحار والموت بصورة غريبة، فَقَد الاهتمام بالأنشطة المُعتادة والانسحاب منها، فقدَ المتعة في الأمور المحبّبة له، التحدث عن فقدِ الأمل والشعور بالذنب أو اليأس، نقدِ الذّات، القلق النفسيّ، الخمول، السوداويّة، الانعزال والانطواء، الحقد على المجتمع، الشكوى من الصّداع، قلّة التركيز، التخلّص من المقتنيات الشخصيّة الثمينة، أحيانـًا تعاطي المخدرات والمسكرات، بالإضافة إلى محاولة فاشلة أو أكثر في تجربة الانتحار[2].

ويقول الطبيب النفسيّ والباحث الاجتماعيّ أحمد عياش إنّ «الانتحار قرار ذاتيّ بتدمير الذات، بإنهاء الأنا»[3]، وهو يقسّم الانتحار إلى ثلاثة أشكالٍ: الأول هو الانتحار الناجح ويكون فيه الموت مُحقّقـًا عبر سلوك محكم التنفيذ، والثاني هو الانتحار الفاشل حيث تكون الرغبة في الموت حقيقيّة إلا أنّ السلوك الانتحاريّ غير محكم التنفيذ، والشكل الثالث هو «الرديف الانتحاريّ»، أي حين يعلن المرء نيّته الموت الإراديّ إلا أنّه غير قادر على تنفيذ السلوك الانتحاريّ، أو حين يخفي نيّته

---

(١) د. ذياب البداينة، جريمة قتل النفس في المجتمع الأردنيّ، دراسة من وجهة نظر علم الاجتماع، مجلة الملك سعود، المجلة ٢، كلية الآداب، الرياض، ١٩٩٥.

(٢) آندي حجازي، مصدر سابق.

(٣) د. أحمد عياش، مرجع سابق.

الموت، على رغم أنّه يسلك سلوكـًا انتحاريـًّا يؤدّي به إلى الهلاك. في هذا السياق قد يكون أي فرد فكّر ولو مرّة واحدة في الموت من دون أن يعمل مباشرة على وضع حدّ لحياته، ولكن، من جهة أخرى، قد يلجأ بعضهم إلى تصرّف «رديف»، وذلك من خلال تناول مواد مُدمّرة (كحول، مخدرات) أو الامتناع عن متابعة علاج أو التعرض لحادث سير «مفاجئ» بسبب القيادة المتهوّرة.

وفي بعض التفسيرات الاجتماعيّة فإنّ الانتحار جريمة، والجريمةُ هي شكل من أشكال الخروج عن قواعد السلوك التي يضعها المجتمع لتنظيم حياة أفراده، فالمجتمع الذي هو يحدّد ماهيّة السلوك العاديّ والسلوك المنحرف أو الإجراميّ، وفقـًا لقِيَمه ومعاييره التي ارتضاها لضبط سلوك أفراده وحمايتها[1].

وعلى الجملة، فإنّ محاولات الانتحار بين الشبّان أكثر منها بين الرجال، وفي الإناث أكثر من الذكور. ومن المرجّح أن يُقْدِم الذكور على الانتحار على نحو أعلى من الإناث، مع أنّ الإناثَ يحاولنَ الانتحار بشكل يوازي ضعفي محاولات الذكور، فكلاهما يحاول ولكنّ عدد المحاولات الناجحة في الانتحار لدى الذكور أكبر، بينما عدد المحاولات الفاشلة لدى الإناث أكبر. وقد يُعزى ذلك إلى أنّ الذكور يستخدمون أساليب أكثر شِدة كالقتل بالأسلحة أو السقوط من أماكن مرتفعة، بينما تستخدم الإناث طرقًا أقل قسوة كتناول الدواء أو السموم، فيتم إنقاذهنّ في مرات كثيرة. وقد يعود ذلك إلى الطبيعة الاندفاعيّة عند الذكور أكثر ممّا لدى الإناث، بالإضافة إلى قدرة الإناث على طلب العون والدعم النفسيّ من الآخرين، والحصول عليه بسهولة أكثر من الذكور الذين يجدون صعوبة في التعبير عن أنفسهم وطلب المساعدة من الاختصاصيّين أو المُقرّبين.

وعلى سبيل المثال، أظهرت إحصائيّة عام ١٩٩٥ حول الانتحار في أستراليا أنّ (١٨٧٢) رجلًا أقدموا على الانتحار في مقابل (٤٩٥) امرأة انتحرن، وأنّ الانتحار في استراليا يعتبر السبب الأول للموت بالنسبة للرجال، والسبب الثالث للنساء[2].

ومن أشكال الانتحار ما يسمّى الانتحار الجماعيّ، الذي يمكن تفسيره بواسطة ديناميّات الجماعة من الإيحاء والانقياد وضغط المجموعة والتوحُّد والمحاكاة. ومن

(١) سامية حسن الساعاتي، الجريمة و المجتمع، دار النهضة العربية، ط ٢، القاهرة، ١٩٨٣.
(٢) آندي حجازي، مصدر سابق.

ذلك ما جرى في سان دييغو في كاليفورنيا بالولايات المتّحدة يوم ٢٦ مارس ١٩٩٧ حيث قام مارشال أبلوايت قائد الجماعة الدينيّة المسمّاة بوابة السماء (Heaven's Gate) بالانتحار بواسطة تعاطي حبوب فينوباربيتال مع تغطية الرأس بكيس بلاستيكيّ لضمان الموت اختناقـاً[١]. وقد تبعه في الانتحار ٣٨ شخصًا من أتباعه اجتمعوا في مكان واحد، هو رانشو سانتا في، ليموتوا سويًّا خلف زعيمهم الروحيّ الذي أقنعهم بأنّ موته يفتح له أبواب الجنّة حيث ستصعد روحه في سفينة فضاء لتخترق حجب السماء نحو الجنّة. وقد وجد أتباعه أنفسهم يفضلون أنّ تتبع أرواحهم روح زعيمهم في الصعود إلى السماء.

هنا نتذكّر ما قاله سيرج حليمي في كتاب نشره عن «كلاب الحراسة الجدد». كل منّا، يحرس ما تطبع عليه من انتماء والتحاق، حتّى لو كان ذلك يقود إلى الهاوية.

ويبدو أنّ التوصُّل إلى صياغة نظريّة عامّة وشاملة لتفسير الانتحار كسلوكٍ إنسانيّ ومشكلة خطيرة ما زال بعيدًا لم يحقّقه بعدُ الباحثون المختصّون، نظرًا لتعقُّد النفس البشريّة من ناحية وتعدّد المتغيّرات التي تؤثّر فيها من ناحية أخرى[٢].

إنّ قضية السببيّة في الجريمة بوجه عامّ والانتحار بوجه خاصّ قضيّة معقّدة وليست بسيطة، وهناك عبر التاريخ تفسيرات مختلفة للانتحار فيها التأويلات الفلسفيّة، والسيكولوجيّة، والاجتماعيّة، والعضويّة وغير ذلك.

ولكن، ألا يقدّم الانتحار مخرجـاً ـ في رأي البعض ـ من ورطة الحياة؟

إنّ رؤية الفيلسوف الألمانيّ شوبنهاور تعدُّ ذات أهمية خاصّة في هذا الصّدد؛ فهو يعتقد أنّ «باب ابكتيتوس المفتوح دائمًا» لا يُفضي إلى أيّ مكان؛ لأنّ إرادة الحياة الهائلة القويّة لا تتوقف ولا تنكر من خلال موت الفرد. ويقول شوبنهاور: «إنّ الانتحار ينفي الفرد فحسب لا النوع...»، وبالتالي فإنّ «الإفناء الإراديّ للوجود

---

(١) Elizabeth Gleick, Cathy Booth and James Willwerth (Rancho Santa Fe); Nancy Harbert (Albuquerque); Rachele Kanigal (Oakland) and Richard N. Ostling and Noah Robischon, The Marker We›ve Been...Waiting For, NewYork, Time magazine, April 7,1997.

(٢) عبدالله بن سعد الرشود، ظاهرة الانتحار، التشخيص والعلاج، جامعة نايف العربيّة الأمنية، مركز الدّراسات والبحوث، الرياض، السعوديّة، ٢٠٠٦.

الظاهرة المفرد هو عملٌ أحمق وعابث، ذلك أنّ الشيء في ذاته يظل دونما تأثر تماماً كما يظلّ قوس قزح على حاله أيّاً كانت السرعة التي تتغيّر بها قطرات المطر التي تسانده»[١].

في المقابل، كان موقف الفيلسوف الألمانيّ فريدريك نيتشه إزاء الموت مزدوج الدلالة، فقد بدا الموت له في البداية تحررًا من وجود لا يُطاق، وحاول الانتحار ثلاث مرات. ونجد في كتاباته تمجيدًا للموت ينافس تمجيد الرومانتيكيّذين الأوائل له: «ليس الموت صفعة للإنسان وللأرض.. فكلّ ما يصل إلى الكمال وكل ما يبلغ النضج يرغب في الموت.. لقد تحوّل الموت إلى دواء مرٍّ على يد عقول الصيادلة الضيقة الأفق، مع أنّ المرء يتعيّن عليه أن يجعل من موته عيدًا[٢]».

ويمدّ الفرنسيّ جان بول سارتر نطاق الرؤية القائلة بأنّ الموت لا يمكن أبدًا أن يمنح الحياة معنى، لتشمل كذلك الموت من خلال الانتحار، فهو حدثٌ من أحداث الحياة، وباعتباره كذلك فإنّ المستقبل وحده هو الذي يمكن أن يمنحه معنى. وفي هذا يقول سارتر: «وإذا لم أمت من جرّاء محاولتي الانتحار فإنّني قد أعتبره فيما بعد جبناً، حيث إنّه سيتضح لي أنّ هناك حلولًا أخرى كانت ممكنة كذلك، ولكن بما أنّ هذه الحلول لا يمكن إلا أن تكون مشروعاتي الخاصة فإنّها لا يمكن أن تنفذ اللهمّ إلّا إذا عشت. وهكذا فإنّ الانتحار أيضاً عبث يؤدّي إلى أن تغدو الحياة غارقة في العبث»[٣].

ولفرط الاهتمام بفكرة الموت عموماً وظاهرة الانتحار على وجه الخصوص، اهتمّت بدراسة هذه المسألة علوم وتخصّصات عدّة منها، وأصبحت ميدان بحثٍ مشترك بين الإنسانيّات جميعاً: «الطب والتمريض، والصحة العامّة، والعلوم الاجتماعيّة والسلوكيّة، وعلى الأخصّ علم النفس، وعلم الاجتماع، والقانون، فضلًا عن الدّين والفلسفة»[٤].

---

(١) آرثر شوبنهاور، العالم كإرادة وتمثُّل، ترجمة: ت. ب. هالدين، ج. كيمب، ط ٩، الجزء الأول، روتلدج وكيغان بول، لندن، ص ٥١٥.

(٢) نيتشه، أعمال نيتشه، (تحرير) موساريون أوساجابي، ميونيخ، ١٩٢٢.

(٣) جان بول سارتر، الوجود والعدم، غاليمار، ط ٤٥، ١٩٥٥، ص ٦١٦.

(٤) د. أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، عالم المعرفة، الكويت، عدد ١١١، مارس ١٩٨٧، ص ٧.

الأكيد أنّ الانتحار بات قضية تؤرّق العالم، حتّى إنّ منظّمة الصّحة العالميّة خصّصت العاشر من سبتمبر من كل عام ليكون اليوم العالميّ لمنع الانتحار، قائلة إنّ الغرض من ذلك «هو تعزيز الالتزام والعمل في شتّى أرجاء العالم من أجل منع حالات الانتحار. وتُسجّل، في المتوسط، نحو ٣٠٠٠ حالة انتحار يوميـاً. وهناك، لكل حالة انتحار، ٢٠ محاولة انتحار أو أكثر»[١].

ارتفاع معدلات الانتحار في العالم هو السبب الذي تكوّنت من أجله هيئات الوقاية من الانتحار، في كل أنحاء العالم على وجه التقريب، بدءًا من أربعينيّات القرن الماضي. وأشهر هذه التنظيمات هما تنظيم (S.O.S للصداقة) والرابطة الدوليّة لمنع الانتحار، وهما تعملان مع غيرهما من هيئات وتنظيمات على توحيد الجهود لمواجهة هذه الظاهرة المقلقة عالميًا[٢].

ولعلّ ما يزيد صعوبة الأمر هو أنّ تلك الظاهرة تمتدّ على امتداد خارطة العالم. إنّها ظاهرة ليست بعيدة عن العولمة؛ فوفقـًا لمنظمة الصحة العالميّة ثمة خلال العقد الأخير حوالي مليون حالة انتحار مسجّلة سنويًّا في العالم[٣]، أي أكثر من عدد ضحايا جرائم قتل النفس وضحايا الحروب مجتمعين[٤]. بل إنّ ما بين عشرة إلى عشرين ضعفـًا للرقم السابق حاولوا الانتحار. لقد شهدت مُعدّلات الانتحار زيادة قدرها ٦٠٪ خلال الـ٤٥ سنة الأخيرة، علمًا أنّ نحو ٤٠٪ من حالات الانتحار في العالم تحصل في الصين والهند واليابان نظرًا لتعدادها السكانيّ الكبير[٥].

وتشير إحصّاءات منظمة الصّحة العالميّة لعام ٢٠١١، إلى أنّ ليتوانيا تشهد أعلى معدلات الانتحار في العالم بمعدل ٣٤,١ حالة انتحار لكل ١٠٠ ألف نسمة،

---

(١) اليوم العالميّ لمنع الانتحار، موقع «منظمة الصحة العالميّة» الإلكترونيّ.

(٢) Lanny Berman, Message from the President, International Association for Suicide Prevention (IASP).

(٣) Nikola Krastev, CIS: UN Body Takes on Rising Suicide Rates, Radio Free Europe/Radio Liberty, 9 September 2006.

(٤) Suicide prevention (SUPRE), WHO Sites: Mental Health. World Health Organization, 16 February 2006.

(٥) WHO Statement: World Suicide Prevention Day 2008. (PDF), http://www.who.int/mental_health/prevention/suicide/wspd_2008_statement.pdf, World Health Organization, 2008.

وتليها كوريا الجنوبية (٢ , ٣١) ثم غيانا (٤ , ٢٦) وكازاخستان (٦ , ٢٥) وبيلاروسيا (٣ , ٢٥) فالمجر (٦ , ٢٤). وحلّت اليابان في المركز السابع (٨ , ٢٣)، وتلتها لاتفيا (٩ , ٢٢) فالصّين (٢٣ , ٢٢) وجاءت سلوفينيا (٩ , ٢١) في المركز العاشر. وحلّت روسيا (٤ , ٢١) في المركز الثاني عشر، وسويسرا (١٨) في المركز السادس عشر، والولايات المتّحدة (٨ , ١١) في المركز ٤١، وجاءت إيران (٤ , ٦) في المركز ٦٣، واستقرت إسرائيل (٨ , ٥) عند المركز ٦٦.

عربيًّا، تصدّرت البحرين (٨ , ٣) القائمة حيث جاء ترتيبها ٧٧، وتلتها الكويت (٨ , ١) في المركز ٩٢، فالأردن (١ , ١) في المركز ٩٤، ثم سوريّة (١ , ٠) وترتيبها ١٠١، مصر (١ , ٠) التي حلّت في المركز ١٠٢.

وتدلّ معظم الدراسات على وجود عَلاقة ترابط تامّ بين أغلب حالات المُنتحرين في العالم العربيّ وبعض المتغيّرات التي تنحصر في الفقر والبطالة والفشل العاطفيّ يليه الدراسيّ ثم الوظيفيّ، فيما لم تغفل هذه الدراسات المتغيّرات الخطيرة التي طرأت على المنطقة من كثرة الحروب ومناطق الصراع المشتعل في كثير من البلدان[١]. وظهرت حالاتٌ أقدمت على الانتحار بسبب المرض العقليّ أو الجسديّ، لكنّها لا تشمل طائفة كبيرة من المُنتحرين.

وتشير الأرقام إلى أنّ أكثر من ٦٩٪ من أعداد المُنتحرين في العالم العربيّ عانوا ضغوطـًا اقتصاديّة قاسية من فقر وبطالة. ولعلّ أخطر دلالات الإحصاءات التي تهتم برصد ظاهرة الانتحار في المجتمعات العربيّة، أنّها تشير إلى أنّ أكثر من ٧٨٪ ممّن يُقدمون على الانتحار تنحصر أعمارهم ما بين ١٧ و٤٠ عامًا، وأغلب دوافع التخلص من الحياة يدخل فيها التدهور الاجتماعيّ الاقتصاديّ والفشل في إيجاد فرصة عمل وهو ما يعني توجيه ضربة قاضية لعصب هذه المجتمعات ومن يقع على عاتقهم عبء النهضة والتقدّم. وتشير الأرقام إلى أنّ ما بين ١١ ألفـًا و ١٤ ألف شاب وفتاة ينتمون إلى بلدان عربية يحاولون الانتحار كل عام[٢]. وتتركز أعلى المعدلات في الدول التي تعاني مشكلتي الفقر والبطالة اللتين تهددان سلامة واستقرار هذه المجتمعات.

---

(١) فخري الدبّاغ، الموت اختيارًا.. دراسة نفسية اجتماعية موسعة لظاهرة قتل النفس دراسة نفسية اجتماعية موسعة لظاهرة قتل النفس، دار الطليعة، ط٢، بيروت، ١٩٨٦.

(٢) عادل غاسق، لماذا ارتفعت نسبة الانتحار في العالم العربي، موقع نبأ نيوز، ١٤ أكتوبر ٢٠٠٩.

كما تزيد معدلات الانتحار في المجتمعات التي تعاني حروبـًا أهليّة أو ترزح تحت الاحتلال أو اقتتال طائفيّ، فيندفع الشاب أو الفتاة للتخلّص من حياته إذا ما فشل في تحقيق سعادته.

وتشير الدراسات إلى تزايد نسب الانتحار في العالم العربيّ خلال السنوات الأخيرة بشكلٍ يدعو إلى القلق. ووَفق ما نشرته «مُؤسّسة الفكر العربيّ للدّراسات والبحوث» عام ٢٠١٠ فقد تزايدت نسبة المُنتحرين حيث وصلت إلى ٤ أشخاص لكل ١٠٠ ألف بعد أن كانت ٢ لكل ١٠٠ ألف قبل سنوات.

في أواسط العقد الأوّل من القرن الحادي والعشرين، نشرت جريدة «الوطن» الجزائرية مقالاً بعنوان «كلّ يوم ينتحر جزائريّ»، أوردت فيه: «إنّ التخلص من الحياة يهدف للهروب من واقع أصبح أثقل مما يمكن تحمّله. هذه هي الحالة التي دفعت بـ١٧٧ جزائريًا لإحراق أنفسهم، وذلك وَفق إحصّاءات الشرطة الجزائريّة، في الوقت الذي قام فيه جهاز الدرك الوطنيّ بتسجيل ١٢٨ حالة انتحار. هل هذا يدقّ جرس الإنذار؟ من دون شكّ نعم. ذلك أنّ الخط البيانيّ في حالة تصاعديّة، وحالات الانتحار تسجّل تزايدًا ملحوظـًا، حتّى ولو كان هذا التزايد خفيفًا»[1].

كان هذا أحد أجراس الإنذار التي قرعت في الجزائر.

وبالفعل، بيّنت الأرقام الرسميّة الصادرة عن جهاز الأمن في الجزائر تصاعدًا مضطردًا في حالات الانتحار. فعلى سبيل المثال، ارتفعت نسبة المُنتحرين من ٠,٧٤ لكل مئة ألف نسمة في العام ١٩٩١ إلى ٢,٢٥ للنسبة نفسها في العام ٢٠٠٣، ما يضع الجزائر في مرتبة متوسطة مقارنة ما باقي الدول العربية[2]. بل إنّ هناك بعض الباحثين الذين يرون أنّ هذه الإحصاءات هي دون الواقع.

في الجزائر، أحصت أجهزة الدرك الوطنيّ خلال العام ٢٠١١ ما لا يقل عن ١٨٦٥ محاولة انتحار و٣٣٥ حالة انتحار عبر مختلف الولايات. وأكّد المُختصّون أنّ الدراسات تشير إلى أنّ يناير يبقى الشهر الذي يسجل تناميًا ملحوظًا للظاهرة، بينما تتراجع حدتها خلال شهر رمضان. وتكشف الدراسات أنّ أغلب المنتحرين فضلوا الموت شنقًا.

---

(١) نادجيا بوعرشة، «كل يوم جزائري ينتحر»، الوطن، الجزائر، ٢٧ مارس ٢٠٠٨.

(٢) الانتحار.. أحد أبرز أسباب الموت في الجزائر، لو سوار، الجزائر، ١٨ نوفمبر ٢٠٠٥.

وتسجل الدراسات التي قام بها جزائريون مختصّون أنّ فئة غير المتزوجين تمثل الأغلبية في فئة المُنتحرين، وأنّ ولايات تيزي وزو، وبجاية، والبويرة، وسكيكدة وميلة تأتي في الصدارة. كما أنّ ٤٠٪ من الذين انتحروا خضعوا من قبل لعلاج على مستوى مصلحة الطبّ العقليّ[١].

وسجلت أجهزة الدرك الوطنيّ في الجزائر، خلال ١٠ أشهر من العام ٢٠١١ تعرض ٥٦٣٠ امرأة للعنف بجميع أنواعه، فيما حاولت ٦٠ امرأة عبر ١١ ولاية الانتحار[٢]. ووصل العدد الإجماليّ لسنة ٢٠٠٨ إلى ٣٣ حالة انتحار و٤٨ محاولة وَفق إحصاءات للشرطة الجزائريّة معظمهم من الذكور ممّن يعانون البطالة أو مصابين بأمراض عقليّة[٣].

غير أنّ هناك من يتحفظ على هذه الأرقام، ويرى أنّها أقل بكثير من واقع الأمر في الجزائر.

وحسب دراسة غير رسميّة تقريبيّة أشرف عليها مجموعة خبراء من تخصصات مختلفة مثل علم النفس، والاجتماع، وعلم الأعصاب من مركز البحث والدراسات المعمقة حول الإنسان، فإنّه يتم تسجيل ما معدله ١٠ آلاف محاولة انتحار فاشلة سنويـاً في الجزائر. وبلغة الأرقام، فإنّه تسجل في الجزائر حوالي ٢٧ محاولة انتحار في اليوم، أي محاولة انتحار في كل ساعة[٤].

وفي السياق نفسه، كشف البروفيسور خياطي رئيس مؤسّسة البحوث الطبية «فورام» المستقلة في مداخلة له في ملتقى نظمته المؤسّسة بدار الشباب بالحراش، أنّ معدلات الانتحار أخذت أبعادًا خطيرة في الجزائر مستدلًا بالدراسة المحدودة التي

---

(١) ١٨٦٥ محاولة عام ٢٠١١ الانتحار في تنامي مضطرد ومنطقة القبائل تحتل الصدارة، موقع الصحفيين المواطنين الجزائريين، ١٢ يونيو ٢٠١٢.

(٢) يو بي آي، ١٫٥ ألف جزائرية تعرضن للعنف خلال ١٢ شهرًا، جريدة «القدس العربي»، لندن، ٨ مارس ٢٠١٢.

(٣) عادل غاسق، مصدر سابق.

(٤) سليمان حاج إبراهيم، أرقام وحقائق مرعبة عن الانتحار في الجزائر، موقع أمان- المركز العربيّ للمصادر والمعلومات حول العنف ضدّ المرأة، أغسطس ٢٠٠٧.

أشرفت عليها المؤسسة التي تناولت الظاهرة من ١٩٩٥ إلى ٢٠٠٣ حيث تمّ تسجيل ما معدله حالة انتحار في كل ١٢ ساعة.

المفارقة التي أثارت انتباه الباحثين وأثارت تساؤلاتهم بشأن الأرقام المقدّمة من الجهات الأمنية الجزائريّة، هي كون العاصمة التي يبلغ عدد سكانها نحو خمسة ملايين نسمة لا تسجل بها نسب انتحار كبيرة مقارنة ببعض الولايات التي تعرف تنامياً للظاهرة والتي تأتي في مقدّمتها تيزي وزو، التي تراجع لديها الرقم مقارنة بسنة ٢٠٠٠ (١٠٠ حالة انتحار)، حيث لم يتعدّ ٦٢ حالة في سنة ٢٠٠٤، وبلغ ٧١ حالة في سنة ٢٠٠١، لكن ولاية بجاية هي التي احتلّت المرتبة الأولى في سنة ٢٠٠٤ بتسجيل ٩٩ حالة انتحار تليها ولاية تيارت بـ ٢٤ حالة ثم كل من وهران بـ ٢١ حالة وبومرداس بـ١٨ حالة، وجاءت معسكر في مرتبة متأخرة بـ ١٧ حالة وعين الدفلى بـ ١٤ حالة، وأخيرًا العاصمة التي تأتي في المرتبة الثامنة بـ ١١ حالة[١].

وسجلت المديريّة العامة للأمن الوطنيّ في إطار دراسة داخليّة أشرف عليها خبراء من مصلحتها وجود تزايد كبير في عدد محاولات الانتحار لدى المراهقين في الجزائر. ففي سنة ٢٠٠٢ وحدها تم تسجيل حوالي ١٢٠٠ محاولة انتحار. إلّا أنّ الرقم انخفض وتراجع في السنة الموالية إلى ٨٥٠ محاولة. ولعلّ أهمَّ ما يستوقفنا في هذه الأرقام أنّ أكثر من ٦٥٪ من محاولات الانتحار سجلت لدى الإناث. الأخطر من ذلك هو تسجيل حوالي ١٥٠ محاولة انتحار في سنة ٢٠٠٢ لدى الإناث أقلّ من ١٧ سنة وهو يطرح أكثر من سؤال. ظلّ الرقم في نفس المستوى لسنوات، ففي سنة ٢٠٠٣ بلغ حوالي ١٠٠ محاولة لدى هذه الفئة وعند الإناث فقط، بينما لم يتجاوز عند الذكور من الفئة نفسها ٢٠ حالة. أمّا مجموع محاولات الانتحار عند الإناث من جميع الأعمار في سنة ٢٠٠٢ فتجاوز ٥٠٠ حالة أي حوَالَي محاولتي انتحار يوميًّا لفتيات تقل أعمارهنّ عن ١٧ سنة[٢].

يرى باحثون أنّ ظاهرة الانتحار كانت موجودة دائمـًا في الجزائر، لكنّها كانت من المحرمات التي ينبغي التحدث عنها إلى أن كُسرت الصحف هذا الصّمت بعد إطلاق الحريّات سنة ١٩٨٩ مع انتهاء نظام الحزب الواحد الذي حكم الجزائر

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

بقبضة من حديد منذ استقلال البلاد سنة ١٩٦٢. ويرى طاهر طالب علم الاجتماع أنّ «الانتحار شأنه شأن الشذوذ الجنسيّ والحمل السفاح كان موجودًا لكن لا أحد يتحدّث عنه وكانت الأسر التي يقدم أحد أفرادها عليه تحرص على أن تكتم الأمر بشدّة»[١]. ويضيف أنّ الصحف هي التي أصبحت تتكلّم كثيرًا عن هذا الموضوع معطية بذلك انطباعًا خاطئًا بأنّها ظاهرة جديدة وإن اعترف في الوقت نفسه باحتمال حدوث زيادة في معدلات الانتحار. ويفسر طاهر الأمر بزيادة النمو السكانيّ الذي شهدته الجزائر مع ارتفاع عدد السكان من عشرة ملايين نسمة سنة ١٩٦٢ إلى ٣١ مليون حاليا. ويقول «يوجد عدد اكبر من السكان ولا سيما من الشُّبان ومن ثم المزيد من حالات الانتحار».

وفي تونس، تشير الإحصاءات إلى أنّ عدد حالات الانتحار وصل إلى (١٣٥٤) حالة في العام ٢٠١٠ مقارنة بـ(٩٠٥) حالات في العام ٢٠٠٨. وكشفت دراسة أجراها ثلاثة من كبار أطباء الأعصاب والأمراض النفسيّة التونسيين أنّ نسب الانتحار ارتفعت بشكل مفزع في تونس، إذ قدر عدد محاولات الانتحار سنويـاً بواحد في الألف أي حوالي عشرة آلاف تونسي يحاولون الانتحار كل عام، تنجح فرق الإسعاف في إنقاذ أغلبهم[٢].

وقالت الدراسة ـ التي أشرف عليها الأطباء النفسانيّون أنور جراية وجودة بن عبيد ووسيم السلامي ـ إنّ هناك أسبابـاً عدة وراء هذه الظاهرة، منها أفلام العنف للصغار والكبار، والأغاني التي تشجب الحبيب الغدار والخليلة الخائنة، والطموحات التي باتت بلا حدود، والموادّ والأفكار التي تروج لها آلاف القنوات الفضائيّة في كل بيت، وسلوكيّات غريبة في الأحياء الشعبيّة والغنيّة على حدّ سواء.

وفي المغرب، أظهرت دراسة أجراها أطباء ينتمون إلى المستشفى الجامعيّ بالرباط أنّ معدل الانتحار في المغرب ربّما يفوق ١٢٠٠ حالة انتحار لكل ١٠٠ ألف نسمة، وهو رقم يقترب من المعدلات الدوليّة[٣]. وتؤكّد معلومات إحصائيّة أكاديميّة

---

(١) لماذا ينتحر شباب الجزائر؟، مجلة العلوم الاجتماعيّة، الرياض، ٧ يوليو ٢٠٠٧.

(٢) كمال بن يونس، دراسة تكشف عن ارتفاع نسبة الانتحار في تونس، بي بي سي عربي، ٥ إبريل ٢٠٠٥.

(٣) لحسن والنيعام، يبلغ عدد المُنتحرين في المغرب ١٢٠٠ حالة لكل ١٠٠ ألف نسمة مُقتربين بذلك من المعدل الدوليّ، موقع مغرس، ٥ ديسمبر ٢٠١٠.

أنّ أكثر من مليونين و٩٠٠ ألف مغربيّ لا يُخفُون رغبتَهم في وضع حدّ لحياتهم، نتيجة للفقر والبطالة وانسداد آفاق العمل المُجدي[١].

ولعلنا نتذكّر قضية أمينة الفيلالي.

انتحرت أمينة، ابنة السادسة عشرة، مستخدمة سُم الفئران بعد ستة أشهرٍ من الزواج من مغتصبها الذي كان يعتدّي عليها بالضرب والتعذيب خلال تلك الفترة.

مأساة فتاة العرائش، وهي بلدة قريبة من مدينة طنجة، بدأت حين تعرضت للاغتصاب تحت تهديد السلاح الأبيض على يد مزارع خمسيني، قبل أن يتم تزويجها لمغتصبها في المحكمة العائليّة لبلدة العرائش في إطار مصالحةٍ بين الأسرتين، بعد أن كان والد الضحية القاصر قد تقدّم بشكوى.

أفلت المغتصب من إدانة في القضاء استنادًا إلى مادّة في قانون العقوبات المغربيّ تنصّ على أنّ «المغتصب يفلت من السجن إذا تزوّج من ضحيته». وحسب رئيسة الرابطة الديمقراطية لحقوق المرأة المغربيّة فوزيّة عسولي، فإنّ المادة ٤٧٥ من قانون العقوبات «تمتنع عن اعتبار الاغتصاب جريمة لكنّها تتضمن تناقضات بما أنّها تعاقب الخاطف»، معبرةً عن أسفها لأنّ هذه المادة تدافع عن «الأسرة والأعراف لكنّها لا تأخذ في الاعتبار حقّ المرأة كفرد»[٢].

قضيّة أمينة هزّت الرأي العام المغربيّ، وخصوصًا بعدما بدأت تتكشّف تفاصيل تعرّضها للضرب على يد زوجها، قبل أن تُقدِم على الانتحار. وسرعان ما اعتصم المئات من المغاربة أمام مقر البرلمان في الرباط، مطالبين بتغيير المادة ٤٧٥ من القانون الجنائيّ التي تسمح لمرتكبي عمليّات الاغتصاب بالزواج من ضحاياهم[٣]، تحت مُسمّى «جبر الضرر»[٤].

وأوضحت عسولي أنّ المادة ٤٧٥ من قانون العقوبات «تمتنع عن اعتبار الاغتصاب

---

(١) آندي حجازي، مصدر سابق.

(٢) مغربيّة أجبرت على الزواج من مغتصبها.. فانتحرت، موقع العربيّة نت، ١٥ مارس ٢٠١٢.

(٣) هناء محمد بوخشم، مغربيّة قاصر انتحرت بعد أن أرغمت على الزواج من مغتصبها الذي أفلت من العقاب، موقع العربيّة نت، ١٩ مارس ٢٠١٢.

(٤) عماد استيتو، أمينة المغربيّة قُتلت مرتين، جريدة «الأخبار»، بيروت، ١٦ مارس ٢٠١٢.

جريمة لكنّها تتضمن تناقضات بما أنّها تعاقب الخاطف»، معبرةً عن أسفها لأنّ هذه المادة تدافع عن «الأسرة والأعراف لكنّها لا تأخذ بالاعتبار حقّ المرأة كفرد».

في موريتانيا، دخلت مرادفة الانتحار قاموس الدولة الموريتانيّة الحديثة وهي بعد في بداية نشأتها ولم تكمل ربيعها الحادي عشر، حيث كان أول انتحار تم تسجيله رسمياً في العام ١٩٧١ بمدينة روصو، حين أقدم الخازن الجهوي للدولة على إطلاق النار على نفسه. وحسب الخبر الرسميّ وقتها، فإنّ الرجل قام بما قام به نتيجة فقدانه لمبلغ مالي يعادل ٤٠ ألف أوقيّة من خزنته واتهام مراقب الدولة له باختلاسه. ومنذ ذلك الوقت وحتّى إبريل ٢٠١٢، سجلت المصالح الأمنيّة والقضائيّة في موريتانيا ما يربو على ١٤٩ حوادث انتحار تراوحت أدواتها بين إطلاق النار والشنق والحرق وشرب موادّ سامّة وغير ذلك. إلا أنّ الانتحار شنقـاً هو الوسيلة الغالبة يليه في الترتيب إطلاق النار، وكان أبطالها من مختلف الأعمار والأجناس والجنسيّات(١).

كما تنتشر ظاهرة الانتحار في بعض البلدان العربيّة مثل اليمن. وتتعلّق أسباب التخلّص من الحياة في الغالب بأسباب متشابهة مع أغلب البلدان العربيّة وإن زاد عليها كثرة إقدام الفتيات على الانتحار بسبب عادات الزواج التي يتم فيها إجبارهنّ على الزّواج من أشخاص غير مرغوب فيهم مثل أبناء عمومتهن أو أبناء عشيرتهن. ولا تملك الفتاة في هذه الحالة سوى الخضوع لرغبة الأسرة أو وضع نهاية مأساويّة للحياة.

ووَفقـاً لإحصائيّة رسميّة صادرة عن وزارة الداخليّة اليمنيّة، فقد أوضحت التقارير الأمنيّة اليوميّة خلال الفترة من الأول من يناير وحتى ٣٠ يونيو ٢٠١٢ عن وقوع ١١٨ حادثة انتحار، منها ٥١ حادثة ارتكبت عن طريق الشنق باستخدام الحبال والأقمشة. وأوضحت الإحصائيّة أنّه بين مرتكبي الانتحار ١٩ طفلاً و٢٤ امرأة، والبقية من الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٤٥ عامـاً.

وأشارت الإحصائيّة إلى ارتكاب ٣٦ حادثة انتحار بواسطة الأسلحة الناريّة المختلفة، في حين استخدمت السموم في ١٧ حادثة، فيما أقدم ٨ أشخاص على الانتحار بإحراق أنفسهم مقابل ٦ حالات ارتكبت عن طريق استخدام السكاكين والآلات الحادة.والقفز من أماكن عالية(٢).

---

(١) حوادث الانتحار في موريتانيا.. تاريخ له جذور، موقع صحيفة «الناس»، ٢٥ إبريل ٢٠١٢.

(٢) عبدالعزيز الهياجم، الداخليّة اليمنيّة سجلت ١٢٠ حالة خلال النصف الأول من العام ٢٠١٢، موقع العربيّة نت، ١٨ يوليو ٢٠١٢.

وكانت الداخليّة اليمنيّة كشفت عن أنّ ٢٣٥ شخصـًا وضعوا حدًّا لحياتهم بالانتحار خلال العام ٢٠١١ مقابل ٢٩٢ انتحروا في ٢٠١٠. وحسب تقارير رسميّة يمنيّة، فإنّ عدد حالات الانتحار والشروع فيه بلغ ٨٢٥ حالة بينها ٦٥٥ حالة انتحار وشروع في الانتحار سجلت خلال الفترة من يناير وحتّى نوفمبر من عام ٢٠٠٢ في مختلف المدن اليمنيّة. وفي تقريرها السنويّ لعام ٢٠٠٧ قالت الداخليّة اليمنيّة إنّ ذلك العامّ شهد ٤٦٥ حادثة انتحار و٢٢١ حادثة شروع في الانتحار منها ٦ حالاتِ انتحار للإناث و١٧٠ حالة شروع في الانتحار للإناث، فيما أشارت إحصائيّة رسميّة أخرى الى أنّ عدد حالات الانتحار المسجّلة لدى سلطات الأمن في مختلف محافظات اليمن خلال الأعوام الثلاثة (٢٠٠٤ و٢٠٠٥ و٢٠٠٦) بلغ ١٤٠١ حالة من بينهما ٦٢٤ شخصـًا انتحروا بواسطة أسلحة ناريّة، و١٤١ شخصـًا استخدموا وسائل أخرى كالسموم والشنق وغيرها[1].

وكشف تقرير أمنيّ رسميّ أنّ إجمالي عدد حالات الانتحار والشروع فيه خلال عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٢ قد بلغت ٥١٩ حالة، حيث وصلت عدد تلك الحالات خلال الفترة من بداية يناير وحتّى نهاية نوفمبر ٢٠٠٢ حوالي ٣١٦ حالة، بزيادة قدرُها ١١٣ حالة عن العام ٢٠٠١ أي بنسبة ٥٢٪. العاصمة صنعاء ومحافظة عدن كانتا من أكثر المحافظات التي انتشرت فيها تلك الظاهرة خلال العام ٢٠٠٢، وقد بلغ عدد حالات الانتحار والشروع فيه ١٨ حالة فقط في العاصمة صنعاء خلال العام ٢٠٠١، بينما العام ٢٠٠٢ ارتفع فيه عدد حالات الانتحار إلى ١٢٤ حالة.

ويقول التقرير إنّ الحالات التي تمّ رصدُها منذ عام ١٩٩٥ وحتّى عام ٢٠٠٢ بلغت ١٢١١ حالة انتحار. وإذا مددنا الفترة لتصبح ما بين عامي ١٩٩٥ و٢٠٠٦، فإنّ الرقم يرتفع ليصل إلى ٢٦١٢ حالة انتحار معظمها لشباب وفتيات لم يتجاوزوا العقد الثالث من العمر، ويأتي الفقر الذي تزداد رقعته يومـًا بعد آخر في مُقدّم أسبابها.

ويبرر علماء النفس اليمنيّون هذه الظاهرة بالظروف المعيشيّة الصعبة والاجتماعيّة المعقّدة إضافة إلى الخلافات الأسريّة المتفاقمة.

ومن هذه الخلافات جاءت جانيةً ومجنيًّا عليها!

---

(١) نجلاء حسن، يمنيّات يحاولن الانتحار «لإطلاق صرخة »، جريدة «الحياة»، لندن، ١٩ يونيو ٢٠٠٨.

فقد أقدمت امرأةٌ يمنيّةٌ في العقد الرابع من عمرها على قتل زوجها واثنين من أبنائها قبل أن تنتحر، وذلك عقب شجار عائليّ في إحدى قرى محافظة مأرب القبليّة.

كانت البداية شجارًا عائليـًا نشب بين أفراد أسرة في منطقة حصون الجلال بوادي عبيدة، دفع الزوجة إلى الإمساك ببندقيّة كلاشينكوف وإطلاق الرّصاص على زوجها واثنين من أبنائها ممّا أدّى إلى مقتلهم. وحسب المصادر فإنّ الزوجة وعقب ارتكاب جريمتها وقتل زوجها وأبنائها أقدمت على الانتحار بتوجيه فوهة البندقيّة إلى رأسها وإطلاق عيار ناريّ أرداها قتيلة.

وتُعدّ محافظة مأرب من أكبر المحافظات القبليّة في اليمن، وتتميّز بانتشار ظاهرة السلاح في صفوف أفرادها إضافة إلى ظاهرة الثارات القبليّة المُتعمّقة بين العشائر[١].

واحدة من ضحايا الانتحار في اليمن كانت مغنيّة تشارك في إحياء الأعراس والمناسبات الاجتماعيّة، تُدعى «هناء»، تُوفيت في مستشفى الثورة العام بتَعِز متأثرةً بجروحها في ٢٢ مايو ٢٠٠٩، بعدما أقدمت على الانتحار بإشعال النار في جسدها. وتعود الأسباب إلى علمها بأنّ زوجها، عازف البيانو في فرقتها، قرّر الزواج بإمرأة أخرى.

وحفل شهر مايو من عام ٢٠٠٩ بعدد من حالات الانتحار بشكل مُثير، ففي الأسبوع الأوّل منه رصدت أجهزة الأمن تسع حالات انتحار، نتج عنها وفاة ستّ حالات من بينهم شابة في العشرينيّات من عمرها فيما الأخرى امرأة في عقدها الخامس. وفي فبراير ٢٠١٢ أقدمت امرأة في سنّ الخمسين من محافظة حجة على الانتحار بداية وذلك بتناولها مادة سامّة تستخدم كمُبيد حشريّ، وهو من أقوى المبيدات الحشريّة المستخدمة في زراعة القات. انتحرت زهرة عبده العياني من مديريّة نجرة نتيجة مشكلات كانت تعانيها طوال أربع سنوات وهي تتابع إدراج اسمها في كشوفات الضمان الاجتماعيّ الحكوميّة، غير أنّها فوجئت بعد فترة قصيرة من استخراجها بإيقافها لأسباب غير معروفة، ممّا أدّى إلى اقدامها على الانتحار في نهاية المطاف[٢].

---

(١) عبدالعزيز الهياجم، يمنيّة تقتل زوجها واثنين من أبنائها قبل أن تنتحر، موقع العربيّة نت، ٨ أغسطس ٢٠١٢.

(٢) الانتحار في اليمن: مآسٍ على أرواح أزهقها الفقر والفساد، مجلة العلوم الاجتماعية، الرياض، ٢٢ يوليو ٢٠٠٩.

وفي شهر أغسطس من العام ٢٠٠٣ ألقى أحد اليمنيين في مديرية باجل بمحافظة الحديدة قنبلة يدويّة على نفسه وزوجته، ممّا أدّى إلى تناثر أشلائهما، وكان الزوج مهدي مساوى (٣٥ عامـًا)، قد تحدّث مسبقـًا مع زوجته بالانتحار سويـًّا. في سبتمبر ٢٠٠٣ أقدم يَمنيٌّ من الحديدة الساحليّة على قتل ثلاثة من أبنائه الذكور وسط صراخ والدتهم التي حاول قتلها أيضـًا. وعزيت الأسباب التي دفعت الجاني إلى ارتكاب جريمته إلى أنّه كان يعاني حالة نفسيّة ومعيشيّة صعبة. وفي الشهر نفسه قام شخص يُدعى عبدالوهاب ٤٠ عامـًا من أبناء عزلة شلف بمديرية العدين ألقى بنفسه من شاهق ممّا أدّى إلى وفاته على الفور، وكان يعول أسرة كبيرة مُكوّنة من ١٥ فردًا وتعاني ظروفـًا معيشيّة صعبة. وأقدم مواطنٌ يمنيٌّ يبلغ من العمر ٤٠ عامـًا بمديرية أرحب محافظة صنعاء، على قتل نفسه بالرصاص من خلال وضع سلاح الكلاشنكوف في فوهة فمه وإطلاق الرصاص على نفسه بعد أن عانى طوال ستّ سنوات حالة نفسيّة جرّاء تعرضه لسرقة بالعاصمة صنعاء فقد فيها سيارتَه ومبالغ ماليّة كان قد ادّخرها خلال سنوات اغترابه في السعوديّة[١].

وأقدمت فتاة في العشرين من عمرها في مديريّة الجراحي بمحافظة الحديدة بإلقاء نفسها في بئر القرية بعد أن أُرغمت على الزواج من شخص لا ترغب فيه. وفي مديريّة بيت الفقيه في المحافظة نفسها هزّت حادثة مشاعر المواطنين في عام ٢٠٠٨، وذلك بعد إقدام شخص على ذبح شقيقته بعد زواجها بثلاثة أشهر وإلقاء جثتها في بئر القرية، بعد أن رفضت الفتاة الزواج من شخص لا ترغب فيه وتزوّجت بآخر[٢].

وفي الأردن سُجّلت (٥٦) حالة انتحار بين العامين ٢٠٠٩-٢٠١٠، و(٣١٤) محاولة انتحاريّة فاشلة. ويرى علماء الاجتماع هناك أنّ ضغوط الحياة والتغيُّرات الاجتماعيّة تدفع إلى ارتفاع عدد محاولات الانتحار، برغم أنّها لا تزال خطوة منبوذة استنادًا للعقيدة الإسلاميّة وللعادات والموروثات الاجتماعيّة التي تعتبر قتل النفس بالانتحار من الكبائر ويقود إلى النار. وقد سجلت ٥٩ حالة انتحار خلال شهر واحد من عام ٢٠٠٢ بين الشباب قضى خلالها ٢٦ شابـًّا وفتاة، في حين أمكن إنقاذ باقي

---

(١) الانتحار في اليمن: مآسٍ على أرواح أزهقها الفقر والفساد، مجلة العلوم الاجتماعية، الرياض، ٨ يوليو ٢٠٠٩.

(٢) المصدر نفسه.

المنتحرين الذين كتبوا على أنفسهم حياة مأساويّة في ظل تشوهات جسديّة خطيرة. وتشير نتائج إحدى الدراسات، التي شملت أكثر من ١٢٠٠ حالة انتحار، إلى أنّ ٨١٪ من الشباب المنتحرين و٤٢٪ من الفتيات الشابّات المنتحرات كانوا يعانون خلال حياتهم اليوميّة أمراضـًا نفسيّة يتصدّرها الاكتئاب.

وفي الضفة الغربيّة وقطاع غزّة، تقع محاولات انتحار يصعب رصدها بالأرقام الدقيقة في ظل غياب السجلات والإحصاءات الرسميّة.

وفي دراسة نشرت في بريطانيا عام ٢٠٠٥، تُقدِّم الباحثة نادية تيسير الدباغ دراسة أكاديمية تُعدّ الأولى التي تختصّ بالحديث عن ظاهرة الانتحار الفلسطينيّة. أجريت الدراسة ميدانيـًّا في عام ١٩٩٧ في الضفة الغربيّة وقطاع غزّة، حيث اتخذت الباحثة من مركز صحّة المجتمع في جامعة بيرزيت، مركزًا لهذا البحث الذي يقدّم دراسة وتحليلاً لـ٣١ حالة مسجّلة في المستشفيات ودوائر الشرطة الفلسطينيّة.

تتحدّث الباحثة عن الآثار المتعدّدة للحرب على قصص الشبان والفتيات المنتحرين. وأشارت الدراسة بشكل بارز إلى الضغوط الاجتماعيّة على المرأة الفلسطينيّة من جهة وهي تعيش في مجتمع يطلب منها الالتزام بقانون العفّة والحفاظ على طهارتها، وعلى الرجل من جهة أخرى المطالب دائمـًا بإثبات رجولته، وتوفير الأمان الاقتصادي لعائلته.

وتؤكّد الصّباغ أنّ «الحياة بلا عمل تترك أثرًا مدمّرًا في الرجال»، وبعض القصص التي تقدمها الدراسة تظهر صورة عن الواقع الذي يشير إلى زيادة معدلات البطالة. لكن ما يطبع قصص الشبان والشابات الذين حاولوا الانتحار، هو أثر الاحتلال والحرب والعنف السياسيّ عليهم[1].

وتشير الدراسة، بناءً على المعطيات الإحصائيّة والوثائق، إلى زيادة محاولات قتل النفس في المجتمع الفلسطينيّ، خاصّة في الفترة التي تبعت نهاية الانتفاضة الأولى ١٩٨٧ ـ ١٩٩٣.

(١) Nadia Taysir Dabbagh, Suicide in Palestine.. Narratives of Despair, Hurst& Company, London, 2005.

حالات الانتحار الفلسطينيّة، إذن، لم تنل حظها من الدراسة الموثقة، لكنّها تبقى موجودة.

ومن تلك الحالات ما جرى للمؤلّف والمخرج فرانسوا أبو سالم (١٩٥١-٢٠١١) الذي عثرت الشرطة الفلسطينيّة على جثّته في منطقة الطيرة القريبة من رام الله في أكتوبر ٢٠١١.

كان أبو سالم يعيش حالة من الاكتئاب، وكان يكثر التنقل بين باريس ورام الله. وقبل يومين من الواقعة، عاد من فرنسا بالحال نفسها التي عبّر عنها لبعض المحيطين به. حالة الإحباط التي عاشها في باريس قبل عشر سنوات قادت الستيني إلى دراسة تقسيم الدماغ، وعلاقة كل منطقة بنوعيّة السلوك البشري. رأى أبو سالم أنّ ما يكشفه جهاز الرنين المغناطيسيّ من تغيّرات في الدماغ لحظة اتخاذ القرارات، يغري بعمل مسرحيّ. هكذا، بدأ البحث عن حكاية تحوّل هذا العلم إلى مسرحيّة، فكانت مسرحيّته الأخيرة «في ظلّ الشهيد».

في ليلته الأخيرة، كان أبو سالم يتحدّث مع صديقته المؤلّفة باولا فونفيك عبر خدمة «سكايب»، وأخبرها فجأة أنّه سيلقي نفسه من أعلى العمارة ويقتل نفسه، ثم ترك الحاسوب مفتوحًا وذهب. بعد ساعتين، اكتشف أحد عمال البناء الجثّة وأبلغ الشرطة التي باشرت التحقيق في الحادث. ترك أبو سالم رسالة وداع باللّغة الفرنسيّة على جهاز حاسوبه كتب فيها عن مراسم الدفن التي يريدها له[(١)].

وفي السودان، كشفت إحصاءات الإدارة العامّة للمباحث والتحقيقات الجنائيّة عن تسجيل ما لا يقلّ عن ١٩٠٥ حالة انتحار خلال عامي ٢٠٠٨ و٢٠٠٩، كما أوضحت المسوحات والدراسات أنّ ٩٠٪ من حالات الانتحار ناجمة عن التّسمّم بصبغة الشعر، وأنّ هناك ٥٣٩ حالة في العام ٢٠٠٩.

أوضحت الدراسة والمسح الذي قام به عدد من الأطباء الصيادلة بكليّة الصيدلة جامعة الخرطوم أنّ معظم الحالات من النساء. وعزا البعض اللجوء للصبغة لسهولة الحصول عليها في الأسواق. وأوضحت الدراسة أنّ كثرة استعمالها في الحناء أدّت

---

(١) عباد يحيى، «في ظلّ الشهيد» آخر أعماله، جريدة «الأخبار»، بيروت، ٣ أكتوبر ٢٠١١.

لكثير من حالات التّسمّم، وذكرت أنّ معظم الذين حاولوا الانتحار بواسطة الصبغة تتراوح أعمارهم ما بين ١٥ - ٢٤ سنة[١].

وبلغت أعداد المنتحرين في عام واحد (٢٠٠٣) ٥٩٢ حالة، حسب الإحصاءات الرسميّة المسجّلة. وحملت بقيّة الإحصاءات أنّ النّساء لهنّ نصيب الأسد في عدد حالات الانتحار بـ ٤٧٨ حالة مقابل ١١٤ حالة للذكور، وسجلت ولاية الخرطوم أعلى نسبة لحالات الانتحار بـ٢٨٣ حالة، ولاية الجزيرة، ثم البحر الأحمر وشمال كردفان على التوالي[٢].

الأعداد المتزايدة للمنتحرين بدأت تؤشّر إلى تحوّل الانتحار إلى ظاهرة إشكاليّة في المجتمع السوريّ.

في مشفى دمشق «المجتهد» وحده، تشير الأرقام إلى أنّ عدد المقدمين على الانتحار لعام ٢٠٠٥ بلغ ٥٥٥ شخصًا منهم ٢٢١ من الذكور و٣٦٤ من الإناث، في حين تتراوح فئاتهم العمريّة بين ١٥و٣٠ عامًا. وفي عام ٢٠٠٦ ارتفع عدد المُقدمين على الانتحار ليصل إلى ٦٣١ شخصًا بينهم ٢١٠ من الذكور و٤٢١ من الإناث، أكثرهم عددًا من الفئة العمريّة من ١٠-٢٠ حيث بلغ عددهم ٣١١ شخصًا. أمّا في عام ٢٠٠٧ فقد كان إجمالي عدد حالات الانتحار ٥٠٩ معظمهم من الإناث، حيث بلغ عدد المُقدمات على الانتحار ٣٤٦ حالة وعدد المُقدمين على الانتحار من الذكور ١٦٣ حالة[٣].

ويبدو أنّ صعوبة دراسة هذه الظاهرة في المجتمع السوريّ ـ ومجتمعاتنا العربية بشكل عامّ ـ ترجع إلى الموقف السلبيّ للمجتمع من هذا السلوك. ويعود ذلك في معظمه إلى النظرة الدينيّة للانتحار، ومن ثم محاولة البعض إخفاء الاعتراف بالانتحار والتستّر عليه بكل الوسائل الممكنة؛ لأن المنتحر في العرف العام هو إنسانٌ مخالف للإرادة الإلهيّة.

---

(١) ظاهرة جديرة بالاهتمام: «١٩٠٥» حالة انتحار خلال العامين الماضيين.. و«٥٣٩» حالة تسمّم بالصبغة العام السابق، مصدر سابق.

(٢) ٥٩٢ حالة انتحار في السودان في السنة الماضية، موقع سودانيز أونلاين، ٢٣ مايو ٢٠٠٤.

(٣) رشا فائق، محاولات الانتحار في سورية خارج التغطية والأرقام محجوبة بناء على طلب الفاعل، موقع سيريا باث، إبريل ٢٠٠٨.

تشير عينة بحثٍ أجري في سوريا عام ٢٠٠٩ إلى أن ٢, ٣٢٪ من المنتحرين ينتمون إلى الفئة العمريّة من (١٠ـ ٢٠) عامـًا وهم يشكلّون النسبة الأكبر بين المنتحرين وتنحصر أعمارهم بين (١٥ ـ ٢٠) عامـًا. تليهم الفئة العمريّة من (٣١ ـ ٤٠) حيث يشكّلون ٥, ٢٢ ٪ من حالات الانتحار، أمّا الفئة العمريّة من (٢١ ـ ٣٠) فتشكّل ٤, ١٩ ٪ من المنتحرين. والفئة العمريّة من (٤١ ـ ٥٠) تشكّل ٩, ١٢ ٪ من حالات الانتحار، بينما تتساوى الفئتان العمريتان من (٥١ ـ ٦٠) و٦١ وما فوق، فتشكّل كل منهما ٥, ٦ ٪ من حالات الانتحار.

تركّزت أكبر نسبة حالات انتحار في مدينة حلب بنسبة ٨, ٥٤ ٪ ثمّ في حمص بنسبة ٧, ٢٢ ٪ ودمشق بنسبة ٥, ٦٪، وما تبقّى من محافظات بنسبة ١٦٪، ولوحظ تركّز أعلى نسبة انتحار في المدن السورية، حيث بلغت النسبة ٥, ٩١٪ بينما بلغت ٥, ٩٪ في الأرياف. وكانت نسبة المنتحرات من الإناث أقل من المنتحرين الذكور الذين بلغت نسبتهم ٧١٪ من حالات الانتحار[١].

تبيّن النسب في العيّنة المدروسة أنّ العامل النفسيّ هو العامل الأبرز من مسبّبات الانتحار في سوريا، حيث بلغت نسبة المنتحرين لأسباب نفسيّة ٤, ٣٥٪ من بين الحالات ، وعزّز هذا العامل استطلاع للرأي، أشار إلى أنّ معظم الذين شملهم الاستطلاع أعادوا محاولة الانتحار لأسباب نفسيّة، بينما شكّل السبب الاقتصاديّ نسبة ٨, ٢٥٪، والسبب العاطفيّ ٤, ١٩٪ ومثلها للاجتماعيّة[٢].

وفي لبنان، ارتفعت نسبة الانتحار في شكل ملحوظ مع مطلع تسعينيّات القرن الماضي، وبلغت ذروتها عام ١٩٩٩، إذ بلغ عدد المنتحرين أكثر من ١٠٠ مواطن[٣].

وحسب إحصاءات قوى الأمن الداخليّ، فإنّ العام ٢٠٠٩ سجّل ١١٢ حادثة انتحار أي بمعدل ٩ حالات شهريـًا. وفي العام ٢٠١٠ بلغ عدد حوادث الانتحار

(١) ظاهرة الانتحار في سورية.. إحصائيات وأرقام، موقع «الشريعة»، ١٧ مايو ٢٠٠٩.

(٢) جريدة «بلدنا»، دمشق، ١٩ إبريل ٢٠٠٩.

(٣) جورج موسى، الانتحار في لبنان: أزمات شخصيّة أم ظاهرة اجتماعيّة؟، مجلة العلوم الاجتماعيّة، الرياض، ١٤ يوليو ٢٠٠٩.

١٠٧ بمعدل ٩ حالات شهريًّا. في العام ٢٠١١ وصل العدد إلى ١٠٢ أي بمعدل ٨ حالات شهريـاً، أمّا في الشهرين الأوّلين من العام ٢٠١٢ فقد سجّلت ١٣ حادثة انتحار.

وتوزّعت حالات الانتحار هذه على مختلف المناطق اللبنانيّة. وسُجلت بين مطلع يناير ٢٠١١ وحتّى ٨ مارس ٢٠١٢، ١٩ حالة انتحار في قضاء المتن و١٥ في بعبدا و١٤ في كل من بيروت وكسروان و٨ في عالية و٧ في كل من النبطيّة وحلبا.[١]

الانتحار هو الوجه الآخر من عملة اليأس.

والدليل على ذلك هو محمود إسكندر.

ظلّ محمود لمدّة ١٥ عامـاً، يملك بسطة خضار في حارة حريك، وشاحنة صغيرة. لكن بعد مرور نحو سبع سنوات من عمل دؤوب، لا يقلّ عن ١٧ ساعة عمل يوميـاً، صادرت البلديّة المعنيّة بسطة الخضار.

أذعن لسوء طالعه، فانتقل إلى العمل على الشاحنة، متنقلاً من منطقة إلى منطقة، بغية بيع ما تيسّر من الخضار. وفي تلك الأثناء، استطاع تثبيت بسطة خضار في منطقة الجاموس في الضاحية، بالقرب من منزله الواقع في مبنى قديم، وسط مجمع سكنيّ شبه عشوائيّ.

ثماني سنوات والعمّ يعتاش وعائلته من البسطة. كان مرتاحـاً إلى حدٍّ ما، خصوصـاً أنّ شقيقه علي سبق وأهداه لوحة عموميّة، كي ينضوي هو وعائلته في صندوق الضمان الاجتماعيّ.

مرّت الأيام والشهور والأعوام، والعمّ محمود منغمس في روتين عمل يومي لا يتذمّر منه، بالرغم من المتاعب. لكن قبل عام ونصف العام، وفيما كانت ابنته بتول، وهي فتاة عشرينيّة ودودةٌ، تعيش حياتها الصحيّة بلا أي عِلل، حدثت الصدمة الأولى.

أصيبت الفتاة بعارض صحيّ، بدا مجهولاً في أول الأمر، ثم تبيّن، تباعـاً، أنّ إحدى

---

(١) حالات الانتحار بلبنان تتجاوز المئة حالة سنويـًا.. والأسباب بغالبيتها معيشيّة وماليّة، موقع LBC، ١٢ مارس ٢٠١٢.

كليتيها قد شاخت قبل أوانها. ذبلت الفتاة أمام أبيها، وذاب هو في عواطفه الأبويّة. بعد مرور نحو عام من مرض الابنة، وتحديدًا قبل سبعة أشهر من يومنا هذا، تسلّلت إلى أبي محمد الصدمة الثانية: صادرت البلديّة المعنيّة بسطة الخضار في الجاموس، والتي كانت مصدر رزق العائلة الأساسي.

هكذا قرّر محمود الانتحار. قتل نفسه «بملك إرادته»، وفق ما كتب في الرسالة التي عُثر عليها إلى جانب جثّته، مكتوبةً على ورقة إفادة الضمان الاجتماعيّ.

كتب في الرسالة: «أطلب من زوجتي المظلومة، وابنتي بتول، وعائلتي وآل اسكندر، أن يسامحوني. إنّ سبب موتي هو قصة اللوحة العموميّة المشؤومة»[1].

حالة أخرى: ملحم التيماني، الذي انتحر وهو في سن الثامنة والثمانين.

ففي إحدى ليالي يناير ٢٠١٢ الباردة، قرّر ملحم إنهاء حياته برصاصة مقصودة في رأسه. يومها، لم يتفهّم أحد وحدة ملحم القاتلة التي خلّفها فراغ اشتياقه لزوجته التي كانت قد رحلت قبل بضعة أشهر. أدانه حتّى أقرب الأصدقاء؛ لأنّه لم يكن «ثمة شيء يبرّر له قتل نفسه، فهو مغمور بعاطفة أولاده وأحفاده ومرتاح من الناحية الماديّة وصاحب اسم في بلدته»، كما يقول ابن بلدته عبية، وجاره في البطركية وصديق عمره أيضًا[2].

قد تكون هذه حال حافظ زيادة، الذي أنهى حياته في الثالثة والستين. هذا الرجل، الذي قضى سنواته عازبًا كادحًا في عمله، وصل إلى المكان الذي لا رجوع عنه. شعر بأنّه بات «عبئًا»، يقول ابن شقيقه ريمون زيادة. كان يقول دائمًا: «ما بدي كون هم على غيري، يا ليتني تزوّجت بنت عن الطريق ولم أعش وحيدًا». كان يشعر بثقل عمره على المحيطين به، لهذا هيّأ لموته. ففي إحدى الليالي، لبس ثياب النوم، ركن إلى زاويته وأفرغ الرصاصة في رأسه ونام نومته الأبديّة. لم يأبه لما سيقوله الناس عن فعله «المخزي»، المهم أنّه لم يعد ثقيلًا على أحد[3].

---

(١) جعفر العطار، الفقر يقتل رجلاً، جريدة «السفير»، بيروت، ٢١ يونيو ٢٠١٢.
(٢) راجانا حمية، انتحار المسنّين: «بعد بتحرز؟»، جريدة «الأخبار»، بيروت، ٨ أغسطس ٢٠١٢.
(٣) المصدر نفسه.

في الأشهر الأربعة الأولى من العام ٢٠١٢، انتحر تسعة مسنين من أصل ٢٩ منتحرًا في لبنان.

الوضع لا يختلف كثيرًا على الضفة الأخرى: صغار السن.

وربّما يتعيّن التوقّف عند دراسة عنوانها «المسح الصحيّ الشامل لتلامذة المدارس» قامت به وزارتا الصحّة والتربية والتعليم العالي في لبنان ومنظّمة الصحة العالميّة، في المدارس اللبنانيّة، بين شهري إبريل ومايو من العام ٢٠١١، بالتعاون مع مركز مكافحة الأمراض والوقاية منها في الولايات المتّحدة.

أظهرت النتائج وضعـًا مقلقـًا، بشأن «ممارسة العنف في المدارس اللبنانيّة الخاصّة والرسميّة»، وَفق المنسّقة العامة لبرنامج الصّحة المدرسيّة في وزارة التربية والتعليم العالي نينا اللّحام سلامة. في الوضع النفسيّ، تبيّن بموجب الأرقام أنّ تلميذًا واحدًا من كل عشرة تلامذة فقط، يعاني شعورًا بِالوحدة، يمنعه من النوم، بينما وُجد أربعة من عشرة تلاميذ صعوبة في القيام بالمهمات اليوميّة، بسبب عدم الراحة النفسيّة والقلق، وفكر ٦٠٪ من التلاميذ بين العامين ٢٠١٠ و٢٠١١ في الانتحار، وحاول ١٣٪ الانتحار[١].

الانتحار في لبنان قد يحدث في مواقف وأماكن مختلفة.

ومن ذلك ما جرى حين أنهى المتّهم محمد الملاح جلسة استجوابه بنفسه، إذ قفز من غرفة المحقّق في الطبقة الرابعة من قصر العدل في بيروت، فتوفّي على الفور. ويطرح ذلك تساؤلات عن مسؤوليّة القضاء في الحفاظ على سلامة الموقوفين لديه وحيواتهم.

الملّاح (سوريّ الجنسيّة من مواليد عام ١٩٦٩) كان مطلوبـًا من الشرطة الدوليّة (الإنتربول) بطلب من السلطات القضائيّة الكويتيّة في قضيّة إصدار شيك بلا رصيد. وكان قد أوقف للاشتباه فيه بجرم النصب والاحتيال لدى وصوله إلى مطار رفيق الحريريّ الدوليّ في بيروت. وأُبلغت السلطات الكويتيّة أمر توقيفه لإعداد ملف

(١) ملاك مكي، ١٣ في المئة من تلامذة لبنان يحاولون الانتحار، جريدة «السفير»، بيروت، ٢١ إبريل ٢٠١٢.

استرداده وَفقـًا للأصول القانونيّة، واستنادًا إلى الاتفاق القضائيّ المعقود بين البلدين.

أُوقف المتهم في نظارة قصر العدل. وعندما استدعي في ٧ يوليو ٢٠٠٩ للاستماع إليه، «أيقن أنّه سيُسلم إلى الكويت» وَفقـًا لما ورد في خبر نشرته الوكالة الوطنيّة للإعلام في لبنان. اقتِيد الملّاح إلى غرفة المحامي العام التمييزيّ القاضي ميسر شكر، يرافقه رجُلا أمنٍ. برغم أنّ يدي المتهم كانتا مكبّلتينِ بالأصفاد، فإنّه تمكّن من الإفلات من رجل الأمن قبل بدء جلسة الاستجواب، وذلك «نظرًا إلى ضخامة جسمه وثقل وزنه»[١].

وعلى مستوى دول مجلس التعاون الخليجيّ، شهدت دولة الكويت في أربعة أعوام (٢٠٠٨- ٢٠١٢) رقمـًا مرتفعًا بلغ (٦١٤) حادثة انتحار، بينما شهدت دولة الإمارات (٢٤) حالة، وسلطنة عُمان (٢٣) حالة، والبحرين (٤٥) حالة، وقطر (٨) حالاتٍ[٢].

وأشارت إحصائيّة صادرة عن وزارة الداخليّة الكويتيّة، إلى أنّ معدل الانتحار في الكويت ارتفع منذ غزو الكويت عام ١٩٩٠. وأظهرت الإحصائيّة ارتفاع عدد حالات الانتحار من ٢٧ حالة عام ١٩٩١ إلى ٤٣ حالة عام ١٩٩٢ و٥٦ في العام التالي. ووصل العدد في عام ١٩٩٧ إلى ٥١ حالة انتحار، أمّا عام ٢٠٠٢ فقد شهد أعلى المعدلات حيث قُدّرت حالات الانتحار بالمئات، وهو ما يدفع إلى التشكيك في اعتبار الغزو العراقيّ مسؤولًا عن ارتفاع معدلات الانتحار، والدليل على ذلك أنّه برغم مرور سنوات على وقوعه فإنّ المعدلات ما زالت في ارتفاع مستمر[٣].

وحتّى ندرك معدّلات الانتحار المتزايدة، علينا أن نشير إلى أنّه خلال الفترة ما بين عامي ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ سجّلت هناك عشر حالاتٍ انتحار في مناطق مختلفة من البحرين لأفراد بحرينيين أقدموا على الانتحار إمّا بشنق أنفسهم أو باستخدام السلاح[٤]. غير أنّ هذا الرقم ارتفع إلى ٤٥ حالة خلال الفترة بين ٢٠٠٨ و٢٠١٢.

---

(١) انتحار موقوف في... قصر العدل، جريدة «الأخبار»، بيروت، ٨ يوليو ٢٠٠٩.

(٢) آندي حجازي، مصدر سابق.

(٣) مصطلحات اجتماعيّة: الانتحار، شبكة النبأ المعلوماتيّة، مصدر سابق.

(٤) تمّام أبو صافي، «الانتحار» في البحرين.. معدّلاته، أسبابه، أنواعه، أبرز ضحاياه، جريدة «الوسط»، المنامة، ١٠ أكتوبر ٢٠٠٥.

أمّا في السعوديّة فقد قالت هيئة التحقيق والادعاء السعوديّة في تقرير لها عن حوادث عام ٢٠١١، إنّ قضايا الانتحار بلغت ٦٤٣ حالة منها ٤٤٧ حالة لم تكمل الانتحار، وإنّ ١٩٦ حالة أتمّت عملية الانتحار، ولكنّ التقرير لم يبيّن جنسيّة المنتحرين والدوافع والأسباب في الإقدام على الانتحار[1].

في ٢٠١٠، أفادت إحصائيّة رسميّة صادرة عن وزارة الداخليّة بأنّ عام ٢٠٠٩ شهد ٧٨٧ حالة انتحار في السعوديّة، بمعدل حالتين يوميـًا، وأنّ عدد الحالات زاد عن عام ٢٠٠٨ بتسع وثلاثين حالة. كما أنّ المقارنة بالسنوات العشر الماضية تؤكّد زيادة عدد الحالات بالأضعاف. وبين ١٩٩٤ و٢٠٠٦ زادت الحالات بنسبة ١٨٥ بالمئة.

وأوضحت دراسة لثلاثة أكاديميّين سعوديّين أنّ ٨٤٪ من محاولي الانتحار هم شباب لم يتجاوزوا سنّ الخامسة والثلاثين، وأنّ ٥٨٪ من المنتحرين هم من الذكور، مقابل ٤٢٪ من الإناث[2].

وفي دراسة تحمل عنوان «بعض العوامل الدّافعة لانتحار الإناث في مدينة الرياض»، قالت الباحثة السعوديّة فوزة ياسين قعيد عواد خضر إنّ معظم الوسائل المستخدمة في محاولة الانتحار لدى الإناث بين عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٦ كانت بالأدوية، ثم السموم، وذلك بنسبة ٣٣,٣٪ و٢٦,٧٪ على التوالي. ويرجع السبب في ذلك إلى توفر الأدوية والسموم في أغلب البيوت ولأنّ تناول جرعة زائدة منها تؤدّي إلى موت هادئ فلا يكون معه معاناة كبيرة ودون خروج دم كما في الأسلحة النارية وأيضـًا عدم توفّر سلاح ناري في الفتاة حتّى تستخدمه بسبب صعوبة حصولها عليه. ثم يأتي بعد ذلك كأداة في الانتحار القفز من مكان عالٍ أو استخدام السكين بنسبة ١٣,٣٪ لكل منهما، ثم الشنق أو استخدام سلاح ناريّ بنسبة٦,٧٪ لكلّ منهما.

وأوضحت الدراسة أنّ المشكلات العائلية كانت العامل الأول وراء الانتحار،

(١) فارس القحطانيّ، «الشورى»: ١١٣٩٨٢ متّهمـًا بالاعتداء على المال العام، جريدة «عكاظ»، الرياض، ٣١ يناير ٢٠١٢.

(٢) بدر الإبراهيم، لماذا ينتحر السعوديون؟، جريدة «الأخبار»، بيروت، ٢٠١٢.

وذلك بنسبة ٣٥,٥٪، ثم المشكلات الزوجيّة بنسبة ٢٥,٨٪، ثم الصراع مع الآخرين بنسبة ١٨,١٪، ثم اتهام في جريمة بنسبة ١١,٨٪، ثم ضعف الوازع الدينيّ بنسبة ١٠,١٪، ثم الفشل في العمل بنسبة ٤,٥٪، ثم الفشل الدراسي والاعتداء الجنسيّ بنسبة ٣,٨٪ لكل منهما، ثم إدمان المخدرات والمسكرات، والخوف من العقوبة بنسبة ٢,٤٪ لكل منهما، فالعنوسة بنسبة ٢,١٪، ثم الشعور بالنبذ وعدم حب الآخرين بنسبة ١,٧٪، وقد جاء في المرتبة الأخيرة عاملًا الفشل الدراسيّ ووجود ديون بنسبة ١,٤٪[1].

وبيّنت الدراسة المذكورة أنّ أغلب من حاولن الانتحار خلال فترة الدراسة، كن سعوديّات. من ناحية المستوى التعليميّ، فإنّ غالبية المبحوثات كن حاصلات على مؤهّل ابتدائيّ بنسبة ٢٦,٧٪، ثم مؤهّل ثانويّ ومتوسط بنسبة ٢٠٪ لكل منهما، و١٣,٣٪ لكل من الأميّات واللاتي يقرأن ويكتبن، و٦,٧٪ حاصلات على مؤهّل جامعيّ، أي أنّ غالبية المبحوثات كان مستواهنّ التعليميّ متدنيًّا لا يتعدّى التعليم المتوسط.

من ناحية المهنة، اتّضح أنّ ٣٣,٣٪ منهن عاطلات عن العمل، و٢٦,٧٪ ربّات منازل، و٢٠٪ خادمات، و١٣,٣٪ طالبة، و٦,٧٪ موظّفة في القطاع الحكوميّ[2].

يُضاف إلى تلك الأرقام المُتعلّقة بالسعوديّة، حقيقةٌ مفادها أنّ محاولات الانتحار الفاشلة يصعب رصدها بدقّة، كما أنّ حالات الانتحار المسجّلة أقل من تلك التي تحدث على أرض الواقع. ويعود ذلك إلى حساسيّة اجتماعيّة تجعل الأهل يرفضون إرسال جثة المنتحر إلى الطبّ الشرعيّ، كما أنّ الجهات المَعنيّة تفضل إحالة الوفاة إلى «سبب غير محدد» من دون عرضها على الطبّ الشرعيّ، ممّا يجعل الإحصاءات المذكورة غير دقيقة بما فيه الكفاية.

وحسب إحصائيّة لعام ٢٠٠٦، صدرت من مركز الطبّ الشرعيّ، فقد شهدت السعوديّة ٢٦٦ حالة ناجمة عن الانتحار أو يشتبه بكونها ناجمة عنه، حيث بلغ عدد

---

(١) دراسة علميّة حديثة تكشف عن الأسباب والسمات الشخصيّة لـ«انتحار الفتيات»، مجلة العلوم الاجتماعيّة، الرياض، ١٣ يوليو ٢٠٠٩.
(٢) المصدر نفسه.

المنتحرين من الذكور ٢١٢ ذكرًا، أي بنسبة ٧٩,٧ في المائة وتشكل الإناث ما نسبته ٢٠,٣ في المائة.

وتأتي الإحصائيّة بشيء من التفصيل لتضيف «بأنّه بلغ عدد حالات الوَفَيات الناجمة عن الانتحار بين السعوديّين ١٠٠ حالة، بما يعادل ٣٧,٦ في المائة، كان منها ٨٢ ذكرًا و١٨ أنثى، بينما بلغ عدد حالات الوفَيات الناجمة من الانتحار لغير السعوديّين ١٦٠ حالة، وهو ما يعادل ٦٠,٢ في المائة، كان منها ١٢٤ ذكرًا و٣٦ أنثى، في حين بلغ عدد المُنتحرين مجهولي الهُويّة ٦ حالات من الذكور»[1].

وذكرت إحصائيّة لوزارة الداخليّة السعوديّة عام ٢٠٠٢ أنّ حالات الانتحار ومحاولة الانتحار تجاوزت ٧٠٠ حالة قضى خلالها ٤٧٠ حالة منها ٩٦ حالة في الرياض، ٤٤ حالة في المنطقة الشرقيّة، ٢٤ حالة في مكة المكرمة، ٢٠ حالة في نجران، ١٩ في عسير، ١٤ في المدينة المنوّرة، ١١ في حائل، ٨ في جازان، ٧ في الجوف، ٤ في القصيم، ٣ في تبوك والمنطقة الشماليّة.

وسجّلت السعوديّة ٥٩٦ حالة انتحار في عام واحد حسب إحصائيّة لعام ٢٠٠٠، وسجّلت المنطقة الشرقيّة ٢٣٩ حالة من الإجماليّ، وفي منطقة الرياض سُجّلت ١٠٢ حالة، وفي مكّة المكرّمة ٧٧ حالة. كما أكّدت الإحصائيّة أنّ ٨٠٪ من المُقدمين على الانتحار من فئة النساء[2].

ويعزو محمد السعدي، الاختصاصيّ الاجتماعيّ في جِدّة ارتفاع معدلات الانتحار إلى أسباب كثيرة، أولها ضعف في الوازع الدينيّ، تليه ظروف يرى فيها المنتحر نفسه بأنّه مضطهد ممّا يؤدّي به لحالة من الاكتئاب الشديد ليصل بعدها إلى الانتحار أو الإقدام عليه، وقد تكون أسبابًا اجتماعيّة ونفسيّة وظروفًا اقتصاديّة، وعادة ما يكون مصير مدمني المخدرات إلى الانتحار.

ويضيف السعدي «أسباب الانتحار تختلف من النساء عن الرجال كما تختلف عن أسباب انتحار المقيمين في السعوديّة عن السعوديّين، فبعض المنتحرين من المقيمين يكون السبب على سبيل المثال مشكلة بين الحبيبينِ أو العشيقينِ، فيكون

---

(١) ناهد أنديجاني، تقرير إحصائيّ رسميّ يرصد ارتفاع حالات الانتحار في السعوديّة إلى ٢٦٦ حالة، جريدة «الشرق الأوسط»، لندن، ١٤ فبراير ٢٠٠٨.

(٢) ليلى المزعل، الانتحار جريمة يرفضها العقل والدين، جريدة «الرياض»، الرياض، ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٦.

الحلّ الانتحار. أمّا السعوديون فالانتحار بين جميع الطبقات بسيطة وفقيرة وغنيّة وعادة ما تكون الأسباب اجتماعيّة، أمّا النساء فعادة ما يكون السبب اضطهاد الرجل للمرأة، سواء كان زوجها أو والدها أو أخاها»[1].

وتشير التقارير إلى أنّ حالات الانتحار في العراق تزايدت بعد الاحتلال الأمريكيّ عام ٢٠٠٣، بسبب عوامل مختلفة منها تفشّي البطالة في صفوف الشباب، وتعرضهم لمشكلات اجتماعيّة، نتيجة الأوضاع المتردّية وانهيار البنية التحتيّة. غير أنّ الإحصاءاتِ الرسميّةَ والتقديرات لحجم هذه الظاهرة. ولكن يمكن تقدير حجم هذه الظاهرة من خلال متابعة ما تنشره وسائل الإعلام العراقيّة ومنظمات إنسانيّة من تقارير ودراسات سلطت الضوء على حالات الانتحار في العراق.

ووصلت الظاهرة إلى حدّ مطالبة عضو لجنة حقوق الإنسان النيابيّة أشواق الجاف الحكومةِ العراقيّة ومجلس النواب في مايو ٢٠١٢ بعدم السكوت على ظاهرة انتحار النساء، داعية إلى التحرك والإسراع في إقرار قانون العنف الأسريّ[2].

الطبيب لؤي العتبي يشير إلى أنّ الطرق التي يسلكها المنتحرون مختلفة، لكنّ الشائع منها في العراق هو الحرق ـ يشيع ذلك كثيرًا في إقليم كردستان في العراق ـ أو عبر تناول السموم مثل مبيد الحشرات أو مادة الكلور أو تناول الحبوب الدوائيّة بكميات كبيرة مثل الباراسيتيمول.

يقول الخبير التربويّ عصام حسن إنّ محاولات الانتحار بين الطلاب في العراق تصبح أكثر انتشارًا بسبب المرحلة العمريّة الحرجة التي يمرون بها والتي تتميّز بالحساسية وقوة الاندفاع والطموح. كما تلعب العَلاقات العاطفيّة والشكّ في السلوك دورًا كبيرًا في سلوكيّات الشاب أو المراهق.

كما يُصاب الكثير من الطلاب باليأس والإحباط بسبب تعثرهم في الحصول على معدل نجاح يُؤهّلهم للالتحاق بالجامعة. لكنّ انتحار الطالبات ـ حسب عصام حسن ـ هو الأكثر شيوعـًا، وغالبـًا ما ينتج عن إحباط دراسيّ أو عاطفيّ أو عنف أسريّ.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) وسيم باسم، انتحار العراقيّات ظاهرة خطيرة يبحث البرلمان أسبابها وتداعياتها، موقع «إيلاف»، ٨ مايو ٢٠١٢.

الناشطة النسويّة لمياء الجبوري تقول إنّ الأسباب الاقتصاديّة والعنف الأُسريّ هي من دوافع الانتحار بين الأسر الفقيرة، في حين أنّ الأزماتِ النفسيّةَ مثل الكآبة واليأس العاطفيّ والعَلاقات الجنسيّة، من الأسباب المهمّة للانتحار بين أناس ينتمون إلى الطبقات المتوسطة والغنيّة.

وتتابع: «اكتشاف علاقة جنسيّة يعد سبباً رئيسًا في انتحار الفتيات في العراق، تضاف إلى ذلك أيضًا الخلافات العائليّة والزوجيّة وجرائم الشرف»[١].

وبحسب الكاتبة والناشطة النسويّة بيان صالح فإنّ «الانتحار حرقـاً أصبح أحد الخيارات المُرة للمرأة في كردستان العراق في ظلّ سيادة المجتمع الذكوريّ الذي تُمارس فيه جميع أنواع العنف الأسريّ والنفسيّ والجنسيّ وشتّى أنواع الضغوط التي تقيّد حريّة المرأة، وحيث تُهان كرامتُها ويقلّل من قيمتها وإنسانيّتها في كلّ لحظة».

وبينما يصعب الاستناد إلى الإحصاءات بشكل عامّ في العراق، تشير بيانات العام ٢٠٠٩ في إقليم كردستان إلى أنّ هناك ٢٦٥٨ امرأة تعرضن للعنف في سنة ٢٠٠٩، منهن ٤١٤ امرأة انتحرن حرقـاً أو تم حرقهن.

يقول تقرير عام ٢٠١٢ إنّ السنوات العشر الأخيرة شهدت إقدام أكثر من ٤٠٠٠ امرأة في كردستان العراق على إنهاء حياتهنّ ومشكلاتهن بالموت.. حرقـاً[٢]!

ويؤكد مسؤولون أنّ هناك ما يصل إلى ٥٠ حالة انتحار وقعت في النصف الأول من عام ٢٠١٢ في سنجار شمال غربي العراق، التي يبلغ عدد سكانها ٣٥٠ ألف نسمة، وهو رقم لا يقلّ عن ضعف معدل حالات الانتحار في الولايات المتّحدة، مقارنة مع ٨٠ حالة وقعت في العام الماضي في المنطقة المذكورة. أمّا الأساليبُ الأكثرُ شيوعـاً بين النساء فهي التضحية بالنّفس وإطلاق النار.

وأجرت المنظمة الدوليّة للهجرة في العام ٢٠١١ دراسة حول مشكلة الانتحار المتزايدة في سنجار، حيث لا وجود لخدمات الصحة النفسيّة، وتوصّلت إلى نتيجة

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) منتظر الزيدي، لماذا تحرق الفتيات أنفسهن في العراق؟، جريدة «القدس العربي»، لندن، ٢٧ إبريل ٢٠١٢.

مفادها أنّ «تهميش المرأة، والنظرة الدونيّة إليها في محيطها، ساهما في زيادة حالات الانتحار الأخيرة». أمّا الحلّ فأكّد تقرير قام به باحث في أحد المراكز الصحيّة المحليّة أنّه يتحقق «بوضع حدٍّ لحالات الزواج القسري»[1].

ومن تلك الحالات: جنان ميرزا.

تجد جنان، التي يجلس والدها بقربها للاعتناء بها، صعوبة بالغة في شرح السبب الذي جعلها طريحة الفراش بعد إصابتها بطلق ناري.

«لم أكن أعرف أنّ المسدس محشوّ بالرصاص»... تقول ميرزا (١٦ عامـًا) بارتباك، فيما تستريح تحت بطانيّة حمراء في غرفتها المعزولة، لتغرق في البكاء فور خروج والدها إلى الغرفة المجاورة، معترفة بحقيقة ما حدث، وبمحاولة قتل نفسها في البطن بمسدس شقيقها بعدما تعذر عليها استخدام الكلاشنيكوف: «حاولت قتل نفسي. لم أكن أريد الزواج. أجبرت على الارتباط»[2].

وإذا كانت ظاهرة الانتحار مشكلة، فإنّ قضية التحريم أو التجريم تظلّ محلّ جدل كبير.

وقديمـًا، كان الانتحار والشروع فيه جرائم يُعاقب عليها القانون في أغلب التشريعات الجزائيّة في العالم، وكان المنتحر يحاكم بعد وفاته ما قبل الثورة الفرنسيّة بحيث يقضي بمصادرة أمواله، ولا يزال التشريع الجزائيّ في بريطانيا يعاقب على الانتحار والشروع فيه. أمّا أغلب التشريعات الجزائيّة الحديثة فإنّها على العكس لا تعاقب على الانتحار ولا على الشروع فيه، وإنّما تخرج هذه الظاهرة من نطاق القانون لتدخلها في حيّز الدين والأخلاق مثل «فرنسا ومصر» ولا تعتبرانه جريمة وإنّما «حادثة شخصية»[3].

غير أنّ قانون العقوبات القطريّ النافذ يعاقب في المادة ٣٠٤ بالحبس مدة لا تجاوز ستة أشهر وبالغرامة التي لا تزيد على ثلاثة آلاف ريال أو بإحدى هاتينِ

(١) فتيات سنجار.. والانتحار هربـًا مـن الزواج القسريّ، جريدة «السفير»، بيروت، ٨ يونيو ٢٠١٢.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) مكرم سمعان، مرجع سابق، ص ٣٣.

العقوبتينِ كلَّ مَنْ شَرَعَ في الانتحار بأن أتى فعلًا من الأفعال التي تؤدّي إلى الوفاة عادة، وعاقبت المادة ٣٠٥ منه على التحريض والمساعدة على الانتحار بالحبس مدّة لا تجاوز سبع سنوات. أمّا إذا كان المنتحر لم يبلغ السادسة عشرة من عمره أو ناقص الإرادة فيعاقب الجاني بالحبس مدّة لا تجاوز عشر سنوات، أمّا إذا كان المنتحر فاقد الاختيار أو الإدراك عوقب الجاني بعقوبة القتل العمد.

وفي القانون السودانيّ، تعد جريمة الانتحار جريمة كاملة، وقد وضع المشرّع السوداني عقوبة لا تتجاوز السنة أو الغرامة أو الاثنين معـًا المادة ١٣٣ من القانون الجنائي السوداني لسنة ١٩٩١، وكل مَن يشرَع في الانتحار بمحاولة قتل نفسه بأيّ وسيلة. ووَفق القانون السودانيّ فإنّ جريمة الانتحار تعتبر جريمة مستقلّة، فإذا لم تحدث الوفاة تعتبر شروعـًا في الموت يُعاقب بالمادة ١٣٣، ولذلك لا تُضاف المادة ٢٠ من القانون الجنائيّ، والتي تمثّل الشروع في كل الجرائم سواء أكانت سرقة أم قتل وغيرها، يعاقب الجاني إذا لم تكتمل الجريمة بالمادّة المنصوص عليها، بالإضافة للمادة ٢٠. وأوضحت المادة ١٣٣ في القانون السودانيّ أنّ من يحرض على الانتحار صغيرًا غير يافع، أو مجنونـًا أو شخصـًا في حالة سكر أو تحت تأثير اضطراب عقليّ أو نفسيّ، يعاقب بالسجن مدة لا تتجاوز السنة. أمّا في حالة حدوث الانتحار نتيجة التحريض يُعاقب المحرض بالعقوبة المقرّرة لذلك بالسجن مدّة لا تتجاوز السنة، أمّا في حالة حدوث الانتحار نتيجة التحريض، فإنّه يعاقب المحرض بالعقوبة المقرّرة لذلك بالإعدام قصاصـًا، فإذا سقط القصاص يُعاقب بالسجن مدّة لا تتجاوز العشر سنوات دون المساس بالحقّ في الدِّية[1].

أمّا القانون السوريّ ـ وإن لم يُعاقب على الانتحار ولا على الشروع به كما فعلت التشريعات الأوربيّة ـ فإنّه يُعاقب على التحريض عليه ولو بقي في مرحلة الشروع، لما لذلك من خطر على سلامة الأفراد وأمن المجتمع، وإذا جاز لنا أن نعتبر حياة الفرد حقـًا من حقوقه الشخصيّة التي يستطيع إهدارها بنفسه دون عقاب فلا يجوز أن يبقى العبث بحياة الآخرين عن طريق حملِهم على إهدار حياتهم أو مساعدتهم في ذلك بلا عقاب، وهذا ما حدا بالمشرِّع السوريّ إلى تجريم تحريض الآخرين أو

---

(١) ظاهرة جديرة بالاهتمام: «١٩٠٥» حالة انتحار خلال العامين الماضيين.. و«٥٣٩» حالة تسمّم بالصبغة العام السابق، موقع وزارة الدفاع السودانيّة، ١٥ نوفمبر ٢٠١٠.

مساءلتهم على الانتحار في صلب المادة ٥٩٣ ق.ع.ع ، حيث جاء في أحكامها ما يلي: «من حمل إنسانـاً بأيّة وسيلة كانت على الانتحار أو ساعده بطريقة من الطرق المذكورة في المادة ٢١٨ على قتل نفسه عُوقب بالاعتقال عشر سنوات على الأكثر إذا تم الانتحار». ونرى موقف المشرِّع السوريّ بوضوح وجلاء.. فهو لا يعتبر الانتحار جريمة، ولا يُعاقب عليه، ولا على الشروع فيه؛ لأنّ مَن يجنِ على نفسه، فإنّما يهدّد حقّه في الحياة وهو حقّ خاصّ به، ويمسّ سلامته الشخصيّة، وفعله هذا يمجُّه الدين والمجتمع وينفر منه الخلق الكريم، ولكنّه يخرج عن سلطان القانون الجزائيّ، لكن التحريض أو إسداء العون للمنتحر، يجب معاقبة مُقترِفه؛ لأنّ محلّ الاعتداء أو موضوعه لم يعد حياة مقترف الجرم نفسه، إنّما محلّ الجريمة أضحى يمسّ حياة الغير، وفعل التحريض أو المساعدة على الانتحار جعله القانون جريمة قائمة بذاتها[1].

(١) د. أكرم عبدالرزاق المشهداني، القانون القطريّ يُعاقب على الشروع في الانتحار والتحريض عليه لتحقيق الردع ، جريدة «العرب»، الدّوحة، ١٢ ديسمبر ٢٠٠٩.

خيانات ذهبيّة؛

«الموت فنّ،
على غِرار كلّ ماعداه
وإنّي أمارسُه بإتقان..
أمارسُه حتّى يصير جهنم
أمارسُه حتّى يبدو حقيقة
في وسعكم القول إنّه دعوتي»[1].

(١) Sylvia Plath, Ariel, New York, Harper Perennial Modern Classics, 1964.



لنأتِ قليلًا على ذكر الانتحار في عالم المبدعين، فموتُ الكاتبِ قدْ يسكنُ المسافة بين نَصل الدواةِ وبياض الورقة؛ «لأنّه مُعرضٌ دائِمـًا كُلَّ ذاتِ قُنوطٍ ومساءٍ حزينٍ لأعراضِ السأمِ المفاجئ من إيقاعِ رَقّاصِ الحياة وَرتابَةِ التَنفُس المُمِلّة»[1].

تلك الخيانات الذهبيّة، التي كان المبدعون أبطالها وضحاياها، التهمت هواءهم وأرواحهم، بقدر ما صنعت من الألم راياتٍ يحملها أعلام الفنّ والأدب.

يقول التشيكيّ فرانز كافكا (٣ يوليو ١٨٨٣- ٣ يونيو ١٩٢٤) «إنّ المُقدِم على الانتحار هو ذلك السجين الذي يراهم يعدون له منصّة الإعدام في الساحة ويعتقد أنّ هذا قدَرٌ يقرره بنفسه.. يهرب في الليل من زنزانته، ينزل إلى الساحة ويشنق نفسه». أمّا الفرنسيّ ألبير كامي فيرى أنّ «الانتحار يتم في سكون القلب مثل عمل فنيّ عظيم. ويتفق معه مواطنه أونوريه دي بلزاك، إذ يعتبر أنّ «كل انتحار هو نظام راقٍ للحزن»[2].

تلك الجاذبيّة القاتلة للانتحار تركت بصمتها الراسخة على لحظة الختام في حياة كثير من المبدعين، بدءًا من رسّام المنمنمات الهنديّ داسوانت (١٥٦٠- ١٥٨٤)، والمهندس المعماريّ الإيطاليّ فرانشيسكو بوروميني (١٥٩٩- ١٦٦٧)، ومرورًا بالرسّام البريطانيّ روبرت فاغان (١٧٢١ - ١٨١٦)، والرسّامة الفرنسيّة كونستانس مايِيه (١٧٧٥ - ١٨٢١)، وانتهاءً بالرسّام اليابانيّ كازان واتانابي (١٧٩٣- ١٨٤١)، والرسّام الهولندي فنسنت فان غوغ (١٨٥٣- ١٨٩٠).

بعض المنتحرين من المشاهير، من الكاتب الياباني يوكيو ميشيما (١٩٧٠) إلى

---

(١) ليث العبدويس، وقائع انتحار كاتب غاضب، جريدة «القدس العربي»، لندن، ١٨ مايو ٢٠١٢.

(٢) د. محمد المهدي، من تاريخ الانتحـار.. هنري دي مونترلان.. الحياة خارج الزمـن، مجلة «وجهات نظر، القاهرة، يوليو ٢٠٠٩.

المغنية الإيطاليّة داليدا (١٩٨٧)، ومن الروائيّ الأمريكيّ إرنست هيمنغواي (١٩٦١) إلى الشاعرة الأمريكية آن سيكستون (١٩٧٤)، ومن الشاعر الروسيّ فلاديمير ماياكوفسكي (١٩٣٠) إلى المؤلّفة والقاصّة الإنجليزيّة فرجينيا وولف (١٩٤١)، وجدوا أنّها رسالتهم الأخيرة وردهم على حياة لم تعد محتملة.. لكنها الحياة، والبقاء فيها على رغم كلّ شيء، فعل إرادة وليس ترفًا يمكن الاستغناء عنه في لحظة يأس.

ولنأخذ مثلًا على ذلك ملابسات انتحار يوكو ميشيما في قاعدة إيجيغايا العسكريّة في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٠، الذي حصل بالسيف وَفقًا لطريقة السيبوكو أو الهاراكيري، بعد محاولة فاشلة للانقلاب العسكريّ[١]. فقد احتلّ ميشيما وقلّة من رفاقه مقرّ كليّة الأركان العسكريّة في قلب طوكيو واحتجزوا قائدهم ثم صعد ميشيما إلى شرفة الكليّة المطلّة على ساحة التدريب وألقى كلمة عصبية لم تستغرق أكثر من عشر دقائق في الجنود الشباب المندهشين لحديثه دعاهم فيها رفض خضوع اليابان لأمريكا وإلى تغيير دستورها «السلميّ» الذي فُرض عليها بعد الاحتلال الأمريكيّ عام ١٩٤٥، والعودة إلى تقاليد اليابان العسكريّة وقيمها القوميّة التاريخيّة قبل أن ينجرف مجتمعها مع موجة التغريب والتأمرك في العقود الأخيرة، وعلى الرغم من أنّ ردّ فعل الجنود كان أقرب إلى السخرية بل إنّ بعضهم أغرق في الضحك، لعصبيّة ميشيما وغرابة أفكاره ـ بمعيار الجيل الجديد في اليابان ـ ولحركاته الدراميّة المبالغ فيها، على الرغم من ذلك فإنّ ميشيما قرّر المضي في عمليّة الانتحار[٢].

وقبل دخوله القاعدة العسكريّة، نظم يوكيو ميشيما «جيساي نو كو» أو «قصائد الموت» التي تعد تقليدًا متبعًا ضمن طقوس الانتحار في اليابان[٣]. ويرى مترجم أعمال ميشيما وكاتب سيرته الذاتية جون ناثان أنّ محاولة الانقلاب لم تكن سوى ذريعة لتنفيذ طقوس الانتحار التي لطالما حلم بها هذا الأديب اليابانيّ[٤].

---

(١) محمود داود، اليوم الأخير من حياة الروائي اليابانيّ يوكيو ميشيما، جريدة «الثورة»، دمشق، ١٥ نوفمبر ٢٠٠٩.

(٢) د. محمد جابر الأنصاريّ، انتحار المثقّفين العرب وقضايا راهنة في الثقافة العربيّة، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط٢، بيروت، ١٩٩٩.

(٣) Donald Keene, The Pleasures of Japanese Literatures, New York, Columbia University Press, 1988.

(٤) John Nathan, Mishima: A biography, Little Brown and Company: Boston/Toronto, 1974.

ومن الأسماء العالميّة أيضـاً الكاتب والروائيّ اليابانيّ الشهير ياسوناري كاواباتا، الذي نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٨، وبعدها بأربعة أعوام قرّر الانتحار بخنق نفسه بالغاز، في ظلّ أحاديث عن تأثره بصدمة انتحار تلميذه وصديقه يوكو ميشيما، وقصة حبٍّ فاشلة، واكتشاف إصابته بمرض باركنسون[١].

الكاتبة الأرجنتينيّة الشهيرة مارتا لينش انتحرت في منزلها في ٨ أكتوبر ١٩٨٥، بعد أن طالها الإحباط، حين رأت أن الزمن بدأ يتلاعب بملامحها مع تقدّم الزمن، فلم تحتمل ما رأته، وتناولت مسدسها وانتحرت. وقد أفاد زوجها أنّها كانت على صراع مرير مع تقدّم السن قبل انتحارها بعشرين سنة، ويبدو أنّها خرجت في النهاية بلا أمل.

أمرٌ مماثل نراه في حالة انتحار القاصّة الإنجليزية فرجينيا وولف التي ألقت بنفسها في النهر، بعد أن تركت لزوجها رسالة ممّا جاء فيها: «إنّني على يقين من أنّني أرجع لجنوني من جديد. أشعر أنّنا لا يمكن أن نمر في فترة أخرى من هذه الفترات الرهيبة. وأنا لن أشفى هذه المرّة. أبدأ بسماع أصوات، ولا يمكنني التركيز. ولذا سأفعل ما يبدو أنه أفضل شيء يمكن القيام به... لا أستطيع أن أواصل إفساد حياتك أكثر من هذا. لا أعتقد أنّ شخصين من الممكن أن يكونا أكثر سعادة ممّا كنّا نحن. ف.»[٢].

ومن يستقرئ السير الذاتيّة واللحظات الأخيرة لعددٍ من مشاهير المنتحرين في العالم العربي، سيجد أنّ الأسباب تعدّدت، من الاكتئاب إلى المرض، ومن الظروف الاجتماعيّة إلى الصدمات الحياتيّة، مرورًا بالهمّ الوطنيّ العام[٣]. ومن هؤلاء الأدباء والفنانين المُنتحرين نذكر الشاعر اللبنانيّ خليل حاوي (١٩١٩-١٩٨٢) الذي أطلق الرَّصاص على رأسه جهة العين اليسرى من بندقيته، بعد الحصار الإسرائيليّ لبيروت. حاوي الذي بدا رافضـاً ومتمردًا في كثيرٍ من أعماله الأدبيّة التي أعطت إيحاءً عن معاناته، مثل «نهر الرماد»، «الناي والريح»، «بيادر الجوع»، «رسائل الحب والحياة»، عاش ظروفـاً

(١) Donald Keene, Five Modern Japanese Novelists, New York, Columbia University Press, 2005.

(٢) Phyllis Rose, Woman of Letters: A Life of Virginia Woolf, London, Routledge, 1986.

(٣) خليل الشيخ، الانتحار في الأدب العربيّ، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٧.

تواطأت عليه منذ الصغر، وأولها مرض والده حين كان عمره في سنّ الحادية عشرة، وهو ما اضطره إلى العمل في صباه حمّالًا وعاملًا في الطين ورصف الطرق.

كما مرّ بتجربة حبّ فاشلة، إذ ضاع عليه حبُّه الأوّل والأقوى بسبب تقاليد الضيعة. شغف كما يروي أخوه إيليا حاوي بفتاة «كانت وحيدة والديها، جميلة هيفاء، عالية الجبين، ووجنتاها مورّدتان، وعيناها سوداوان، وشعرها منسدل على كتفيها، ونظم فيها شعره الريفيّ، وأحبّها حبه الأوّل الذي ظلّ حيًّا في أعماقه، وكل حبّ آخر كان طيفًا منه انعكاسًا له وقد تواعد وتلك الفتاة على الزواج وقرّرا أن يقترنا.. إلا أنّها خطفت في غيابه لأحد أقاربها وعاد خليل ينظم فيها شعر اللّوعة والحسرات وهو شعر ما زلنا نحتفظ به بخطّ يده بعضُه نُشر، ومعظمُه لم يُنشر»[1].

غلبت على شعر حاوي مسحة من التشاؤم، فكان كثيرًا ما يكتب عن الموت، إذ يقول في قصيدته «في جوف الحوت»:

«ومتى يمهلنا الجلّاد والسوط المدمّى؟

فنموت

بين أيدٍ حانيات

في سكوت، في سكوت»[2].

كما يقول في القصيدة نفسها:

«يتمطّى الموت في أعضائه

عضوًا فعضوا، ويموت

كلّ ما أعرفه أنّي أموت

مضغة تافهة في جوف حوت».

(١) إيليا حاوي، قراءة في شعر خليل حاوي، مجلة الفكر العربيّ المعاصر، عدد يونيو/ يوليو ١٩٨٣، بيروت، ص ٢٨.

(٢) خليل حاوي، الأعمال الكاملة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢.

غير أنّ الاجتياح الإسرائيليّ للعاصمة اللبنانيّة أصاب خليل حاوي في مقتل[1]، وهو الشاعر الذي قصر معظم شعره، إن لم يكن كلّه، على قضايا الانبعاث القوميّ والحضاريّ في مواجهة عُقم الانحطاط وشراسة الأعداء. ومن شرفة غرفته المطلّة على الجامعة الأمريكيّة في بيروت، عبّر حاوي عن رفضه للهزيمة. و«مع رؤيته للدبّابات وهي تجتاح بيروت؛ تناول بندقيّة صيدٍ لديه، وقتل فيها المحتلّ الإسرائيليّ، لكنّه قتله داخله»[2].

واللافت للانتباه أنّ خليل حاوي فكّر في عمليّة انتحار علنيّ على رؤوس الأشهاد يعلن فيها احتجاجه الصارخ على تردّي الأوضاع العربيّة، ثم يلجأ إلى فعل الانتحار باعتباره الفعل الوحيد المتاح أمامه.

«فاتني طبع المجاهد

لم أعُد غيرَ شاهد

فلْأَمُت غير شهيد

مفصحـًا عن غصّة الإفصاح

في قطع الوريد»[3].

وكان يتصوّر نفسه وقد حمل مسدسه وذهب به إلى منطقة الحمراء المكتظّة بالنّاس ليقوم بانتحاره العلنيّ، غير أنّه أدرك أنّه ليس في تقاليد الحياة العربيّة «فعل انتحار».

وبالمثل فعل الأديب الأردنيّ تيسير السبول (٢٣ يناير ١٩٣٩ - ١٥ نوفمبر ١٩٧٣) الذي انتحر بطلق ناريّ أطلقه على نفسه. كان سبول قد عاش سنواتٍ صعبة قبل ذلك، إذ أدّت حرب يونيو ١٩٦٧ إلى زعزعة ما استقام من حياته، وكانت الصّدمة مُؤلمة وشديدة عليه فبكى الهزيمة دونما انتظار للعزاء.

ترك لنا عملينِ أدبيّينِ مهمّينِ هما «أحزان صحراويّة» وهو ديوان شعريّ، ثم روايته

---

(١) د. محمد جابر الأنصاريّ، مرجع سابق.

(٢) طلال الطريفي، انتحار الأدباء ترجمة عشق للخيال.. بلغة الموت، مجلة «المجلة»، لندن، ١٣ سبتمبر ٢٠٠٧.

(٣) خليل حاوي، مرجع سابق.

«أنت منذ اليوم» الحائزة على جائزة جريدة «النهار» البيروتيّة للرواية عام ١٩٦٨. وفي كلا العملين يشير السبول إلى أنّه مقبل على الموت[1]. كان مفرط الحساسيّة، مهموماً بما يحدث على الساحة العربيّة، في حين عزا البعض حالته النفسيّة السّيّئة في أواخر أيّامه إلى مشكلاتٍ عاطفيّة. ويُقال إنّه أُصيب بمرض خبيث في عينيه قبل رحيله.

هكذا عاد تيسير السبول ذات يومٍ من عمله في الإذاعة الأردنيّة ـ كان يشغل وقتها منصب رئيس البرامج الثقافيّة ـ وأطلق الرَّصاص على نفسه وهو مستلقٍ على فراشه، حين كانت زوجته الأديبة والطبيبة المشهورة ميّ يتيم تحضر له فنجان قهوته المعتاد.

أمّا آخر ما كتبه السبول باتفاق النقاد مُعلناً عن انتحاره فهو:

«أنا يا صديقي

أسير مع الوهم أدري

أيمّم نحو تخوم النّهاية

نبيّاً غريب الملامح أمضي

إلى غير غاية

سأسقط لا بدّ، يملأ جوفي الظلام

نبيّاً قتيلًا وما فاه بعد بآية

وأنت صديقي

وأعلم.. لكن قد اختلفت بي طريقي

سأسقط لا بدّ

أسقط يملأ جوفي الظلام

غديرك، بعد

(١) إبراهيم خليل، تيسير سبول من الشعر إلى الرواية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٥.

إذا ما التقينا بذات منام

تفيق الغداة وتنسى..

لكم أنت تنسى

عليك السلام؟؟»[1].

إنّها النهاية التي يعرفها تيسير السبول، إذ يقول في قصيدته «بورتريه»:

«أنا يا صديقي أسير على حافّة الليل

يعرفني العتمُ أكثر ممّا تظنّ مصابيح أمي

ويعرفني الموت أكثرَ ممّا تظنّ الحياة.

أنا يا صديقي

أسير لأسقط في آخر السطر قافلةً من صراخ

وخاطرة خذلت كنهها الكلمات»[2].

وعزا البعض انتحار الشاعر والرسّام العراقيّ إبراهيم زاير (١٩٤٤- ١٩٧٢) إلى هموم سياسيّة، في حين قال آخرون إنّه عانى أزمة عاطفيّة وذهب فريق ثالث إلى القول بوجود مشكلات ماليّة وراء الانتحار. الشاعر الذي كان ناشطـاً في صفوف فصيل فلسطينيّ في بيروت، انتحر بإطلاق النّار على رأسه يوم ٢٤ إبريل ١٩٧٢ في العاصمة اللبنانيّة. بعد انتحاره بأيام قليلة، ولدت ابنته في العاصمة العراقيّة بغداد، التي شُيِّع فيها باعتباره «شهيد المقاومة الفلسطينيّة والنضال المسلّح».

انتقص موته المبكر صورة هذا الشاعر والرسّام التي كان من الممكن أن تكتمل وأن تندفع أكثر وأكثر، وهو الذي جعلته الظروف يرى في موته ضرورة وحلّا.

في قصيدته «وردة الضحايا»، يقول إبراهيم زاير:

«حمّلوني وردة الضحايا إليكِ وذكّروني بنوايا البحر، وبكوا عنّي عند جثتي وأنا

---

(١) تيسير السبول، الأعمال الكاملة، دار ورد للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٨.

(٢) المرجع نفسه.

أتيت.. وقفت إلى جسد الدلالت أقول وصوتي حداء يتلوّى يفارقه الحنين (أنا رحلتُ في موتي وجئتُ أنقش لوثتي على أعمدة النهار) بحثتُ يتبعني تحيّرتُ من غربة نفسي وعرفتُ أنهم قتلوني (مرّة أخرى) وتابعوا نشيدي»[1].

الشاعر العراقيّ، قاسم جبارة قصيدة تقيم في عزلتها. قصيدة منسية بالتمام والكمال. ولد عام ١٩٣٥، وهاجر إلى فيينا عام ١٩٧٧، وهناك راح يبيع الصحف تارة ويعمل عامل تنظيف تارةً أخرى. تزوّج واستقرّ بعد سنواتٍ من التشرُّد، لكنّ زواجه انتهى بالطلاق عام ١٩٨٦، إثر محاولة انتحار فاشلة لزوجته. الشاعر المنزوي المتحفّظ والصموت، انتحر بإطلاق النار على رأسه في منفاه في فيينا عام ١٩٨٧، بعدما اشترى مسدسـًا قديمـًا من بائع خردوات وكتب «كل أعضائي هادئة باستثناء العراق». لم يحسن التصويب، فبقي مشلولًا في المستشفى إلى أن فارقته الحياة[2].

ثمةَ إشاراتٌ في قصيدته إلى أنّه شاعر منفيّ مرتين، مرّة في وطنه وثانية في منفاه، حتّى إنّه يورد فيينا، العاصمة النمساويّة، مكانـًا لقصيدة كتبها عام ١٩٨٢. ويذكر أيضًا في قصيدة بعنوان «نشيد نصفي»:

«راضٍ بالموت وبالمنفى، وبعنف الركلات وبالمرحاض الرطب، وبالغرفة في آخر طابق وبتوزيع الإعلانات

وبموزارت الممنوع عليّ

بحذاء العسكر

بجواز هولنديٍّ

بفتاةٍ مفلسةٍ

راضٍ بالصّمتِ

وبالثرثرة العظمي

(١) إبراهيم زاير، وردة الضحايا، مجلة «مواقف»، بيروت العدد ٢١، يونيو ١٩٧٢.

(٢) جمانة حداد، سيجيء الموت وستكون له عيناك: مئة وخمسون شاعرًا انتحروا في القرن العشرين، الدار العربية للعلوم ناشرون/ دار النهار، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٤٤٩.

بالهذيان الهائلِ

بالذكرى إذ تسقط في بئرٍ أسود

باللحيّة والشعر الكثّ

وبالجلد المدبوغ وبسمحِ صحون القوادينْ

بنشيد الصف الثالث

بصديقة الملاية

بالقرآن

بتنزيلات السوق

بأصحابٍ أجلاف

برسائل حوليّات تأتي من بغداد

بالطابور الخامس

بقلعة صالح

بترتيلات أسمعها حين أنام... كأنينٍ لا متناهٍ...»[1].

أمّا القاصّ والروائيّ العراقيّ مهدي الراضي فقد كان للخيبة نصيبٌ في نهايته عام ٢٠٠٧، حيث كان الفشل مصير تفاعلاته مع محيطه. فعلى الجانب السياسيّ كان يرى أنّ السياسة العربيّة متشبعة بالرأي الأوحد، والتيار الحاكم. ولعلّ ما زاد من صدمة مهدي؛ أنّه كان معارضـاً لنظام صدام حسين، والنظام الذي جاء بعده على حدٍّ سواء. كما أنّ مهدي طرق باب العشق والحبّ، ولم يكن مصيره إلا الويل والتعاسة، ذلك حين وقع في غرام إحدى الأديبات، ليكتشف لاحقـاً أنّه حبٌّ من طرف واحد.

تحدث الراضي عن معاناته قبل الانتحار؛ في إحدى رواياته الأخيرة، التي أطلق عليها اسمْ «بيان الحب والعذاب»، والتي توضح مدى خيبته، وسوداوية الحياة التي كان يعيشها، كترنُّمه في أعماله «حلم يوم ما» و»مدن الشمع» و«حفلة إعدام»

(١) عوّاد ناصر، من يعرف قاسم جبارة؟، جريدة «الزمان»، بغداد، ١٧ فبراير ٢٠١٢.

و«العراقي المهجور». ضاق مهدي الراضي ذرعـاً بتهميشه الأدبيّ والسياسيّ، فقرّر أن ينفذ في نفسه حكم الإعدام[1].

ابن مدينة حمص، الشاعر السوريّ عبدالباسط الصوفيّ (١٩٣١- ١٩٦٠) عانى ويلات الحبّ والغربة، حتّى قرّر التّخلص من حياته. كان عبد الباسط عاشقـاً لفتاة لم يستطع الزواج بها لظروف قاهرة، وكانت النتيجة شاعرًا مهشّم الفؤاد. وحين سافر إلى أفريقيا في بَعثة لتدريس اللّغة العربيّة، ربّما كان ذلك هروبـاً زائفـاً سرعان ما أدرك زيفه[2]. فقد أوفدته وزارة التربية والتعليم لتدريس العربيّة في غينيا في ١٩٦٠، وهناك أُصِيب بانهيارٍ عصبيّ وقام بعدّة محاولات انتحار، ومات في مستشفى في كوناكري في ٢٠ يوليو ١٩٦٠، ونُقل جثمانه بحرًا إلى بلده حيث دفن بعد شهرين من وفاته.

هو الذي صاح يومـاً: «كيف لا أشكو ودائي ليس يشفيه دواء»، والذي اعترف ملء دفاتره الشعريّة بمعاناته، إذ يقول في قصيدته «مكادي»:

«فـ «سيزيف» من قبل، شدّ إلى الصخرة الجامدة
تسلق، يحمل أثقال خيبته الخالدة
مكادي! أنا بعض «سيزيف» بعض الذي كابده
فرغت على الزرقة الأبديّة،
قلبـاً هشيمـاً وروحـاً خراب
تسلقتها، لجّة وعرة، وارتميت عليها،
عصيَّ الرغاب
مكادي! أنا بعض «سيزيف» بعض الذي جالده
يطاردني اليأس، دامي السياط، كما طارده

(١) طلال الطريفي، مرجع سابق.
(٢) لينا هويان الحسن، بورتريه: عبد الباسط الصوفيّ «كيف لا أشكو ودائي ليس يشفيه دواء»، جريدة «الثورة»، دمشق، ٦ سبتمبر ٢٠٠٦.

مكادي! هما: الصخر والعقم في لجتي الصّاعدة»[1].

في عام ١٩٧٩ أطلق الكاتب والقاصّ المصريّ محمد رجائي عليش النار على رأسه. وجاء في تقارير رجال الشرطة أنّ الكاتب المذكور وجد في سيارته منتحرًا على مقربة من شقتينِ كان يمتلكهما في الحيّ نفسه، ولم تُعرف الأسباب الكامنة وراء الانتحار إلا بعد وصول رسالة منه إلى النائب العام فيها اعتراف صريح بالانتحار.

مزّق الفنّان التشكيليّ السوريّ لؤي كيالي أعمال معرض كامل له في عام ١٩٦٧ قبل أن يحرق نفسه عام ١٩٧٨. ويبدو للكثير ممّن عرف لؤي كيالي أنّ الأيام والظروف والواقع ضيّق الأفق، ومحاربة أوساط التشكيليّين له وقتها، وعدم الاعتراف بموهبته، أحرقت أحلام الفنان داخله، وقيّدته أمام لوحاته، ما دفعه لأن يشتغل جلّادًا لحواسّه، متشكّكـًا هو نفسه من قيمة إبداعه[2].

عانى كيالي من مرض الصّرع واتّهمه الآخرون بالجنون. بدأت تظهر عليه، في خريف عام ١٩٦٥، بوادرُ أزمة نفسيّة، وأخذ يرسم بالفحم لوحاتٍ صارخةً تمثّل عذاب الإنسان ونضاله.

في ٢٤ إبريل ١٩٦٧ أقام معرضه السابع في المركز الثقافيّ العربيّ بدمشق، تحت عنوان «في سبيل القضيّة»، لكنه تعرّض في معرضه هذا، لانتقادات تهجّميّة من قبل فئة من الفنانين والكتّاب، في الندوة وفي الصحافة.

مزّق، عقب المعرض لوحاته هذه، وتوّقف عن مزاولة الرسم، قبل أن تتفاقم في العام التالي أزمته النفسيّة، وانقطع عن التدريس، واعتكف وحيدًا في بيته المستأجر بحيّ العفيف بدمشق، قبل أن يغادره إلى حلب.

صَحِبَه بعضُ أهلّه من حلب إلى بيروت لمعالجته عند الطبيب السوريّ الأستاذ بالجامعة الأمريكية الدكتور علاء الدين الدروبي، فاستردّ صحته النفسيّة.

في مطلع العام الدراسيّ ١٩٦٩-١٩٧٠ عاد إلى التدريس في كلية الفنون الجميلة بدمشق، ثم ما لبثت صحته النفسيّة أن تردّتْ. في مايو ١٩٧٧ ، سافر إلى العاصمة

---

(١) عبدالباسط الصوفيّ، أبيات ريفية، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠٠٤.

(٢) ثقافة الانتحار.. لماذا ينتحر المثقفون؟، جريدة «النهار»، الكويت، ١ ديسمبر ٢٠٠٧.

الأردنيّة بلوحات لعرضها في «غاليري عالية»، لكنّ المعرِض لم يُقَم لخطأ في الإجراءات، فكان لهذا الحادث تأثير كبير في نفسه.

في الشهر التالي، أقام معرضه الثاني عشر في صالة الشعب للفنون الجميلة برعاية وزارة الثقافة السوريّة، لكنّه تعرّض لتهجُّمات من قبل فنانين وكتّاب في حلب. اعتزم الهجرة إلى إيطاليا، فباع بيته وما يملك، وغادر البلاد في ديسمبر وهو يحلم بأن يزاول الرسم في روما في مناخٍ أفضل. غير أنّه عاد إلى حلب في فبراير ١٩٧٨ مخيّب الرجاء.

اعتزل النّاس، وأدمن على تعاطي حبوب مهدّئة مُخدّرة، فكان بذلك كمن ينتحر رُويدًا رُويدًا على مرأى من عارفيه![١]

يكشف الباحث أنور محمّد في دراسة غيرِ منشورة عن حياة لؤي كيالي، أنّ هذا التشكيليّ السوريّ البارز، عاقب جسده بالانتحار حينما أحرق نفسه بسيجارة مشتعلة. ويقول إنّ أسباب انتحاره ليست عبثيّة كماُ أُشيع وقتها، بل أتت نتيجة إحساسه الطّاغي بالعُزلة والإحباط، في محيط لم يقدّر موهبته بما تستحق. ويشير في فصل خاصّ إلى أنّ لؤي كيالي كان يحب مُطربة مغمورة، تعمل في أحد الملاهي الليليّة في حلب ولم يجهر بهذا الأمر أمام أحد، وإنّما كان يذهب إلى الملهى كل ليلة لرؤية تلك المغنية والاستماع إلى صوتها، ثم يقوم بإحراق ورقة نقديّة من فئة الخَمسمئة ليرة. كان هذا المبلغ يعادل آنئذٍ ثمن لوحة من لوحاته، وحينما سأله هذا الباحث الذي رافقه في سنواته الأخيرة: هل تحبُّها فعلاً؟، أجاب: «ما المانع؟»، فقال له: «لو كنت تحبُّها كما تقول، لفعلت ما فعله فإنّ غوغ، حينما قطع أذنيه وقدّمهما هدية لحبيبته»... فما كان من لؤيّ إلا أنّ قرّب سيجارة مشتعلة من أذنه وقال: «هل يروق لك ذلك؟»[٢].

كان لؤي كيالي ضدّ فكرة الموت، لكنّه كان محاصرًا وتفاقمت محنته بعد أن تمّ الحَجر عليه في مشفى للأمراض العقليّة. علم بأمره بكري الناصر مدير الثقافة

---

(١) فاضل السباعي، الفن التشكيليّ في سورية: لؤي كيالي، موقع منتدى الشام الثقافيّ، ١٩٩٤.

(٢) ندرة المتحرين في بلد يفتقر إلى مقبرة للسيارات، مجلة العلوم الاجتماعيّة، الرياض، ١٤ يوليو ٢٠٠٩.

حينها في حلب، فأرسل كتابًا إلى المحافظ يُطالبه بعدم معاملة لؤي كيالي الفنان التشكيليّ والمدرس في جامعة دمشق كليّة الفنون الجميلة بصفته مجنونًا. فللفنّ كرامةٌ، ولحواسّ الفنان كرامةٌ من الواجب أن نصونها. وقبل أن يحترق لؤي، كانت ثمة حرائق تشتعل في عقله المتيقظ.

في ليل ٩-١٠ سبتمبر من عام ١٩٧٨، احترق وهو في سريره. نُقل بطائرة عموديّة من مستشفى جامعة حلب إلى المستشفى العسكريّ بحرستا شمالي دمشق، قبل أن يفارق الحياة في مستشفى حرستا في ٢٦ ديسمبر. وفي اليوم التالي ووُرِي الثرى في «مقبرة الصالحين» في حلب.

أمّا الشاعر الكرديّ مصطفى محمّد، ابن مدينة الحسكة، فقد كان في السابعة والعشرين من عمره حين انتحر في حلب عام ١٩٧٩، وكانت له مجموعتان شعريتان تحت الطبع «أبواب تتهيأ للخروج» و«عودة الغيوم الصامتة». خرج مصطفى من منزل ذويه قبل أسبوع من حادثة الانتحار ومن دون علم أحد، ليجدوه فيما بعد في مدينة حلب قرب مرآب المدينة المركزيّ وقد تبيّن بأنّه كان قد قذف بنفسه من على سطح أحد الأبنية القريبة من مرآب المدينة، وقد عثر على وصيّة في جيبه والتي تبرئ أيّ شخص من قتله وتؤكّد أنّه قام بهذا الفعل من تلقاء نفسه ونتيجة ضغوطات نفسيّة خاصّة به في محيطه[1].

ونذكر أيضًا د. دريّة شفيق إحدى رائدات حركة تحرير المرأة في مصر في النّصف الأول من القرن العشرين، والتي يُنسب إليها الفضل في حصول المرأة المصريّة على حقّ الانتخاب والترشّح في دستور مصر عام ١٩٥٦. غير أنّ دريّة شفيق، التي أسّست عام ١٩٥٢ «اتحاد بنت النيل» الذي يُعدّ أول حزب نسائيّ سياسيّ في مصر، عانت بسبب الأوضاع السياسيّة المتغيّرة في مصر بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وعدم وجود نشاط سياسيّ حقيقيّ، وعاشت دريّة شفيق في عزلة نحو ١٨ عامـًا قبل أن تنتحر بالسقوط من شرفة منزلها في ٣٠ سبتمبر ١٩٧٥.

والكاتبة والمترجمة المصريّة أروى صالح مؤلّفة كتاب «المبتسرون» التي انتحرت في ٧ يونيو ١٩٩٧. أروى، ابنة الحركة الطلابيّة المنتمية إلى اليسار، ألقت بنفسها من الدور الثاني عشر في مبنى العمارة التي كانت تقطنها في القاهرة، وقد ذكرت بعض

(١) ثقافة الانتحار.. لماذا ينتحر المثقفون؟، مصدر سابق.

الصحف أنّها انتحرت نتيجة للعنف الذكوريّ، في حين أنها ألمحت إلى الإحباط الذي كان يكتنفها في كتابها الأخير، وكأنّها فيه تكشف زيف الشيوعيّة التي كانت تؤمن بها، كما أنّها لم تحتمل ما سمته بالخيانة من رفاقها، الذين تبرأوا من معتقدهم بعد انهيار الشيوعيّة العالميّة.

كما أنّ احتقارها لذاتها ورفاقها الذين كانوا يبيعونها الوهم كما تصف؛ زاد من دوافع الانتحار لديها، خصوصـًا أنّها كانت تروي في مُسوَّدة كتابها؛ إنها كانت تشتري أبخس بضاعة من الكلام على لسان أحدهم، وتدفع لذلك ثمنـًا باهظـًا في ساعات متأخّرة من الليل، الأمر الذي جعلها تنتقم من هذا العالم الذي جعل منها أضحوكة لهذا اليساري أو ذاك. لذا انتقمت من هؤلاء الباعة بفضحهم، على الرغم من أنّهم حاولوا كثيرًا ثنيها عن ذكر أسماء. ونتيجة لكل هذا قرّرت أروى الانتحار؛ انتقامـًا من سذاجتها في السير مع ركب أناس لا يتقنون إلا الكلام. ومن يقرأ «سرطان الروح» الذي صدر عن دار النهر في ١٩٩٨، ويضمّ خلاصة وافية عن أعمالها غير المنشورة، سيرصد فكرة محوريّة حول الانعزاليّة والاكتئاب والشرود في أحلام اليقظة. وتتحدّث أروى في هذا الكتاب عن محاولة انتحار سابقة، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بالسقوط من علٍ.

أمّا الدكتور إسماعيل أدهم (١٣ يناير ١٩١١- ٢٣ يوليو ١٩٤٠) مؤلف كتاب «لماذا أنا ملحد؟» الذي أثار ضجّة كبرى في الساحة الثقافيّة آنذاك، فقد أثار خبر انتحاره ضجة كبرى وقتذاك. كان إسماعيل أدهم يُجيد عددًا من اللّغات، وله كثير من الدراسات والكتب والبحوث، لكنّه واجه صعوباتٍ مجتمعيّةً بسبب موقفه من الأديان، إذ يقول «إنّ الأسباب التي دعتني للتخلّي عن الإيمان بالله كثيرة منها ما هو علميّ بحت ومنها ما هو فلسفيّ صرف ومنها ما هو بينَ بينَ ومنها ما يرجع لبيئتي وظروفي ومنها ما يرجع لأسباب سيكولوجيّة»[1]. ويضيف قائلاً: «وكانت نتيجة هذه الحياة أنّي خرجت عن الأديان وتخلّيت عن كل المُعتقدات وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلمي، ولشد ما كانت دهشتي وعجبي أنّي وجدت نفسي أسعد حالًا وأكثر اطمئنانـًا من حالتي حينما كنت أغالب نفسي للاحتفاظ بمُعتقَد دينيّ»[2].

---

(١) د. إسماعيل أحمد أدهم، أعمال مختارة، منشورات الجمل، بيروت، ٢٠١٠.

(٢) المرجع نفسه.

تقول الباحثة د. رجاء بن سلامة «عمد الشيخ يوسف الدّجوي إلى استعداء السلطة السياسيّة بقوله إنّ صاحب الرسالة يطعن في دين الدولة ومليكها حامي الدّين والعلم، وأنّ ما جاء فيها يتناقض مع الفطرة الإسلاميّة التي جُبل عليها سائر البشر. وهو ما يدلّ على تعاضد المؤسستينِ الدينيّة والسياسيّة في محاصرة الفكر.. وقد لبّت وزارة النحاس نداء الشيخ يوسف الدّجوي واستجابت للدعوة التي قدّمها شيوخ الأزهر ضدّ إسماعيل أدهم، وقامت النيابة بالتحقيق معه ومصادرة رسالته وتفتيش منزله فوجدت فيه رسالة (لماذا أنا ملحد؟)، وملفّات أخرى تحوي بعض نسخ من بحوث متعددة عن فلسفة النشوء والارتقاء، وكتاب (لماذا أنا ملحد؟) لراسل، ومظروفًا يحوي أكثر من ثلاثين صفحة من كتاب بخطه يشرع في تأليفه ينكر فيه وجود الله ويؤكّد إلحاده. وقد حالت جنسيته التركيّة وحالته الصحيّة بينه وبين السجن واكتفت النيابة بتحذيره وتعطيل مجلة الإمام التي نشرت الرسالة لأول مرة.. يقول إسماعيل أدهم في بعضِ مقالاته إنّ شيخ الأزهر قرّر بمرسوم مسجديّ حرماني الجنّة جزاء لكفري.. ولأنّ الرقابة تنتقل بالعدوى، وتتّسع دائرتها تلقائيًا؛ فإنّ العزل الذي تقوم عليه طال محقّق أعماله الكاملة. فقد ذكر لي أحد المفكرين المصريين المطّلعين (لا أذكر اسمه خوفًا عليه من العدوى نفسها) أنّ أحمد الهراوي طُرد من جامعة صنعاء لأنه درّس أحد مؤلفات إسماعيل أدهم في النقد الأدبيّ وصادف أن كان هذا المؤلّف منشورًا في المجلّد الذي يتضمّن رسالته (لماذا أنا مُلحد؟)»[١].

عانى إسماعيل أدهم أمراض الصّدر لفترة طويلة، وأدّت آراؤه في الدّين إلى شعوره بالعزلة، حتّى كره الحياة التي لا تنتهي إلى شيء، فكانت النهاية. فقد فوجئت الأوساط العلميّة والثقافيّة بخبر انتحار د. إسماعيل أدهم بإلقاء نفسه في البحر على شاطئ جليم في الإسكندرية، وسط محاولة بعض رواد الشاطئ إنقاذه من دون جدوى. وبعد بضع ساعات، انتشل رجال الأمن والإسعاف جثته، ووجدت في ملابسه رسالة قال فيها إنّه انتحر زهدًا في الحياة وكراهية لها. وأوصى أدهم بإحراق جثّته وعدم دفنه في مقابر المسلمين، لكنّ وصيّته لم تنفذ وتم دفنُه وسط أجواء من الصّمت، ولم يمشِ في جنازته إلا خمسة أشخاصٍ[٢].

---

(١) د. رجاء بن سلامة، إسماعيل أدهم واختلافه غير المحتمل مثالاً عن آليّات الحجز الرقابي، موقع «الحوار المتمدن»، العدد ٢٤٥٥، ٤ نوفمبر ٢٠٠٨.

(٢) هاني الخير، مشاهير وظرفاء القرن العشرين، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣، ص ٦٥.

وذهب البعض إلى القول بأنّ إسماعيل أدهم «إنّه الصورة المضادة للشهيد. الشهيد يعزل بالتضحية التي تنقله إلى دائرة القداسة، والمُنتحر يعزل بتضحية فرديّة تعدّها المجموعة (هدرًا) وهباء، أي مُدنَّسا ضديدًا للمقدّس الإضحوي. أمّا أن يكون المنتحر مُلحدًا، فتلك مسرحةٌ لأقصى صور الغيريّة المرفوضة. الغيريّة التي تأتي من (الداخل) في عالم ما زال فيه الدّم وثاقـًا يشدّ الدنيويّ إلى المقدّس لإنتاج العنف العتيق»[١].

كما شكّل انتحار الشاعر والناقد المصريّ فخري أبو السعود (١٩١٠-١٩٤٠) صدمة أخرى للأوساط الأدبيّة في مصر آنذاك. كان هذا الباحث الموهوب في مجال الأدب المقارن، مبتعثـًا في بعثة دراسية لإنجلترا (١٩٣٢ - ١٩٣٤)[٢]. وحين عاد إلى الوطن وبصحبته زوجته الإنجليزيّة، التي تعرف عليها في رحاب الجامعة، وأنجب منها وَلدينِ، أقام في الإسكندريّة مع أسرته الصغيرة. وحدث أن سافرت زوجته إلى لندن مع ولديه، قبل نشوب نيران الحرب العالميّة الثانية بأسابيع قليلة، فلما اشتعلت ميادين القتال في أوربّة عام ١٩٣٩ واستهدفت الطائرات الألمانيّة المدن البريطانيّة الرئيسية وكان الولدان من بين الأطفال البريطانيّين المرحّلين إلى الولايات المتّحدة، من أجل تجنيبهم الأخطار، فغرقت بهم السفينة جميعـًا[٣].

أمّا زوجته فقد منعتها أجواء الحرب عن العودة ثانية إلى مصر، فانقطعت أخبارها عنه، ففقد صوابَه وشجاعته معـًا.

وكانت هذه الحالة الأليمة، ضياع أسرته، سبب انتحاره حيث أطلق رصاصته من مسدسه على رأسه في أحد أيام شهر مارس من عام ١٩٤٠ فكانت نهايته، وطُويت صفحة أيّامه[٤].

لم يترك الراحل فخري وصيّته كعادة المُنتحرين، بل ترك بخطّ يده المُرتعشة وعلى

---

(١) د. رجاء بن سلامة، مصدر سابق.

(٢) خيرالدين الزركليّ، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠.

(٣) عبدالعليم القبّاني، فخري أبوالسعود (١٩١٠ - ١٩٤٠) حياته وشعره مع ملامح من عصره وإشارات إلى آثاره النثريّة، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

(٤) محمد عبدالغني حسن، أعلام من الشرق والغرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٠.

بياض الورق، بيتينِ من الشعر أحدهما للمتنبي والثاني لزُهيرِ بن أبي سُلمى. أمّا بيت المتنبي فهو:

وإنّي لَمِن قَومٍ كِرَامٍ نُفُوسُهم ترفّعُ أَن تَحيَا بِلَحمٍ وَأَعظُمِ

أمّا بيتُ زهيرٍ فهو:

سَئِمتُ تَكَاليفَ الحَيَاةِ وَمنْ يَعِشْ ثَمَانينَ حَولاً ـ لا أَبا لكَ ـ يَسْأَمِ

وقد وضع كلمة ثلاثين بدلًا من ثمانين، ذلك أنّه عندما أنهى حياته، وهو في حالة انهيار نفسيّ واكبه الاكتئابُ الشديد، كان في حَوَالَي الثلاثين من العمر[1].

وكان أحمد العاصي (١٩٠٣- ١٩٣٠) شاعرًا معروفًا في عصره، وقد أصدر ديوانًا يتيمًا هو «ديوان العاصي» وكتب له أحمد شوقي مُقدّمة شعريّة يشيد في أول بيت منها بالتشابه بين اسم العاصي ونهر العاصي الذي يتدفّق في أرض سوريّة.

التحق العاصي بمدرسة الطبّ في القاهرة، ولمّا أُصيب بمرض الصدر هجر دراسة الطبّ، والتحق بكلية الآداب، وتخرّج في قسم الفلسفة، ليعمل موظفًا بمكتبة هذه الكليّة.

انعكست حياته المرضيّة القاسية، وثقافته الفلسفيّة، وحساسيته الشعريّة على قصائده، فجاءت متشائمة ذات نظرة عبثيّة إلى الحياة. وهذا الشاعر الذي حيّاه شوقي بقصيدة كان قد دعاه فيها إلى الكف عن الشكوى لأنّه لا يزال شابًّا في مقتبل الحياة، انتحر وهو في السابعة والعشرين من عمره بعد أن أصدر ديوانه الوحيد عام ١٩٢٦ وأصدر إلى جانبه رواية منشورة الآن هي «غادة لبنان»[2].

غير أنّ التعبير عن عالمه الحزين القاتم لم يفرج همّه، فغلبته هواجسه، حتّى أغلق نوافذ مسكنه في القاهرة، وأنهى حياته بيده تاركًا قصاصة بخطّ يده يقول فيها: «جبانٌ مَن يكره الموت، جبانٌ مَن لا يرحّب بذلك الملاك الطاهر. إنّني أستعذب الموت، وهو لي كالعطر»[3].

---

(١) هاني الخيّر، اليوم الأخير في حياتهم.. فخري أبو السعود.. الرحيل المبكر، جريدة «الثورة» السوريّة، ١ أبريل ٢٠١٠.

(٢) زكي محمد مجاهد، الأعلام الشرقيّة في المائة الرابعة عشرة الهجرية، مكتبة مجاهد، القاهرة، ١٩٦٣.

(٣) معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، مؤسّسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعريّ، ط٢، القاهرة، ٢٠٠٢.

ويحدث أحد مؤرخي حياته وهو الأديب الناقد محمد محمود زيتون بأنّه انتحر بأن دهن جسمه بمادّة كاوية ثم أوى إلى فراشه. وظلّت هذه المادة تأكل جسمه بالتدريج وتحرق الفراش ببطء، من الساعة التاسعة صباحـًا حتّى الخامسة من اليوم التالي، حيث قضت عليه وأحرقت الحجرة.

ورمى الشاعر المصريّ صالح الشرنوبي (١٩٢٤- ١٩٥١) بنفسه تحت عجلات القطار عام ١٩٥١ بعد أن ترك في جيبه ورقة تُوصي أهله بطباعة ديوانه، وقد كان شاعرًا رومانتيكيـًا صعلوكـًا برغم تعليمه الدينيّ. فقد حصل على الثانويّة الأزهريّة من المعهد الأحمديّ بطنطا عام ١٩٤٧، لكنّه فشل في الالتحاق بدار العلوم بعد أن اجتاز الامتحان التحريريّ، بسبب تعنّت أستاذ الشريعة في الامتحان الشفهيّ للقرآن الكريم. التحق بكلية أصول الدين ثم هجرها بعد سبعة أشهر من الدراسة.

بعد عام من تركه كليّة أصول الدين عاد إلى بلطيم ليعمل مدرّسـًا بالمدرسة الابتدائيّة. ترك بلطيم إلى القاهرة بعد أن رفض أبناء عمّه يده في طلب شقيقتهم التي كان يحبها ويرى في ارتباطه بها نهاية كل متاعبه.

في القاهرة تعاطى كل ألوان الضياع، وعاقر كل ألوان الصعلكة، وكتب أروع وأبدع قصائد الشكّ والحزن والحرمان والموت سواء وهو مُقيم بحجرة الدجاج على سطح أحد المنازل، أو وهو ملتجئ، بعد أن طردته صاحبة البيت لعجزه عن دفع الإيجار، إلى مغارة بجبل المقطم، أو وهو مقيم في بدروم تحت الأرض يخيّل إلى داخله أنّه يستنشق هواء قد سبق تنفّسه حسب تعبير الدكتور عبد الحيّ دياب[1].

عمل مدرسًا بمدرسة أجنبيّة للبنات هي مدرسة «سان جورج» لكنّه فُصل منها لكثرة تخلفه وعدم التزامه بمواعيد الحضور والانصراف. مرّة ثانية حاول الالتحاق بكلية دار العلوم ليلقى النتيجة نفسها التي لقيها عام ١٩٤٧، وعلى يد أستاذ الشريعة نفسه. التحق بكلية الشريعة، لكنه سرعان ما هجرها لنفس الأسباب التي هجر بها كلية أصول الدّين.

كتب عنه عدد من أبرز الأدباء المصريّين مثل كامل الشناوي وصديقه صالح

---

(١) صالح الشرنوبي، ويكيبيديا.. الموسوعة الحرّة الإلكترونيّة.

جودت، وقد قدّم لأحد دواوينه علي أحمد باكثير، وقال عنه العقاد إنه «لو عاش لبزَّ شوقيًا».

تعرف على المُمثّلين والمُمثّلات وكتب أغنياتٍ بعض الأفلام، كما أنّه عرف وذاق كلّ خصائص عالم الفنّ إلى درجة التّخمة. علم كامل الشناوي بمأساة الشاعر صالح الشرنوبي فعيّنه مُصحّحـًا في جريدة «الأهرام» لتظل المأساة قائمة نتيجة لنمط الحياة التي قد استغرقت هذا الشاعر.

في إجازة عيد الأضحى عاد الشّاعر إلى بلطيم لتكون النهاية الحزينة، ولتُشيِّع بلطيم شاعرها يوم ١٧ سبتمبر ١٩٥١.

الشاعر المصريّ منير رمزي (١٩٢٥ - ١٩٤٥)، كان بدوره مهمومـًا بفكرة الموت في قصائده، وهو ما نلمسه في مجموعته الشعريّة الوحيدة «بريق الرماد» التي نشرت بعد رحيله عام ١٩٩٧. انتحر بإطلاق النار على نفسه في ٢٥ مايو ١٩٤٥ بسبب قصة حبٍّ فاشلة، بعدما كتب على قُصاصة ورقٍ: «أنا هارب».

يقول في قصيدته «أنا الغريب»:

«أهيم بين مجالس الموتى

هامسـًا في آذانهم

بأغانيّ التي لا معنى لها،

أرسلها في خفوت

خائفـًا إيقاظهم،

ثمّ أجلس في صمت»[1].

وفي قصيدته «في الليل الأبديّ»، يقول:

«نهاري قصير، ولكن ليلٌ أبديّ..

ليلٌ مرّت أطرافه،

---

(١) منير رمزي، بريق الرماد، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ١٩٩٧.

لم تعكس صفحة قلبي شعاعـًا واحدًا

لكوكب من كواكبه..

أسدلت عينيّ حتّى لا يروعني،

ما يحوطني من ظلام»[1].

رَصاصة قاتلة أنهت حياة الشاعر والمخرج والرّسام اللبنانيّ أنطوان مشحور المولود عام ١٩٣٦، إذ انتحربإطلاق النار على رأسه صباح يوم ١٧ نوفمبر ١٩٧٥، بعدما كان أسرّ إلى صديق له قبل أيام باعتزامه الانتحار. وُجِدَ في سريره في شقّته الواقعة في أحد مباني شارع الحمراء، وحوله صور زوجته اليونانيّة التي كانت هجرته بعد خلاف حادٍ بينهما. لم تكن قصائد هذا الشاعر السورياليّ تخلو من مفردة «ليل» أو «عتمة». ومن مجموعته الشعريّة الوحيدة الصّادرة باللّغة الفرنسيّة عام ١٩٦٥ بعنوان «أعشاب الليل الطويلة»، نطالع عبارات مثل:

«سأبسط خيوط الدم في جسدي

شراعـًا وسأقول وداعـًا للأرض»[2].

وأيضـًا:

«سألِتني أن أحدثكِ عن الموت.

عندما رأيته للمرّة الأخيرة كان

قد غيّر تسريحة شعره».

وهكذا بدا الانتحار ومحاولات التخلّص من الحياة أمرًا مألوفـًا لدى عدد من المبدعين، ورأينا مَن يقدّم لنا تصوّرًا فلسفيـًا للمأساة، ومن ذلك ما أورده الأديب النوبيّ الرّاحل إدريس علي الذي قال في حوار صحفيّ قبل وفاته بقليل: «أرى أن مسألة الانتحار أشرف وأنبل وسيلة للانسحاب من واقعٍ مَهين. فأنا لم أحبب الحياة بما فيها من تفاهاتٍ وصراعاتٍ وتفاوتٍ طبقيّ، وروايتي «تحت خط الفقر» تُعري هذا

(١) المرجع نفسه.

(٢) Antoine Mechawar, Les longues herbes de la nuit, Ed. Harb Bijjani, Byrouth, 1965.

الواقع وتفضح المستور، وتكشف المسكوت عنه. وقد مات ابني منتحرًا، واكتشفتُ أنّه لا فائدة من الكتابة. لقد حاولتُ الانتحار بإلقاء نفسي في النيل أكثر من مرّة، ولكنّ النيلَ أبى أن يبتلع جثّتي»[١].

الأجزاء الأربعة التي صدرت من سيرته الذاتيّة بعنوان «كتابة البوح» كانت بالفعل «مشاهد من قلب الجحيم». ربّما لم تلفت هذه السيرة كثيرين. ربّما لم يهتم فيها بالتفاصيل الفنيّة واللّغة والبناء، لكنّ جرأتها غطّت على كلّ هذه العناصر. هذه الجرأة كانت سببـًا في أن تُلاحقه المشكلاتِ والأحزانَ. وكان آخرها مصادرة روايته «الزعيم يحلق شعره»، التي تناول فيها سنواتٍ قضاها في العمل في ليبيا.

ثم صدرت روايته «انفجار جمجمة» التي عبّر فيها ببراعة عن هواجسه الداخليّة، مفكّكـًا الأنظمة القمعيّة. هذه الرواية غيّرت حياته، إذ كان يعمل فى إحدى الشركات مضطهدًا ومعزولًا باعتباره كاتبـًا مجنونـًا شيوعيـًّا، لكن فجأةً حصلت الرواية على جائزة معرِض الكتاب في القاهرة، فالتقى إدريس علي بالرئيس المصريّ الذي صافحه، وتغيّرت حياته، وزاد راتبه، وصار أمينـًا لمكتبة الشركة[٢].

غير أنّه بقي وفيـًّا لحياته المعذّبة القلة، حتّى وافاه الأجلُ المحتوم.

ربّما يكون إدريس علي (١٩٤٠- ٢٠١٠) الأكثر سعادة بموته. فقد حقّق أخيرًا «حُلمـًا» سعى إليه طويلًا. جرّب الانتحار مرارًا، احتجاجـًا على الأوضاع البائسة التي عاناها طويلًا، لكنّه في كلّ مرّة كان يفشل في بلوغ مبتغاه. وفي أحد أيام ديسمبر الشتويّة حقّق «حُلمه». مات، لكن في فراشه، متأثرًا بأزمة قلبية لم يستطع تحمّلها.

ومن الجزائر، يبرز اسم الشاعرة الجزائريّة صفية كتو (١٩٤٤- ١٩٨٩) التي خرجت من بيتها ذات صباح شتويّ بارد، ولم تتردّد في رمي جسدها من أعلى جسر تيليملي بوسط الجزائر العاصمة، لتنتشل جثّة هامدة عند الشارع السفليّ من أعلى ثمانية طوابقَ كاملة.

---

(١) خالد شحاتة، إدريس علي، حاولت الانتحار ورفض النيل ابتلاع جثتي، مجلة «المرأة اليوم»، أبوظبي، ١٧ مارس ٢٠١١، ص ٩٨-٩٩.

(٢) محمد شعير، إدريس علي.. وقائع موت معلن، جريدة «الأخبار»، بيروت، ١ ديسمبر ٢٠١٠.

صفيّة كتو هو الاسم الفنيّ للشاعرة التي كانت في وثائقها الرسميّة تحمل اسم زهرة رابحي، ووُلدت في مدينة العين الصفراء عند بوابة الجنوب الغربيّ للجزائر حيث عملت مُدرّسة للغة الفرنسيّة حتّى سنة ١٩٦٩ لتنتقل إلى مدينة الجزائر. في سنة ١٩٧٣ أصبحت صحفيّة في وكالة الأنباء الجزائريّة، ومن عناوين كتبها الأدبيّة، المجموعة الشعريّة «صديقتي القيثارة» سنة ١٩٧٩ والمجموعة القصصيّة «الكوكب البنفسجيّ» إضافة إلى عناوين أخرى.

قبل انتحار الشاعرة صفيّة كتو، كان الشاعر الشابّ (حينها) عبد الله بوخالفة (١٩٦٤- ٢ أكتوبر ١٩٨٨) الذي بدأ يشقّ الطريقة بتجربة شعريّة مختلفة قد أنهى حياته بطريقة مأساويّة في ضاحية مدينة قسنطينة بالشرق الجزائريّ. لم يتردّد هذا الناشط الطلابيّ في إلقاء نفسه أمام القطار الذي حولّه إلى أشلاء. ولم تصدر أشعاره في كتبٍ إلّا بعد سنوات طويلة على رحيله، بجهود بعض أصدقائه ومحبّيه، وذلك عن منشورات المكتبة الوطنيّة عام ٢٠٠٥.

يقول عبدالله بوخالفة في قصيدته «التروبادور ١»:

«يبني من الياسمين السلالم

يبني من الانتحار الندى

بعدما كان يصبّ الماء في الأنعام»[1].

وفي قصيدة «التروبادور ٢»:

«وقال لها:

علّميني الفراق

أنا سيد اليائسين

فتحتُ الرؤى وانتحرتُ مع أوراق الصباح

مع النور والسحب الشجريّة انتحرتُ

---

(١) جمانة حدّاد، مرجع سابق، ص ٤٨٣.

ومن شفتيك تفجّرت المطرات التي حملتني إلى اللّيل»[1].

بعد ستّ سنوات من انتحار الشاعر عبد الله بوخالفة، أقدم شاعرٌ آخر وهو فاروق اسميرة على رمي جسده من أعلى الجسر المعلّق لمدينة قسنطينة من علوٍّ يقترب من ٢٠٠ متر وكان ذلك سنة ١٩٩٤، وهو الشاعر المميَّز الذي كان يعدُّ لرسالة ماجستير. وكان قد أحيا بشعره ذكرى صديقه عبد الله بوخالفة في أكثر من قصيدة وتأثّر كثيرًا لرحيله بتلك الطريقة قبل أن يلحقه.

وبعد سنين من رحيله بتلك الطريقة كتب عنه صديقه الشاعر عادل صياد يقول: «لست أدري ماذا كان يقول صديقي فاروق وهو يهوي بجسده من الجسر المعلّق في الخواء. بالتأكيد لم يكن ينوي الانتحار.. كان يرغب في اختراق القشرة الأرضيّة، والنفاذ منها إلى الفراغ الفسيح، والتحليق في أرجائه تحليقـًا أبديـًّا، يليق بجناحيه وقدرته على الطيران».

لم تتوقّف ظاهرة انتحار الشعراء في الجزائر عند هذا الحدّ، ففي سنة ٢٠١٠ أقدمت الشاعرة الشابّة هادية رجيمي على الانتحار داخل بيتها وهي التي لم تتجاوز الثلاثين من العمر، وفعلت ذلك بعد أن أصدرت مجموعتها الشعريّة الأولى «عطر الثرى». وتبقى أسباب الانتحار مجهولة.

ظاهرة انتحار الشعراء في الجزائر ليست وليدةَ سنواتِ الاستقلال، بل تجاوزت ذلك في التاريخ المعاصر. ولعلّ أشهر المنتحرين قبل هذه الفترة هو الشاعر مبارك جلواح الذي رمى بنفسه في نهر السّين بالعاصمة الفرنسيّة باريس سنة ١٩٤٣ وهو المولود سنة ١٩٠٨ بضاحية سطيف بالشرق الجزائريّ، تاركـًا ديوانـًا شعريـًّا بعنوان «دخان اليأس». وبعد سنين طويلة من رحيله المفجع جمع الناقد عبد الله الركيبي كل أعماله في كتاب بعنوان «جلواح»[2].

الظروف الصحيّة الصعبة حالت دون متابعة الشاعر المغربيّ كريم حوماري، المولود عام ١٩٧٢ في مدينة صفرو، تحصيله الدراسيّ. في قصائده التي أثبتت موهبته الصّاعدة، كانت تيماتِ الموت والوَحدة والجروح والحزن والهزيمة حاضرة

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٨٣.

(٢) صفيّة كتو تفتح جرح المنتحرين في الشعر الجزائريّ، مدونة «الخير شوار»، ١ مارس ٢٠١٢.

بقوة. كتب إلى صديقه قبل أيام من رحيله رسالة يقول فيها: «عين الأشباح تطاردني صباح مساء»[1]، قبل أن ينتحر بشنق نفسه يوم ٤ مارس ١٩٩٧.

يقول كريم حوماري في قصيدته «يحفر الليل قبري وينام»:

«أظلّ مفتوح العين

حتّى يشنق خط الفجر عنق هيامي

يحفر الليل قبري وينام»[2].

ويقول في «سفر داخلي»:

«أمشي ليس في طريقي غير نوافذ مشرّعة على ضياء من خرير دمي. قلبي مكفّن في هواه، قدماي بلا وقع. أمشي على رصيف الغواية وليس في هذه الطريق غير الضياع الرابض في أنفاسي»[3].

وفي قصيدة «قلقٌ صامت» يقول:

«ذبل الياسمين في فمي

وشقائق النعمان

مغمورةٌ برماد عظامي

هكذا، أموت سالمـًا

في حديقة جنوني»[4].

كان الشاعر السودانيّ عبدالرحيم أبو ذكري (١٩٤٣-١٩٨٩) يقول لأصدقائه: «أشعر أنّ لي مكانـًا في الحياة ينتظرني وأنّ هذا المكان لن يملأه أحدٌ غيري في الشعر والترجمة»، لكنّ صاحب ديوان «الرحيل في الليل» عانى باكرًا سلسلةَ انهياراتٍ

---

(١) جمانة حدّاد، ص ٤٨٧.

(٢) كريم حوماري، تقاسيم على آلة الجنون، جمعيّة قدماء تلاميذ ثانويّة الأصيليّ، دار قرطبة، الدّار البيضاء، ١٩٩٧.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه.

عصبيّةٍ وحالاتِ اكتئابٍ وإرهاق، وكانت صحتُه ضعيفة هشّة[1]. وضع أبو ذكري حدًّا لإبداعه برمي نفسه من مبنى أكاديميّة العلوم السوفيتيّة صباح ٥ نوفمبر ١٩٨٩ وسط ثلوج موسكو[2].

يقول أبو ذكري في قصيدته «في الفاجعة»:

«لحظتها قلتُ: أموت هنا...

عيناكِ لديَّ كفن

من عينكِ أشرب طعم الموت العالق

في أفق الأجفان

أتمعّن فيكِ وأنصت:

أسمع خشخشة الأكفان»[3].

قائمة الأدباء والشعراء العرب المُنتحرين تطول، وتضمّ من السودان مثلًا: الشعراء محمد عبد الرحمن شيبون (١٩٣٠-١٩٦١)، وسامي يوسف قبريال (١٩٥١-١٩٧٥)، وأحمد الطيّب عبدالحفيظ.

ساهمت في إضاءة عوالم الانتحار عدّة روائع أدبيّة عربيّة وغربيّة خطّتها أقلامٌ إبداعيّةٌ لأدباء عرب وغير عرب، مثل جورج باطاي، وجورج سالم، وغابرييل مارسيل، وألبير كامو، والمغربيّ محمد أسليم، ممّن مثل الموت نقطة ارتكاز في أعمالهم، وقد قادهم ذلك إلى الشعور بعبثيّة الحياة[4].

وهناك نصوصٌ غربيةٌ تُشاكس تيمة الموت، بكيفيّة أو بأخرى، مثل «الميت»

---

(١) جمانة حدّاد، مرجع سابق، ص ٣٩٧.

(٢) كمال الجزولي، عبدالرحيم أبو ذكري،: نهاية العالم خلف النّافذة، دار تراث ودار العلوم، الخرطوم، ٢٠٠٥.

(٣) عبدالرحيم أبو ذكري، الرّحيل في الليل، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، ٢٠٠١.

(٤) د. غسّان السيد، إشكاليّة الموت في أدب جورج سالم، غابرييل مارسيل، ألبير كامو، الطّبعة الأولى، دار معد للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٣، ص ٧٧.

لجورج باطاي[1]؛ «ميثولوجيّات الموت» لمناحيم روث؛ «الطقوس الجنائزيّة؛ الحداد» لمناحيم روث.

أمّا الشعر العربيّ، قديمُه وحديثُه فلم يخلُ هو الآخر من شعراء تأمّلوا الموت، نذكر منهم: عنترة بن شدّاد، وسيّد بن عامر المصطلقي، وطرفة بن العبد، وعمر الخيّام. وفي حقل الفلسفة، اعتبر أفلاطون الفلسفة تأمّلاً في الموت، ويرى ول ديورانت أنّ «الموت أصل الدّيانات كلّها»[2]، وعدَّ شوبنهاور الموت الموضوع الرئيس للفلسفة والملهم الأكبر للتفكير الفلسفيّ، فيما اعتبر الفيلسوف المصريّ د. عبد الرحمن بدوي الموت فعلًا فيه قضاء على فعل.

وتقدّم الشاعرة اللبنانيّة جمانة حدّاد أنطولوجيا للشّعراء المُنتحرين تحت عنوان «سيجيء الموت وستكون له عيناك: مئة وخمسون شاعرًا انتحروا في القرن العشرين». الأنطولوجيا التي تضمّ تأملاتٍ شخصيّةً في الموت والانتحار، ترسم صورتين مُتناقضتين إلى حدّ ما. واحدة، هي الأكثر طغيانـًا، كأنّما تمجّد فيها جمانة حدّاد الموت الانتحاريّ، أو تنحاز غالبـًا إلى جعله خيارًا شبه بطوليّ أو موقفـًا ضدّ الحياة الفارغة نفسها[3]. يبرز هذا في عدد من الاقتباسات من كتاب كثر تسبق العناوين الفرعيّة في المدخل، من قبيل: «أنا أموت، إذًا أنا موجود»، «حيّ هو كل من يمكنه أن يختار الكفّ عن العيش»، «في أحد الأيام سأكون ميتة بيضاء كالثلج...»، «أحبّك يا موتي الطويل المرّ»، «الموت فنّ وإنّي أمارسه بإتقان»...إلخ. أو حين تكتب الشاعرة اللبنانيّة: «نعم. مئة وخمسون، في القرن العشرين، انتحروا.... احتقروا... هذه الحياة الانتحاريّة. مئة وخمسون بطلًا وبطلة ازدروا العروش كلّها، الباطلة منها وغير الباطلة، وارتموا في الهاويّة»[4].

أمّا الصورة الأخرى المناقضة لهذه الصورة السحريّة الجذّابة، فهي حين تسأل حدّاد: «هل الانتحار شعر؟»، وتجيب: «ظللت أرى الانتحار شعرًا حتّى رأيته.

---

(١) جورج باطاي، «الميت»، ترجمة محمد أسليم، فصليّة «إسراف»، باريس، ٢٠٠٠.

(٢) حسين العودات، الموت في الديانات الشرقيّة.. عرض تاريخيّ، الطبعة الثانية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٢، ص ١٦.

(٣) سامر أبو هوّاش، مئة وخمسون شاعرًا انتحروا في القرن العشرين، موقع «أوان»، ٩ يناير ٢٠٠٨.

(٤) جمانة حدّاد، مرجع سابق، ص ٢٩.

أعني حتّى رأيته بأمّ العين. فعندما نشاهد الأجساد المشوّهة والمُمزّقة، لا يظلّ هناك شاعريّة الفعل، بل بشاعة النتيجة في ذاتها»[1]. وتذكر في هذا السياق مشهد جدّتها المُنتحرة، مستعرِضة أشكال الانتحار المختلفة، القاسية في معظمها. لا تنفي حدّاد قسوة الانتحار من حيث الشكل، أي طريقة الموت (ولذلك تمتدح الانتحار بالحبوب المنومة: «أدركت أنّ الانتحار بالحبوب المنوّمة ربّما يكون الأكثر «جماليّة»)، أمّا من حيث الجوهر فالانتحار غالبـًا هو فعل طقوسيّ، وصرخة رمزيّة، لا سيّما حين تأتي من شاعر.

وفي سياق الحديث عن حوافز الانتحار تجزم حدّاد: «لا، ليس الانتحار امّحاء في الضرورة. ليس تنازلًا، ليس استسلامـًا، ليس اندحارًا، ليس تراجُعـًا، ليس غيابـًا ولا هزيمة: بل هو غالبـًا هجوم إلى الأمام».

وفي الأدب العربيّ الحديث نجد كتاباتٍ عدّة عن الانتحار[2]، مثل النصوص السرديّة للمغربيّ محمد أسليم التي تحمل عنوان «حديث الجثة»[3]. يبدو محمد أسليم ممتلئًا بعشق الموت والانتحار، إذ يقول: «لمّا عزمت على وضع حدٍّ لحياتي بتناول كميّة كبرى من العقاقير وإحراق جثّتي، ولمّا دبّجتُ قبل ذللك خطابـًا أوضّحُ فيه أسباب انتحاري» (ص ٢١)؛ «حاول أن يموت. جرع حفنات رملٍ وحصى وأقراصـًا عديدة» (ص ٢٦)؛ «... ماذا يتمّ عندما ألقي بجثتي الآن تحت هذه القوة العمياء؟» (ص ٢٨)؛ «... بيني وبين الموت قيد شعرة. أهو موعده قد حان؟ لو أنّي أقوم، وأبتلع صيدليّة المنزل فأسقط جثّة هامدة» (ص ٥٥)؛ «... قد أنتحر بأن ألقي بنفسي من الطابق العاشر كما فعل جاري البدين منذُ بضعة أيام» (ص ٥٧)؛ «أيُّ سبيل إلى الموت المريح؟ لو أيقنتُ أنّ موتي سيستنزفني قبل محوي لداهمتُه قبل أن يُداهمني، لتناولت دفعة واحدة كميّة هائلة من عقاقير ما تكاد تبلغ الحنجرة حتّى تنيمني وتميتني» (ص ٥٨)؛ «كيف أنتحر؟» (ص ٦٤)؛ «انتحار الطّفل الزّبير» (ص ٧٣)؛ «قلت: يا لغباوتي! لماذا اخترت هذه الطريقة «المتوحشة» في إخراج موتي؟ الآن فقط أدرك أنّ أحسن طريقة يملكها المرء لصُنع موته هي أن يتناول أكياس أقراص» (ص ٨٤)؛ «... ثم استمسكتُ ووثبت يدي على

---

(١) المرجع نفسه، ص ٥٣.
(٢) خليل الشيخ، الانتحار في الأدب العربيّ، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، ١٩٩٧.
(٣) محمد أسليم، حديث الجثّة، منشورات مجلة «علامات»، مكناس، ١٩٩٦.

السطح بقوة وسحبتهما مُلقيـاً بنفسي في الخواء» (ص ٨٧)؛ «أتمنّى لو تنبت لي أجنحة بالسرعة ذاتها فأطير» (ص ٨٨).

ويقدّم المنفلوطي رؤية أخلاقيّة خالصةً للانتحار، إذ يقول في كتابه «النظرات»:

«إنّ الرجل المؤمنَ يعتقد، ولا شكّ، بسوء عاقبة المُنتحر، فكيف هان عليه، وهو في آخر يوم من أيّام حياته، أن يضمّ إلى خسارة دنياه خسارة آخرته، وهي العزاء الباقي له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء وعناء؟»[1].

ويقرّر هذا الكاتب الأديب أنّ «الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجُبن والخور، وما يصل إليه العقل من الاضطراب والخبل، وأحسب أنّ الإنسان لا يُقدِم على الانتحار، وفي رأسه ذرّة من العقل والشعور».

وممّا قاله المنفلوطي: «.. والمُنتحر يبغض نفسه أشدَّ ممّا يبغض العدو عدوّه، فهو شاذٌ بطبيعته، غريبٌ في خلقه، معاندٌ لإرادة الله تعالى في بقاء الكون وعنوانه، ومَن كان هذا شأنه كان بلا قلب ولا عقل.

وبوضوح شديدٍ يرى المنفلوطي أنّه «ما سمّي القاتل مجرمـاً إلا لأنّه قاسي القلب متحجّر الفؤاد، وأقسى منه قاتِلُ نفسه؛ لأنّه ليس بينه وبينها من الضغينة والمَوجِدة ما بين القاتل والمقتول، فهو أكبر المُجرمين، وأقسى القاتلين»[2].

ويطرح صاحب «النظرات» رؤيته ومنطقه في هذه المسألة، مُوضِّحـاً أنّه «يخدع المُنتحر نفسه إن ظنّ أنّه مقتنع بفضل الموت على الحياة، وأنّه إنّما يفعل فعلته عن رويّةٍ وبصيرة، فإنّه لا يكاد يضع قدمه في المَأزِق الأوّل من مآزق الموت حتّى يثوب إلى رُشده وهُداه ويحاول التخلّص ممّا وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلًا.

«إن ألقى نفسَه في الماء تخبَّط، وبسط يده إلى من يرجو الخلاص على يده، ووَدَّ لو يفتدي نفسه بكلّ ما تملك يمينه، وإن حبس نفسه في غرفته ليموت مختنقـاً بالغاز ودَّ لو سقط عليه سقف الغرفة ليستنشق نسمة من نسمات الهواء، ولو عاش بعد ذلك كسيرَ اليد والرجل، فاسد السّمع والبصر»[3].

(١) مصطفى لطفي المنفلوطيّ، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٥٢.
(٢) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٥٣ - ١٥٤.
(٣) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٥٤.

ويضيف قائلًا: «إنّ فكرة الانتحار نزعة من نزذعات الشيطان، وخطرة من خطرات النفس الشرِّيرة، فمن حدَّثته نفسه بقتل نفسه، فليتريث ريثما يتبيّن كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت، وآلام النَّزع، وماذا يكون حديث الناس عنه بعد موته، وهل يمكن أن يكون بينهم عاذرٌ له أو مشفِقٌ عليه، أو مقتصد في النيل منه والسخريّة به؟ وليعرض على مخيّلته قبل ذلك أشكال العذاب وأنواع العقاب التي أعدّها الله في الدار الآخرة لأمثاله.

«إنّي لا أظنّه بعد ذلك فاعلًا، إلّا إذا كان وحشـًا في ثوب إنسان، أو بطلًا من أبطال المارستان»[1].

أمّا الكاتبة اللبنانيّة ياسمين خلاط ـ المولودة في مصر ـ فقد كتبت رواية بعنوان «ستقول لي عند المغيب»[2]، يقع الانتحار في صُلب أحداثها. القصة التي تسردها خلاط في هذه الرواية يمكن تلخيصُها على النحو الآتي: شابة فرنسيّة تُدعى كلير تقرّر السفر إلى شرقنا لوضع نفسها في خدمة عالمة اجتماع تُدعى أورتانس زيمينا وتعيش في دير للعمل على موضوع الانتحار وكشف أسباب تواتره أحيانـًا داخل عائلةٍ واحدة. وبسرعة، تهتمّ كلير بهذا الموضوع إلى حدٍّ تقوم فيه بحضّ أورتانس على الإسراع في معالجته من منطلق الخطر الذي يتهدّد أحد أفراد هذه العائلة، إن صحّت النظريّة المطروحة. وبعد محاولاتٍ دؤوبة في هذا الاتجاه، تلاحظ كلير تهرّب أورتانس من إنجاز مهمتها، قبل أن ينكشف لها انتماء هذه الأخيرة إلى العائلة المهدَّدة ورغبتها في توكيل هذه المهمة إليها.. قبل انتحارها.

وقد يخيب أمل القارئ الذي ينتظر معالجة مباشرة لموضوع الانتحار وتفاصيل مثيرة حوله. فعلى هذا المستوى تَعمَدُ الروائيّة إلى مقاربة تتجنّب فيها التحليل السيكولوجيّ لمصلحة تشييد بارع للمناخ الذي يقود إلى الانتحار بواسطة جُملٍ شعريّة قويّة.

في الدّراما أيضـًا، كان الانتحار بطلًا.

بداية، سنجد عددًا لا يُستهانُ به من الأفلام العربيّة يحمل في طيّاته كلمة «انتحار»،

(١) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٥٤.

(٢) ياسمين خلاط، ستقول لي عند المغيب، دار المجلة الفينيقيّة، بيروت، ٢٠١٠.

مثل «انتحار صاحب الشقة» (١٩٨٦) إخراج أحمد يحيى وبطولة نبيلة عبيد وكمال الشناوي، و«انتحار مدرس ثانويّ» (١٩٨٩) إخراج ناصر حسين وبطولة حسين فهمي، وإحسان القلعاوي وهياتم وعفاف شعيب، و«قبل الوصول لسنّ الانتحار» (١٩٨٨) إخراج شفيق شامية وبطولة شكري سرحان وكمال يس وفايزة كمال.

في رائعة نجيب محفوظ «بداية ونهاية» التي تحولّت إلى عمل سينمائيّ، كان الشرّ هو الاغتصاب المؤدّي إلى الانتحار، حيث يأخذنا المخرج الكبير صلاح أبو سيف الذي كان عاشقـًا لملامح صلاح منصور إلى «نفيسة» العانس ـ التي جسّدت سناء جميل دورها ببراعة ـ تقع في الخطيئة مع صلاح منصور. وما إن يكشف شقيقها أمرها حتّى يسارع إلى اصطحابها إلى النيل لتنتحر وينتحر هو أيضًا.

وفي فيلم «زوجة رجل مُهمّ» (١٩٨٨)، ينتحر الضابط القاسي (أحمد زكي) برصاصة في الرأس، بعد أن يقتل والد زوجته (ميرفت أمين) برصاصة من مسدسه. مشهد مؤثّر أداره المخرج محمد خان باقتدار ليضعنا أمام نهاية لا تخلو من دلالة لسطوة الأمن وعجزها لحظة الحقيقة.

في فيلم «يوم مُرّ ويوم حلو» (١٩٨٨) إخراج خيري بشارة وبطولة فاتن حمامة ومحمد منير وعبلة كامل وسيمون، نتابع حكاية عائشة، الأرملة تُوفّي زوجها وترك لها خمسة أطفال. سناء وسعاد ولمياء وأسماء ونور. تتزوّج الابنة الكبرى سناء من عرابي النجار العائد من الخليج. لا يتكفل عرابي بشيء ولأنّ الأم تريد ستر بناتها فإنّها توافق على عيشه معهم في غرفة داخل الشقة، لكنّه يتصرّف كأنّه صاحب البيت وتطفح عليه شخصيّته المُنحرفة بلعب القمار وتدخين المخدّرات في البيت، ثم يتحرّش بالابنة الثالثة لمياء ويُقيم معها عَلاقة آثمة. وعندما تكتشف زوجته الحقيقة تُقدّم الشقيقة على الانتحار بحرق نفسها.

الانتحار هنا خوفٌ من الفضيحة وشعورٌ مُتعاظم بالذنب.

في فيلم «بئر الخيانة» (١٩٨٧) إخراج علي عبدالخالق وبطولة نور الشّريف وعزّت العلايلي، تدور أحداث الفيلم في إطار ملفّات المُخابرات المصريّة حول جابر عبدالغفار علي، العامل في ميناء الإسكندريّة الذي يعيش حياته من سرقة البضائع في الميناء، ويحاول جاهدًا استرضاء زوجته غزالة. غير أنّ الأمور تضيق به بعد القبض

عليه وترحيله لأداء الخدمة العسكريّة، فيقرّر الهروب من الجيش وبعدها إلى إيطاليا. ذات يوم يدخل السفارة الإسرائيليّة بحثـاً عن عمل، لتصطاده المخابرات الإسرائيليّة وتبدأ في تجنيده، إلى أن يسقط ويفتضح أمره. في النهاية، ينتحر جابر فيقول العقيد نادر لاشين عنه إنّه «عاش خاين ومات كافر».

وفي مسلسل «الخواجة عبد القادر» بطولة يحيى الفخراني وسوسن بدر ومحمود الجندي، تستوقفنا محاولة انتحار «الخواجة». ففي الحلقة الثالثة من المسلسل (تأليف عبد الرحيم كمال، وإخراج شادي الفخراني) نتابع كيف تسيطر الرغبة في الموت على الخواجة عبدالقادر، ممّا يدفعه إلى محاولة الانتحار، لكن الخادم الأسمر فضل الله ينقذه في اللّحظة الأخيرة. ويغضب الخواجة عبدالقادر من فضل الله لأنّه أنقذ حياته، لكنّه لا يخفي إعجابه بهذا الخادم لأنّه صريح[1].

وفي عام ٢٠١١، أقفلت بعض المسلسلات الدراميّة السوريّة، في خواتيم قصصها الاجتماعيّة، على فكرة انتحار بعض شخصياتها السلبيّة حلّا نهائيـاً لمأساة هذه الشخصيات التائهة، للتخلُّص من عبء وجودها الاجتماعيّ الخارج عن أخلاقيّات الجماعة البشريّة. أمّا الإقدام على الانتحار في مسلسلات أخرى، فكان لإنعاش الشخصية أساسـاً، وإعادتها إلى الحياة، في حين كان تناول الانتحار كوميديـاً يؤدّي وظيفة السخريّة من المجتمع.

ففي مسلسل «العشق الحرام»، لمُؤلِّفه بشار بطرس ومخرجه تامر إسحاق، يختار الأب الخارج عن فلسفة المجتمع الأخلاقيّة ـ الذي لعب دوره عبّاس نوري ـ الانتحار نهايةً تراجيديّة، بعد أن اصطدمت نزواته بالضوابط الاجتماعيّة.

ولا يبتعد سامر رضوان كاتب هذه مسلسل «الولادة من الخاصرة» (إخراج رشا شربتجي) عن فكرة الانتحار للقضاء على «واصل»، الذي يجسّد دوره سلوم حدّاد. وهو رجلُ أعمالٍ ثريٍّ يملك معملًا للأقمشة. وعلى الرغم من أنَّ «واصل» رجل متسامح في بعده الإنسانيّ، فإنّه يعاني عذابـاً نفسيـاً، وشعورًا بالذنب، ممّا أودّى به إلى اقتراف فعل الانتحار، فيرمي بنفسه من مكان مرتفع، وينهي حياته.

---

(١) سما أشرف، الخواجة عبدالقادر يحاول الانتحار في الحلقة الثّالثة، موقع «البديل»، ٢٣ يوليو ٢٠١٢.

وفي مسلسل «الغفران» للكاتب حسن سامي يوسف والمخرج حاتم علي، تُقدِم «وفاء» على الانتحار، بعد أن كسر «محمود» قلبها وفكّ ارتباطه ومشروعه بالزواج منها. وهنا فكرة الإقدام على الانتحار، بابتلاع كميّة من حبوب الأسبرين، تودي بها إلى المستشفى، حيث يتمّ إسعافها من قبل أخويها، وبالتالي إسعاف الكاتب في خدمة فكرته الجوهريّة في المسلسل، وهي «الغفران».

وتناولت سلسلة «بقعة ضوء» الكوميديّة (للمخرج عامر فهد، والتي كتب لوحاتها مجموعة من المؤلّفين، تحت إشراف مازن طه) فكرة الانتحار في إحدى لوحاتها. وكانت الفكرة في جوهرها بعيدةً بطبيعتها عن التراجيديا؛ إذ تقوم على إقدام شابّين، لم يجدا عملاً، على رمي أنفسهما من أعلى جبل قاسيون، ولكن بقالب كوميدي يرمز إلى شقاء جيل واسع من الشباب في بحثه عن فرص العمل. وبغض النظر عن الطريقة الساخرة في اختيار الشابّين لكتابة الوصيّة قبل مماتهما (وهي أشبه ببيان صحفي يُعلنان فيه عن رفضهما لحياتهما القاسية). وبرغم أنّهما مقبلان على الموت، فإنَّ صياغة الوصيّة مليئة بالخوف من البوح بكلماتٍ لا يرضى عنها رجال الأمن[1].

---

(١) عبدالحسيب زيني، الانتحار في الدّراما.. تُخاطر بين المؤلّفين وحلول حتميّة للخلاص من الشخصيّة، جريدة «بلدنا»، دمشق، ٦ سبتمبر ٢٠١١.

إزهاقُ النّفس.. زمان

«لقد عشنا مع الخوف حتّى بتنا نخاف من أنفسنا»[1]

إنّه الموت، تاريخنا الخفي!

وفي مصر، عاش المصريون زمنـًا قاسيًا ومُؤلمًا، كأنّه صورة مُستعادة من الأدب المصريّ القديم الذي يشكو فيه أحدهم من أنّ «كل امرئ ينشل رفيقه، ويشتهي مُلك جاره»، و«الإثم غالبٌ على الأرض، ولا يبدو له ثمة نهاية»[2].

مشهدٌ مهَّد الطريق لانتشار مُتزايد لظاهرة الانتحار.

وفي مصر، ولعقودٍ طويلة، اهتزّت ثقة المصريين بكلّ شيء، وفقدوا مناعةً اكتسبوها بحضارتهم العريقة وثقافتهم العميقة وإيمانهم القويّ.

ومن المؤكّد أنّ الزيادة المطّردة في أعداد المُنتحرين تتناقض مع ما هو شائع عن المصريين من تديُّن، ما يشي بغلبة المسائل المظهريّة على تديّن البعض وعدم تمكُّنه من القلوب. ويبدو أنّه في ظلّ الضغوط والإحباط، والاستسلام لليأس، تنامت فكرة

(١) د. نعمات أحمد فؤاد، شخصيّة مصر، سلسلة «الثورة.. والحريّة»، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، ٢٠١١ ص ٣٠٥.

(٢) Erman, Adolf, Ancient Egyptian Literature: A Collection of Poems, Narratives and Man - als of Instructions from the Third and Second Millennia BC, translated by Aylward M. Blackman, New York, Kegan Paul, 2005.

الخلاص بالانتحار. واقع فرض تساؤلًا منطقيـًا: ماذا حدث لشعب دياناته مستقرّ فيها إيمان راسخ بالله وبحُرمة قتل النفس؟!

هل ثقُلت خيبتُنا لهذه الدّرجة أم لم يعد لدينا ظهورٌ تَحمِلُها؟!

والمُعتقد أنّ الموقف من الانتحار في مصر القديمة كان موقفـًا محايدًا، أي لا يحبذّ الانتحار ولا يرفضه. وذلك بالقدر نفسه الذي كان المجتمع في مصر القديمة ينظر إلى الانتحار نظرته نفسها إلى الموت، أي باعتباره انتقالًا نحو مرحلة أخرى أسعد من الحياة، وتمثل هروبـًا من مصاعب الحياة الرّاهنة. بل يذكر المؤرّخون أنّه كان مسموحـًا في مصر القديمة لمن تلقى حكمـًا بالإعدام أن يقتل نفسه بنفسه بدلًا من انتظار لحظة إعدامه. وقد اعتاد قدماء المصريين أن يقدّموا أجمل فتاة لديهم كلّ عام هدية للنيل يلقونها فيه فتموت غرقـًا حتّى يجود النيل بخيره عليهم.

في تاريخنا المُعاصر، نرصد حالاتِ انتحار في عصر محمّد علي باشا نتيجة سلسلة التحوّلات الاقتصاديّة والاجتماعيّة خلال النّصف الأوّل من القرن التاسع عشر. وكان لنقص مياه الفيضان في أعوام ١٨٢٤ و١٨٢٥ و١٨٣٣ أثرٌ في خراب بعض القرى بسبب الجدب الذي أصابها، الأمر الذي أدّى إلى تكرار حالات انتحار المزارعين.

وخير مثالٍ على الضغوط الماليّة والاقتصاديّة ما حدث في بعض بلاد تابعة لسنورس بالفيوم، عندما فشل ناظر سنورس في تحصيل المبالغ المقسطة على الأهالي، ولم يجد مفرًّا فَأَقدَم على شنق نفسه وأُحيلت هذه البلاد إلى الجفالك[١].

وفي قضيّة انتحار عبدٍ لأحد مشايخ القرى بواسطة إطلاق النار على نفسه في عام ١٨٦٣، حكم مجلس بنها على سيده الشيخ بالحبس ستة أشهرٍ؛ لأنّه «من المشايخ ويعلم منع حمل الأسلحة لمثل هذا العبد وهو أغمض العين وأباح له حمل السلاح»، كما حكم بمصادرة الطبنجة. غير أنّ مضبطة مجلس الأحكام الصادرة في يونيو من ذلك العام لم تعتمد ذلك الحكم، وبرّر مجلس الأحكام ذلك بأن «حمل السلاح لم

---

(١) محفظة ١٢٥ أبحاث وثيقة في ١٥ من جمادى الأولى ١٢٥٢ هـ/ ٢٨ أغسطس ١٨٣٦ م؛ في: الدولة والمجتمع في مصر في القرن التاسع عشر، د. زين العابدين شمس الدين نجم، دار الكتب والوثائق القوميّة، مركز تاريخ مصر المعاصر، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٢٢٥.

يكن ممنوعـاً الآن خصوصـاً، وكون العبد في سن الأرشديّة حيث عمره ثلاثون سنة ويعرف ما ينفعه وما يضرّه فاستصوب صرف النظر عن مجازاة سيده. كما أنّ الفردة الطبنجة تعلق عبده تُرَد له إذ هو الوارث له»[1].

وتحفل الصحف والدوريّات المختلفة قبل عقود طويلة بنماذج لمثل هذه الحوادث. كما أنّ وقوعها لفت انتباه كاتب وأديب شهير مثل مصطفى لطفي المنفلوطي (١٨٧٦- ١٩٢٤)، حتّى إنّه تحدّث عن حالات بعينها والظاهرة بشكل عامّ في كتابه «النظرات» (١٩٠٩)، الذي ضمّ ما كان ينشره في جريدة «المؤيّد» من مقالات أسبوعيّة منذ عام ١٩٠٧.

وفي مقالة بعنوان «الانتحار» يقول المنفلوطي إنّه «في كل موسم من مواسم الامتحان المدرسيّ نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المُتخلّفين من التلاميذ والرّاسبين، ولو رُبِّي التلميذُ تربية دينيّة لمّا هان عليه أن يخسر سعادته الأُخرويّة خسرانـاً مبينـاً أسفـاً على أنّه لم ينل كل حظّه من السعادة الدنيويّة، ولو رُبِّي تربية أدبيّة لما احتقر حياته الثمينة وازدراها ولوى وجهه عنها لأنّها لم تقدّم إليه في لفافة الشهادة المدرسيّة»[2].

وفي مقالة أخرى تحمل العنوان نفسه، يقول المنفلوطي: «قرأت في بعض الصحف أن رجلًا من تجّار المسلمين انتحر لا لضيق يد، أو شدّة مرض، أو بؤس حال، بل لأنّه حزن على وفاة صديقٍ فقتل نفسه»[3].

وتحت عنوان «على سرير الموت»، يحكي المنفلوطي عن شابٍّ مُنتحر، قرّر الطبيب بعد فحصه أنّه تناول مادّة الزرنيخ. يقول المنفلوطي إنّه وجد حول سرير الشابّ أوراقـاً منثورة فجمعها ووضعها في محفظته من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب بما فعل. يتبيّن له لاحقـاً أنّها خواطر عاشق يحكي عن حبيبته إلى أن يفجع برحيلها يقول: «ماتت الفتاة التي كانت ملء الدنيا جمالًا وبهاء، فمات بموتها كلّ حيّ

---

(١) مجلس الأحكام، س٧/ ١٠١٤/ ، ص ٣٠، ض٥٦٤، في غرّة محرم ١٢٨٠ هـ/ ١٨ يونيو ١٨٦٣؛ في : د. عماد هلال، الفلاح والسّلطة والقانون.. مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دار الكتب والوثائق القوميّة، مركز تاريخ مصر المعاصر، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٨٩.

(٢) مصطفى لطفي المنفلوطي، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٧.

(٣) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٥٢.

في هذا الوجود»، ثم يختم قائلاً: «ويَا أَيُّتها النفس الهائمة في سمائها، لا تجزعي ولا تعجلي، فوالله لأفينَّ بعهدك ولأذهبنَّ عمّا قليل وحشتك ليكوننَّ عهدنا في مستقبلنا كعهدنا في ماضينا، فما تعارفنا في العالم الأول إلا بأرواحنا فلنكن كذلك في العالم الثاني»[1].

ثلاثة نماذج للانتحار في مطلع القرن العشرين، يعزوها كاتبها إلى الفشل الدراسي، وخسارة عزيز، والانكسار العاطفي.

وفي الغالب الأعمّ، كانت جرائم الانتحار التي جرى تسجيلها في ذلك الزمان، نتيجة اضطرابات عصبيّة وضغوط نفسيّة، أو نتيجة إدمان المخدّرات والمُسكرات، والضيق الماليّ، وسوء المعاملة، والتخلّص من مرض ما. ومن ذلك، نطالع خبر انتحار موريس سمعان «في مكتبه شنقـاً، ليتخلّص من مرض «الدوسنتاريا» الذي لم يقو على احتماله»[2].

ومن الجرائم التي هزّت المجتمع المصريّ في عشرينيّات القرن العشرين، تلك التي كان بطلها تاجر غلال يُدعى عبدالعزيز عاشور، كان قد جمع ثروة طائلة قبل أن يدمن القمار وارتياد الأماكن المُثيرة للشُّبهات، فبدّد ما كان يمتلكه وامتدّت يداه إلى ما أموال زوجته حتّى أتى على آخرها. ووسوست له نفسه أن يقتل زوجته وبناته الثلاث قبل أن يقتل نفسه. وفي منتصف ليلة ٢٤ نوفمبر ١٩٢٧ «قام كالوحش الضاري فذبح ابنتيه ذبحـاً وألقى جثتيهما بجوار مرحاض المنزل. وكانت ابنته الكبرى نائمة خارجـاً مع والدتها، فعرجت على منزل أبيها فوجدته بحالةٍ راعبة. وأمرها في غلظة وجنون أن تذهب وحدها إلى المدرسة فذهبت، وذهب هو مذعورًا إلى بندر البوليس وأبلغ المأمور أنّه عاد إلى منزله فوجد ابنتيه مذبوحتين وأنّ الحزن اشتدّ به فألقى بنفسه في النيل، ثم خرج وجاء يبلغ أمر هذه الجناية»[3].

غير أنّ المُحققين ضيّقوا عليه الخناق، وخاصةً بعد العثور على أداة الجريمة وآثار دماء على ملابسه التي حاول غسلها، فاعترف وألقي به في السجن لينال عقابه.

---

(١) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٢٣١.

(٢) مجلة «المصور»، القاهرة، ٢٦ أبريل ١٩٢٩، ص ٤.

(٣) مجلة «اللطائف المصورة»، القاهرة، ٥ ديسمبر ١٩٢٧، ص ١-٤.

وفي فترة الكساد العالميّ التي كانت لها تداعياتها على مصر، انتشرت حوادث الانتحار، فمثلًا ربّ البيت الذي لا يجد ما يكفيه وعائلته ولم يستطع فعل شيء كان يستسلم وينتحر، ولهذا ارتفعت نسبة حوادث الانتحار وعلى الأخصّ بين الطبقة الفقيرة الأكثر تعرضـًا من غيرها لآثار الأزمة. فقد «شنق شخص نفسه بحبل يُدعى الشيخ أحمد حسن من كفر علي آغا بطنطا لضيق ذات يده»[1].

ومن أرقام حوادث الانتحار نتبيّن أنّ حِدّة الأزمة كانت في عامي ١٩٣١ و١٩٣٢، إذ وصلت حوادث الانتحار في تلك الفترة إلى أعلى نسبة بالمِقارنة بإجمالي حوادث الانتحار خلال الفترة بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٣ [2].

غير أنّ جرائم الانتحار كانت معروفة أيضـًا في مطلع القرن العشرين.

فقد شرب أحد مستخدمي مصلحة التلغرافات قدرًا من حمض الفينيك، لضيق ذات اليد، فلفظ أنفاسه[3]. كما شنق أحد مستخدمي المجلس البلدي نفسه، نتيجة لتراكم ديونه، والحجز على ممتلكاته[4].

في عام ١٩٢٩ وحده، سجلت في المدن المصريّة الكبرى ١٠٥ حوادث انتحار، ذهبت أكثرها بأرواح شبّان بين العشرين والأربعين من العمر، كما يتّضح من البيان التالي:

من سنّ ١٠ إلى ١٩ سنة: ١٨ حادثة

من سنّ ٢٠ إلى ٢٩ سنة: ٢٦ حادثة

من سنّ ٣٠ إلى ٣٩ سنة: ٢٢ حادثة

من سنّ ٤٠ إلى ٤٩ سنة: ١٤ حادثة

من سنّ ٥٠ إلى ٥٩ سنة: ١٦ حادثة

---

(١) جريدة «الأهرام»، القاهرة، ١٦ سبتمبر ١٩١٤.
(٢) كريمة حسن، الكساد ضرب أمريكا عام ١٩٢٩ فأفلست بنوك وتجار مصر في الثلاثينيات، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٣١ أكتوبر ٢٠٠٨.
(٣) جريدة «المقطم»، القاهرة، ٥ سبتمبر ١٩٠٠، ص ٢.
(٤) جريدة «المقطم»، القاهرة، ٧ نوفمبر ١٩٠٠، ص ٢.

من سنّ ٦٠ إلى ٦٩ سنة: ٤ حوادث

من سنّ ٧٠ فما فوق: ٥ حوادث

من ناحية الجنس، كان ضحايا تلك الحوادث ٧٦ رجلاً و٢٩ امرأة.. والفرق في الأرقام واضح!

لجأ المنتحرون في العام المذكور إلى التخلص من حياتهم بوسائل مختلفة، أبرزها الشنق والخنق، والسقوط من مكان مرتفع، وإطلاق النار، وتعاطي السموم، واستعمال آلات حادة، والغرق والدهس[١].

وفي ظل انتشار الظاهرة في عام ١٩٢٩، استطلعت مجلة «كلّ شيء والعالم» آراء كل من الدكتور منصور فهمي أستاذ الفلسفة في الجامعة المصريّة، والدكتور زكي حفني الذي وصفته المجلة بأنّه «من أبرع أطباء وزارة المعارف وهو ضليع في البسيكولوجيا وله آراء قيمة في التربية العقليّة»، وعبدالله فكري أباظة مدير شركة مصر للملاحة ورئيس نادي التجارة العُليا.

د. منصور فهمي قال بوضوح: «ميدان المكافحة يجب أن يكون في المدارس؛ لأنّ المُنتحرين معظمهم من الطلبة والشبّان.. وعلى أولياء الأمور أن يؤدّوا واجبهم في المكافحة، كأن يُمعنوا في التحدّث عن فضائل الصبر والجلد دون أن ينفكوا عن استخدام الوسائل التي تُقوّي الإرادة».. «هذا فيما يتعلّق بالتلاميذ والطلبة، أمّا فيما يتعلّق ببقيّة الأفراد فإنّي أنصح للجمعيّات القائمة من الجنسيّات أن تبث بين أفرادها روحـاً جديدة بحيث يصير أعضاؤها نماذج وقدوة للناس في استقبال الشدائد بابتسام الهازئ.. وللمحاضرات وطرق الدعاية أثرُها.. وللصّحافة عليها واجبٌ محتومٌ قبل الذين فطروا على استعداد للتخلّص من حياتهم»[٢].

أما د. زكي حفني فقال: «وعندي أن خير طريقة لمكافحة الانتحار هي فحص التلاميذ والطلبة فحصـاً طبيـاً بسيكولوجيـاً، ثم العناية بالفريق المذكور عناية خاصة،

---

(١) يجب أن ننقذ ١٠٠ نفس من الموت، مجلة «كل شيء والعالم»، القاهرة، ٢١ ديسمبر ١٩٣٢، ص ٨ - ٩.

(٢) المصدر نفسه.

ولكن يجب أن نضع نصب أعيننا أنّ الإرادة والأعصاب قد يدركهما بعد المدرسة نوع من الاضطراب أو الانحلال. ومن أجل ذلك أنصح للأهل والأصدقاء وأنصح للمصابين بضعف في الإرادة أن يتعاونوا على شفاء الضحايا من دائهم قبل استفحاله، فليذهب إلى الطبيب من كان هذا شأنه، وليقدم المقربون من الصحب والعشيرة ما يطيب الخاطر ويبعث على التفاؤل».

«بهذا تقِلّ حوادث الانتحار أوّلًا، ثم يمكن استئصالها فيما بعد. فلنتخذ هذه الخطوة ولنفكر فيما يليها، إذ الاقتراحات لا فائدة منها. الفائدة كل الفائدة في الأعمال»[١].

من جهته، قال عبدالله فكري أباظة إن «بعض حوادث الانتحار تتسبب من العطل والخسائر المفاجئة، والأزمات التي ليست في الحُسبان تقوي الميل في الانتحار.. لكن الذين ينتحرون لهذه الأسباب لا بُدّ أن يكونوا من العصبيّين غير المُجرّبين؛ لأنّ الرجل القويّ الأعصاب لا تُؤثّر فيه الصدمات، والذي يُجرب تكسبه التجارب مرانـًا على احتمال الشدائد وتُعطيه الثبات».

«.. إنّي لا أميل إلى الاعتقاد بأنّ جميع المُنتحرين يقضون على حياتهم لأسباب اقتصاديّة، وشاهدي على صحة قولي: إنّ الانتحار يكثر بين الطلبة، وهؤلاء أبعد الناس عن الكسب والربح والطمع في الغنى..».

ويفاجئنا عبدالله فكري أباظة برأي غريب، إذ يقول «إنّ الطريقة المثلى لمكافحة الانتحار هي عدم نشر حوادث الانتحار في الصحف، فأنا على يقين من أنّ للإيحاء والاحتذاء أثرًا كبيرًا في ازدياد الانتحار أخيرًا.. هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى يجب علينا أن نُغيّر الوسط الذي نقضي أوقاتنا فيه، وطريقة ذلك سهلة، هي أنّ نُضرب عن الجلوس في القهوات وأن يلزم الموظّفون منازلهم بعد الانصراف من الدواوين»[٢].

هكذا كان الانتحار الشغل الشاغل لكثيرين في مصر قبل نحو قرن من الزمان.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

فما أشبه الليلة بالبارحة!

والشاهد أنّ مُعدّلات الانتحار والشروع فيه سجلت تزايدًا مطردًا في مصر خلال الفترة بين عامي ١٩٤٨-١٩٦٠. ففي عام ١٩٤٨، سجلت ١٩٣ حالة انتحار و٢٠٧ محاولات انتحار شروع فيه، ثم ارتفع الرقم عام ١٩٤٩ إلى ٢٢٦ حالة انتحار و١٦٨ محاولة. وفي ١٩٥٠، تم تسجيل ٢٢١ حالة انتحار و١٦٤ محاولة، مقابل ٢٤٠ حالة انتحار و١٧٥ محاولة عام ١٩٥١، و٣٤٧ حالة انتحار ٣٥٠ محاولة عام ١٩٥٢.

في السنوات التالية، سجلت ٣٦٣ حالة انتحار و٢٦٩ محاولة (١٩٥٣)، و٢٦٩ حالة انتحار و٣٤٠ محاولة (١٩٥٤)، و٢٢٩ حالة انتحار و٢٢٩ محاولة (١٩٥٥)، و١٩٠ حالة انتحار و١٦٠ محاولة (١٩٥٦)، و٢٢٠ حالة انتحار و١٦٤ محاولة (١٩٥٧)، و٢٢٠ حالة انتحار و١٩٠ محاولة (١٩٥٨)، و١٦٨ حالة انتحار و١٠٦ محاولات (١٩٥٩)، و٢٢٥ حالة انتحار و٩٠ محاولة (١٩٦٠)[١].

وفي دراسة نادرة لحوادث الانتحار في مصر، قدّم مكرم سمعان في كتابه «مشكلة الانتحار» دراسة رصينة تشتمل عيّنة البحث فيها جميع الحالات التي سجلت رسميًّا في نيابات القاهرة الجزئيّة والكليّة انتحارًا وشروعًا في الانتحار. اقتصر نطاق البحث المكانيّ على مدينة القاهرة، العاصمة وكبرى مدن مصر، خاصة أن نسبة الانتحار والشروع فيها لكلّ ١٠٠ ألف من السكان في السّنوات التي سبقت إجراء البحث، كانت تبلغ في القاهرة وحدها أكثر من ثلاثة أمثال النسبة في المجتمع المصريّ كلّه[٢]. وتحدّد المدى الزمنيّ للبحث المذكور بفترة سنة كاملة ابتدأت من أول يناير ١٩٥٩ وانتهت في آخر ديسمبر سنة ١٩٥٩.

ونستقرئ من الإحصاء القضائيّ السنويّ عام ١٩٥٩، أنّ الأسباب الدافعة إلى الانتحار والشروع فيه بالقاهرة ١٩٥٩ كما يلي:

---

(١) مكرم سمعان، مرجع سابق، ص ٤١-٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ١١٩.

الأسباب	الشروع	الانتحار
كارثة ماليّة	٣	٢
مرض	١٧	٤
شقاق عائليّ	٥	-
فاقة وبؤس	١٠	١٢
رسوب في امتحان	٢	-
سوء معاملة أهل	١	٣
خشية العار	٦	١
شقاق زوجي	٥	١
أسباب غراميّة	٣	٢
حزن	٤	٣
أسباب أخرى	١٨	١٦
المجموع(١)	٧٤	٤٤

ومن التوزيع المقارن لوقائع الانتحار والشروع فيه في أقسام محافظة القاهرة عام ١٩٥٩ حسب مكان تنفيذ محاولة الانتحار، طبقـًا لإحصاءات كلٍ من قسم الإحصاء بمديريّة الأمن العام في محافظة القاهرة، والإحصاء القضائيّ السنويِّ الذي تصدره وزارة العدل، والبحث الذي أجراه الباحث مكرم سمعان، يتبيّن لنا أنّ قسم قصر النيل شهد أعلى معدلات الانتحار (٧ حالات وَفق الأمن و١٤ وَفق الإحصاء القضائيّ و١٣ وَفق البحث)، يليه قسم الجديدة (١١ حالة وَفق كل من الإحصاء القضائيّ والأمن و٨ وفق البحث)، ثم أقسام عابدين (٣ حالات وَفق الأمن و٥ وَفق الإحصاء القضائيّ و٦ وَفق البحث)، وشبرا (٤ حالات وَفق الأمن و٦ وَفق الإحصاء القضائيّ و٤ وَفق البحث)،

(١) المرجع نفسه، ص ١٢٢.

وباب الشعريّة (٣ حالات وَفق الأمن و٩ وَفق الإحصاء القضائيّ و٤ وَفق البحث)، والأزبكيّة (٨ حالات وَفق الأمن و٣ وَفق الإحصاء القضائيّ و٤ وَفق البحث)، والدرب الأحمر (٣ حالات وَفق الإحصاء القضائيّ و٤ حالات وَفق البحث)[١].

أمّا الشروع في الانتحار، فقد سجّل قسم مصر الجديدة أعلى المعدلات مرةً أخرى (٩ حالات وَفق الأمن و٦ وَفق الإحصاء القضائيّ و٨ وَفق البحث)، وتلاه قسم السيدة زينب (٨ حالات وَفق الأمن و٥ وَفق الإحصاء القضائيّ و٥ وَفق البحث)، ثم قسم بولاق (٥ حالات وَفق الأمن والإحصاء القضائيّ والبحث)، وقسم الجماليّة (٥ حالات وَفق الأمن و٣ وَفق الإحصاء القضائيّ و٤ وَفق البحث)[٢].

وفي هذا البحث، اتّضح أنّ ١ , ١٢٪ من المشمولين في حالات الانتحار والشروع فيه كانوا يعانون أمراضـًا جسميّة، مقابل ٧ , ١٩ كانوا مصابين بأمراض عقليّة ونفسيّة، و٢ , ٦٨٪ لا يعانون أيّ أمراض.

بلغ مجموع الذين حاولوا الانتحار في فترة البحث (عام ١٩٥٩) ١١٧ شخصـًا، ينقسمون إلى مجموعتين؛ مجموعة المُنتحرين وقد بلغ عددهم ٦٦ شخصـًا (٦٤ , ٥٦٪ من المجموعة كلّها) ومجموعة الذين شرعوا في الانتحار وعددهم ٥١ شخصـًا (٦ , ٤٣٪ من المجموعة كلّها).

في المجموعة الأخيرة، أيّ من شرعوا في الانتحار لكن محاولاتهم باءت بالفشل، تبيّن أنّه من ناحية التوزيع الزمنيّ فإنّ شهر يونيو شهد أعلى المعدلات (٦٩ , ١٥٪) تلاه إبريل (٧٣ , ١٣٪)، ومن حيثُ السّن والنّوع فقد كانت الغالبيّة ذكورًا (٤ , ٨٠٪) مقابل ٦ , ١٩٪ من الإناث، وسجّلت أعلى نسبة لشروع الذكور في الانتحار ما بين ٢٠ و٣٠ عامـًا (٣ , ٣٧٪)، وأعلى نسبة لشرع الإناث في الانتحار ما ين ١٥ و٢٠ عامـًا (٨ , ٧٪). وبلغت جملة من حاولوا الانتحار ممّن بلغوا العشرين عامـًا ولم يتعدّوا سنّ الأربعين أكثر من ثلثي الشارعين في الانتحار كلّهم (٧ , ٦٦٪)[٣].

وبالنسبة للجنسيّة والديانة، فإنّ غالبية مَن شرعوا في الانتحار عام ١٩٥٩ كانت

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٢٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٣.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٤١- ١٤٥.

ممّن ينتمون إلى مصر (٩٦٪) والباقون من جنسيّات أوربيّة، وكانت الغالبية مسلمين مصريين (٢, ٩٠٪) مقابل ٨, ٩٪ من المسيحيين المصريين (الأقباط) والأوربّيين.

نأتي إلى المُنتحرين عام ١٩٥٩.

بلغ عدد هؤلاء ٦٦ منتحرًا، وشهد شهر يونيو أعلى معدّلات الانتحار (١١, ١٢٪) وتلته شهور مارس وإبريل ونوفمبر تكرار متماثل (٦, ١٠٪). من حيث النوع والسنّ، كانت غالبيّة المُنتحرين ذكورًا (٢, ٧١٪) مقابل ٨, ٢٨٪ من الإناث. وأعلى نسبة للذكور والإناث من المُنتحرين كانت بين الذين تعدّت أعمارهم العشرين ولم يبلغا الثلاثين، أي ٢, ٤٢٪ ذكورًا و١, ٩٪ إناثـًا، بنسبة إجماليّة قدرها ثلث المُنتحرين[1].

ومن حيث الجنسيّة والديانة، يبيّن الباحث مكرم سمعان أنّ الغالبيّة الساحقة من المُنتحرين كانوا ينتمون إلى مصر (٤, ٩٢٪)، مقابل مُنتحرين اثنين فقط من دول عربيّة أخرى (سوريّا والجزائر)، وثلاثة مُنتحرين أوربّيين من جنسيات يونانية وإيطالية ويوغوسلافية. ومن حيث التبعيّة الدينيّة، كانت الغالبيّة مسلمين (٨٥٪) كلهم ـ عدا واحدًا ـ ينتمون إلى مصر، في حين انتحر من المسيحيّين ثلاثة أجانب، والسبعة الباقون من أقباط مصر.

وتبيّن أنّ أكثر من ثلث المُنتحرين (٢٤ مُنتحرًا أي ٤, ٣٦٪ من مجموع المُنتحرين) كانوا خارج قوّة العمل ممّن لا مهنة لهم، وكان حوالَي ثلثهم من النساء، والثلث التالي من الطلبة ونزلاء السجون والبلطجيّة أو المُتطفّلين في معيشتهم على غيرهم. بالنسبة إلى المهن، فكانت النسبة الأعلى منهم من عمال الخدمات والترفيه، بما في ذلك المُنتحرون من الشرطة والعسكريّين، فقد انتحر منهم ١٨ شخصـًا أي ٨, ٤٢٪ كانت مهنهم مناصفة بين المدنيّين والعسكريّين[2].

ووَفق التوزيع العمرانيّ، احتلّ قسم قصر النيل الصدارة من حيث عدد المُنتحرين في دائرته (٧, ١٩٪) أي نحو خُمس المنتحرين. ويأتي قسم مصر الجديدة ثانيـًا بنسبة ٤, ١٢٪، يليه قسم عابدين (١, ٩٪)، وبعده أقسام الأزبكيّة والدرب الأحمر وباب الشعريّة بنسبة تتجاوز ٦٪.

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٧١ - ١٧٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٩ - ١٨١.

ويُظهر البحث أنّ الذين لم يتزوجوا كانوا الأكثر انتحارًا عام ١٩٥٩ بنسبة تصل إلى ٥ , ٥٢٪ وجاء المتزوّجون ثانيـاً بنسبة ٥ , ٣٧٪ وتلاهم المُطلقون (٩٪) فالأرامل (٣٪).

بالنسبة لوسائل الانتحار، اتّضح أنّ غالبية المُنتحرين عام ١٩٥٩ (٩ , ٩١٪) استخدموا وسائل انتحار خطيرة ذات فاعليّة في إتيان الموت فورًا، وهذه الوسائل هي إشعال النار بالبنزين أو الكيروسين، والقفز من أعلى المباني (أعلى من الطابق الثالث)، والموت غرقـاً في النيل، واستخدام المقذوفات الناريّة وتصويبها إلى مكان قاتل من الجسم كالرأس والصدر، وتعاطي السموم الفتّاكة والمُبيدات الحشريّة سريعة المفعول، والشنق بأسلاكٍ أو أحبالٍ قويّة. أمّا الباقون (١ , ٩٪) فقد استخدموا وسائل انتحار ضعيفة ليس لها فاعليّة عاجلة، مثلما يحدث عندما يصيب المقذوف الناري في غير مقتل من الجسم كالكتف، أو استخدام آلة حادّة في قطع شريان وإحداث نزيف باليد، أو تعاطي سموم بطيئة المفعول أو غير فعّالة كاليود المخفّف والكيروسين، أو العقاقير المسكنة والمنوّمة كالإسبرين والألونال[١].

ولم يوجد المرض الجسميّ في هؤلاء المُنتحرين سوى في نسبة ١ , ١٢٪ منهم، في حين وجدت الأمراض الجسميّة والعقليّة في ٧ , ١٩٪ من الحالات. واتضح أن ٤١٪ من هؤلاء المُنتحرين كانوا يعانون مشكلات سلوكيّة وتوترًا في العَلاقات الشخصيّة، من أزمات انفعاليّة وصراعات مع آخرين والتعرّض لاتّهامات في إحدى الجرائم[٢].

بلغ مجموع الذين تركوا وثائق شخصيّة من المُنتحرين والشارعين في الانتحار ١٦ شخصـاً، جميعهم من الذكور أي بنسبة تقترب من ١٦٪ من جملة مجموعتي السلوك الانتحاريّ. وكان ثمة ٧ أشخاص آخرون أدلوا باعترافات شفويّة أمام السلطة القضائيّة عن دوافعهم والظرف المقترنة بسلوكهم الانتحاريّ.

كان حوالَي ٧٥٪ من الوثائق في شكل خطابات موجّهة إلى آخرين، تتراوح ما بين عبارة واحدة كُتبت على عَجَل قبيل المحاولة مباشرة، ووثيقة مطوّلة شغلت عباراتها أكثر من صفحة وكتبت بتأنٍّ. تضمّنت بعض وثائق الشارعين في الانتحار شكاوى

(١) المرجع نفسه، ص ١٩٩ – ٢٠٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٠٢ – ٢٠٤.

من الظروف التي دفعت بكاتبها إلى محاولة إزهاق أرواحهم، وتبرير هذا السلوك والعبارات التي تدخل في نطاق هذه الوحدة.

من تلك الوثائق الشخصيّة التي تركها الشارعون في الانتحار عام ١٩٥٩ ما يلي:

«ما الحياة إلا نفاق، ذلك ينافق الآخر والآخر ينافق ذلك».

«قـرّرت الانتحار اليوم لكثرة ديوني ولشدّة المرض الذي لازمني بصفة مستديمة».

«قرّرت لنفسي الانتحار.. لراحة نفسي ولعدم رؤية زوجتي بعيدة عنّي مطلّقة وتشريد ابني ولعدم ردّي جميل زوجتي لي».

(بعد أن سرد مفصّلًا اتهامات رؤسائه له واضطهادهم إيّاه ومحاولتهم النيل من كرامته، كتب): «لكنّ هذه الصدمة أثرت في أعصابي وهزّتني هزّة عنيفة ولهذا أودّع الدنيا غير آسفٍ عليها».

«إنّي ضحيّة عصابة من المحتالين.. لا أريد أن أنتقم من أيّ شخصٍ لأنّي لم أعرف فتعبت من الحياة ولأجل هذا أريد أن أنعم بالرّاحة بعد موتي».

«مرتبي لا يكفيني.. أصبحت مديونـًا.. وديني يزداد وارتبكت حالتي الماليّة وتوتّرت أعصابي وأصبحت لا أجد السعادة ولا الابتسامة وأصبحت حياتي جحيمـًا لا يطاق.. للأسف لم أجد أحدًا يساعدني لذا فقد أقدمت على إنهاء حياتي».

«والدي شكاني.. والدتي شكتني.. لم ترحمني. أنتقل من هذه الدنيا الظالمة.. الملازم كان يعاملني بقسوة وكان يضطهدني»[1].

تكاد لا تخلو غالبيّة الوثائق من توصيّات لتدبير أمور خاصّة بالشخص نفسه أو بمستقبل الذين يرتبطون به، مثل: «أن تخلي بالك من الأولاد.. وأن لا تحقدي عليه.. ووصيّتي إليك الأولاد مرّة ثانية»، و«(إلى وكيل النيابة) أن تتولّوا عنّي المعيشة الرغدة لزوجتي وندعوكم الصلاة على روحي». وهناك أيضـًا ما أظهره بعض من حاولوا الانتحار من مشاعر إيجابيّة أو سلبيّة تجاه آخرين، مثل «يشهد الله على ما كنت أكنّه

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

لها (أي زوجته) من محبّة كبيرة وكنت أودّ أن أراها في نعيم كبير»، ولا أحد تسبّب في حياتي سوى السيد/ ...»، و«هذه الدنيا ظالمة.. السبب الأخير في وفاتي هو الملازم.. فمنه لله وذنب أولادي في رقبته..»[1].

أمّا المُنتحرون عام ١٩٥٩ فقد ترك تسعة منهم وثائق شخصيّة يمثّلون ١٣,٧٪ من المُنتحرين، تعذّر على الباحث مكرم سمعان الحصول على واحدة منها، وفي المقابل تمكّن الباحث من رصد بعض الاعترافات الشفويّة الموجزة لمُنتحرين أمام السلطة القضائيّة قبل الوفاة. الغالب على وثائق المُنتحرين أنّها تتضمن شرحًا موجزًا للأسباب والظروف التي دفعت صاحبها إلى الإقدام على الانتحار، ومنها:

«قمت بهذا العمل (يقصد الانتحار) لإراحتكم من تعبي ولإراحة نفسي من الألم الذي أنا فيه».

«قرّرت الانتحار.. وذلك لا لأني طفل مراهق، ولكن للأسباب الآتية (وعدَّد خمسة أسبابٍ تُشير إلى مخاوفه وضعفه النفسيّ والبدنيّ)».

«.. أرى والدي يحيا لحظاته الأخيرة في اضطهاد غير معقول.. اضطهدني المرض، وأصبحت في الأيام الأخيرة شبه عاجز عن الألم والدوار.. وقد أحتمل الآلام ولكن فكري لا يستطيع أن يسترسل وأنا أعيش في دوار دائم. دوار يمنعني من ممارسة حياتي».

«يعلم الله أني بريء من هذا الاتهام».

«أنا شبعت من العيشة».

وتضمّنت وثائق بعض المُنتحرين توصياتٍ وتحذيراتٍ، مثل: «بيعي منقولاتي علشان تسددي الديون وقبّلي كل من يحبني وأخطري العمل يشوفوا واحد غيري»، و«أرجو ورجاء الميت مجاب أن (١) تبلغ سلامي إلى... (٢) عدم إخبار كل من هبّ ودبّ عن خبر وفاتي منتحرًا»، و«أرجو أن تنفقوا جميع أموالي كتبرعٍ مني لجمعيّة... وهذه وصية أحاسبكم عليها أمام الله».

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٠٨- ٢١٠.

وأورد غالبيّة المُنتحرين مشاعر إيجابيّة أو سلبيّة تجاه آخرين، مثل «حبايبي كلكم. بنبوسكم كلكم»، و«سامحني، سامجني، سامحني»، و«إنني أغفر لأبي ولزوجته سلوكهما» و«قبلوا يد خالي فهو القلب الكبير». وتكاد لا تخلو وثيقة من عبارات تدل على إحساس أصحابها بشعور قهري بالعزلة والاغتراب والمعاناة من الوحدة، مثل: «قمت بهذا العمل لإراحتكم من تعبي ولإراحة نفسي من الهم الذي أنا فيه»، و«خوفي من عدم تلبية دعاء بابا.. خوفي من عدم تلبية دعائكم جميعـًا.. زعلي لأني لا أملك الصحة والعافية.. زعلي لأني لا أملك السلطة في أن أمنع نفسي»، و«لست أدري لمن أكتب.. ومن أودع.. إن أعز الناس لي والدي ووالدتي وكلاهما مصدر شقائي وتعاستي.. وجدت الجحود يقابلني حيث أذهب.. وجدت قليل الأصل بنسبة ٩٠٪»[١].

المفارقة أنّ البحث حول المُنتحرين والشارعين في الانتحار في القاهرة عام ١٩٥٩، يكشف عن أنّ ستة أشخاصٍ ذهانيّين كانوا يعالجون عند أطباء أمراض نفسيّة وعصبيّة وفي مصحّات الأمراض العقليّة. وجميع هؤلاء الأشخاص انتحروا أثناء العلاج ـ ولم يُشفَ أحدهم. وقد تبيّن للباحث مكرم سمعان أنّ علاجهم اقتصر على الصدمة الكهربائيّة أو العقاقير المهبطة والمهدّئة أو المنبهة والمنشّطة، وكان تشخيص حالة هؤلاء الأشخاص ـ من واقع تقارير الأطباء ـ اضطرابات عصبيّة في الغالب الأعمّ، وهو تشخيص عامّ غامض يغفل الحالة النفسيّة العقليّة المصاحبة لهذه الاضطرابات العصبيّة، ممّا أدّى إلى تزايد خطورة هذه الحالة على الشخصيّة من دون علاج مناسب[٢].

على أنّ حالات الانتحار ومحاولاته طالت أيضًا فنانين خلال منتصف القرن العشرين، ومن هؤلاء المُمثّلة زوزو ماضي.

ففي ١٥ مارس من عام ١٩٥٥ أي بعد ثلاثة أعوام فقط من كتابة ذكريات سنوات عمرها الأولى، ابتلعت زوزو ماضي عددًا كبيرًا من الأقراص المُنوّمة في محاولة للانتحار، وتم إنقاذُها بصعوبة وقامت الصحف بنشر محاولة انتحارها تلك. وتبيّن أنّها فعلت هذا بعد مشادّة مع ابنتها إيفون، حيث فُوجئت الأمّ بعصيان الابنة لها،

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٢- ٢١٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٥٢.

التي أصبحت تضيق بالقيود التي تفرضها أمّها عليها الشكل نفسه الذي فعلته هي مع أبويها، فقد سافرت الابنة لإيطاليا وعادت من دون أن تبلغ أمها، واكتشفت الأم أن ابنتها لديها عدد من أصدقاء السوء تسهر معهم في أماكن سيئة وتفعل ما يحلو لها من دون ضوابط، فجُنّ جُنونُها وحاولت منعها، إلا أن الابنة لم تستمع لها وثارت عليها وتركت المنزل.

هنا أدركت زوزو أن ما فعلته مع أبويها في السابق وهي في السن نفسه، يتكرّر معها السيناريو نفسه، فقرّرت الانتحار. إلا أنّ وصول الخادم وصديقها المصوّر محمد عزّ العرب بعد وقت قصير، أنقذها من موت مُحقّق.

عادت زوزو بعد يوم واحد من فشل الانتحار، إلى حياتها العادية.. سيجارة وكأس، ولم تأخذ العبرة ممّا حدث كما نشرت صحيفة «أهل الفنّ» في مارس ١٩٥٥ [1].

---

(١) زوزو ماضي.. فشلت في الانتحار واعتبرت الحياة سيجارة وكأس، جريدة «السياسة»، الكويت، ٢١ يوليو ٢٠١٢.

خارطة الموت المجاني

الأرقام تقول إن حالات الانتحار في مصر زادت بنسبة ١٢٪ في عام ٢٠١١ عن العام الذي سبقه، وإن نحو ١٨ ألف حالة انتحار وصلت إلى مركز السموم خلال عام ٢٠١١، أغلبهم من الرجال[١].

وتشهد مصر سنويًا نحو ٣ آلاف حالة انتحار سنويـًا لمن هم أقلّ من ٤٠ عامـًا[٢]، فيما تقول تقارير أخرى إنّ خمسة أشخاص من بين كل ألف شخص يحاولون الانتحار بهدف التخلّص من مشكلاتهم[٣].

عام ٢٠٠٩ وحده، شهد محاولات للانتحار في مصر بلغت ١٠٤ آلاف حالة، تمكّن ٥ آلاف منهم في التخلّص من حياتهم. وتقول الإحصائيّات الصادرة عن الجهاز المركزيّ للتعبئة العامّة والإحصاء، إنّ جريمة الانتحار في مصر، أصبحت ظاهرة خطيرة تتصاعد يومـًا بعد يوم.

الأدهى والأمر أنّ الإحصائيّات تشير إلى أنّ المؤشر في ارتفاع مستمر، إذ إنّه في

(١) حسين البربري، ١٨ ألف مصري حاولوا الانتحار العام الماضي أغلبهم من الرجال، موقع «المصريون»، ١٤ يونيو ٢٠١٢.

(٢) ممدوح حسن، الطبّ النفسيّ: الانتحار على قصر النيل إنذار للعشاق والحكومة، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٥ يونيو ٢٠١٠.

(٣) ضحى الجندي وخالد موسى، آمنة نصير: الإقبال على ظاهرة الانتحار متزايد في دولة لا تحمي المُهمّشين، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٤ يونيو ٢٠١٠.

عام ٢٠٠٢ قالت إحصائيّة رسميّة إن ٢٨٢ مصريًا «تخلّصوا» من حياتهم، إضافة إلى محاولات الانتحار التي لم «تنجح»، إلا أنّ هناك مَن رجح أنّ الرقم أعلى من ذلك بكثير، إلا أنّه على الأرجح يزيد على ذلك، استنادًا إلى دراسات واستبيانات أجريت في سنوات سابقة تذهب إلى أنّ العدد يتراوح بين ٧٥٠ و١٢٠٠ حالة سنويًا في مصر[١].

وفي عام ٢٠٠٣ شهدت مصر نحو ٣ آلاف حالة انتحار[٢]، وعام ٢٠٠٥ ١١٦٠ حالة، وعام ٢٠٠٦ وقعت ٢٣٥٥ حالة، وعام ٢٠٠٧ شهد وقوع ٣٧٠٠ حالة، أمّا عام ٢٠٠٨ فقد وقعت ٤٢٠٠ حالة انتحار، في حين كانت هناك ٥٠ ألف محاولة أخرى[٣].

واستمرّ التصاعد المُخيف في حوادث الانتحار، إلى أنْ كسر حاجز الـ٥٠٠٠ منتحر في عام ٢٠٠٩.

وحسب أستاذ السموم بكلية طب عين شمس، الدكتور أحمد شاهين، فإن الفئة العمرية الأكثر إقبالًا على الانتحار هي ما بين ١٥ عامـًا و٢٥ عامـًا، حيث تبلغ نسبتهم ٦٦,٦٪ من إجمالي عدد المنتحرين في كل الفئات. تأتي بعد ذلك نسبة المُنتحرين من المرحلة العمريّة ما بين ٢٥ و٤٠ عامـًا، حيث تمثل النسبة الأكبر لانتحار الرجال. ومعظم حالات انتحار الرجال في هذه المرحلة العمريّة ترجع إلى الظروف الاقتصاديّة وعدم القدرة على الإنفاق على الأسرة.

المرتبة الثالثة في إحصائيّة المُنتحرين جاءت مُمثّلة في الفئة العمريّة من ٧ إلى ١٥ عامـًا. وكانت البنات المُنتحرات في هذه المرحلة ثلاثة أمثال الأولاد. وبلغت نسبة هؤلاء الأطفال المُنتحرين ٢١,٥٪من إجمالي المُنتحرين في مصر .

ويشير الدكتور أحمد شاهين إلى أنّ طرق الانتحار تختلف بين النساء والرجال، إذ

---

(١) أمينة خيري، الانتحار في مصر.. بطالة وثانويّة عامّة وإثبات حالة، مجلة العلوم الاجتماعيّة، الرياض، ١٤ يوليو ٢٠٠٩.

(٢) عزّت السعدني، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٣) سميرة علي عيّاد، ١٠٤ آلاف محاولة للانتحار في ٢٠٠٩، جريدة «الأهرام»، القاهرة، ١٢ يونيو ٢٠١٠.

إنّ ٩٠٪ من النساء يستخدمن في انتحارهنّ الأقراص المُنوّمة أو سم الفئران أو إلقاء أنفسهنّ من أماكن شاهقة أو في النيل، بالإضافة إلى لجوئهن إلى حرق أنفسهنّ.

أمّا الرجال في مصر فإنّهم ينتحرون عادة بالشنق أو قطع شرايين اليد أو إطلاق النار على أنفسهم أو الحرق. وتختلف طرق الانتحار حسب الوضع الاجتماعي والأدبيّ، فالعاطلون يميلون إلى شنق أنفسهم، ورجال الأعمال يُطلقون النار على أنفسهم، في حين يلجأ تلاميذ المدارس إلى قطع شرايين اليد أو الشنق.

ويذكر د. شاهين أنّ المُنتحرين كانوا يستخدمون قبل ذلك المُبيدات الحشريّة وسمّ الفئران، إضافة إلى أدوية الربو والبوتاس(١).

ويؤيّد هذه الأرقام استشاري علاج السموم بالمركز القوميّ المصريّ للسّموم، عصام فايق، الذي يقول إنّ المركز يستقبل يوميًّا أكثر من ١٦ حالة تسمّم أغلبها محاولات انتحار، علمـاً بأنّ معظم هذه الحالات هي لفتيات في الفئة العمريّة بين ١٥ و٢٥ عامـاً(٢).

ولعلّ الدراسة الشاملة التي أجراها المركز القوميّ للسموم في عام ٢٠٠٧، تلقي مزيدًا من الضوء على تلك الظاهرة. إذ يتبيّن لنا من الدراسة التي أجريت على عينة بلغت ٥٨٢٩ شخصـاً، أن أكثر أنواع السموم استخدامـاً هي العقارات الدوائية والكيماويات وأحيانـاً المخدرات.

اللافت للانتباه أنّ الدراسة تشير إلى أنّ معدل حوادث الانتحار يرتفع خلال ٣ أشهر، هي: يونيو ويوليو وأغسطس. شهور الصيف وربّما الفراغ والقصص العاطفيّة لكثير من أفراد الفئة العمريّة الأكثر إقدامـاً على محاولة الانتحار. وفي هذه الدراسة كان للمرأة نصيب الأسد، إذ بلغت محاولات انتحار وتسمّم السيدات في العينة ٣ آلاف و٣٦٨ حالة، من إجمالي ٥ آلاف و٨٢٩ حالة، أغلبها كانت محاولات انتحار(٣).

---

(١) حسين البربري، مصدر سابق.

(٢) محمد كامل وسارة نور الدين، استشاري بـ«القوميّ للسموم»: نستقبل أكثر من ١٦ حالة انتحار يوميًّا معظمها لفتيات، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٦ ديسمبر ٢٠١٠.

(٣) المصدر نفسه.

والسبب، كما يقول فايق، يعود إلى حال المرأة المصريّة التي تتعرّض لكثير من الضغوط والأزمات.

الأمر يتعدّى الضغوط ليلامس العنف ضدّ المرأة.

بدايةً، فإنّ العنف في التحديد اللّغوي، حسب ابن منظور يعني الخرق والتعدّي: فنقول «العُنْف الخُرْقُ بالأَمر وقلّة الرِّفْق به، وهو ضدّ الرفق. عَنُفَ به وعليه يَعْنُفُ عُنْفـًا وعَنافة وأَعْنَفه وعَنَّفه تَعْنيفـًا، وهو عَنِيفٌ إذا لـم يكن رَفيقـًا في أَمره.

واعْتَنَفَ الأَمرَ: أَخذه بعُنف»[1].

تُعرف الأمم المتّحدة العنف اتجاه النساء بأنّه أيّ فعل من أفعال العنف الذي يسبّب أو قد يسبّب الأذى لها أو المعاناة الجسديّة أو الجنسيّة أو النفسيّة، بما في ذلك التهديدات بمثل هذه الأفعال، الإكراه أو الحرمان التعسفي من الحريّة سواء حدث هذا في الحياة العامّة أو الخاصّة.

تعنيف المرأة هو كل سلوك أو فعل يقوم على القوّة والإكراه أو الشدّة اتجاهها، ويسبّب لها نوعـًا من الاضطهاد والتمييز والقهر، والحطّ من كرامتها أو يشعرها بالدونيّة والقصور والإقصاء والتهميش. وتقف الهيمنة الذكوريّة ـ حسب بيير بورديو ـ وراء هذه المشكلة، خاصّة أنّ النظام السوسيو ـ الثقافي يعمل على تشريع العنف وعقلنته واستخدامه ضدّ الجماعة أو الأفراد والفئات كأداة سيطرة اجتماعيّة[2].

وتتعرّض النساء لأنواع مختلفة من أشكال التعنيف خاصّة الجسديّة سواء في الخارج أو إطار الأسرة ومن طرف الزوج والتي تتجاوز الضرب المبرح لتصل في أحيان كثيرة إلى حدّ القتل. ومن يسلمن من الموت يكون للعنف انعكاسات وخيمة على صحتهن الجسدية والنفسية، قد تؤدي بالبعض منهن إلى السقوط في الأمراض العقلية أو الانتحار كملاذ أخير[3].

---

(١) جمال الدين أبو الفضل ابن منظور، مرجع سابق.

(٢) بيير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنّشر، الطبعة الأولى، الدّار البيضاء، ١٩٨٦.

(٣) د. الزهرة الخمليشي، البعد الاجتماعيّ للعنف ضدّ النساء، مجلة العلوم الاجتماعيّة، الرياض، ٦ ديسمبر ٢٠١١.

وتعاني النساء أشكالًا متعدّدة من أنواع العنف، كالعنف الاجتماعيّ، والاقتصاديّ والثقافيّ. هناك أيضًا العنف الرمزيّ، وهو ذلك العنف الخفيّ الذي لا يظهر بشكل مباشر بل يحتاج لتقنيات لإظهاره للعيان والكشف عن آليّات عمله.

يعدّ هذا النمط من العنف من أخطر أشكال العنف الممارسة على النساء؛ لأنّ آليات عمله خفيّة ممّا يجعل من الصعب قياسه أو الإفصاح عنه، بل أحيانًا حتّى الشعور به لأنّه مغلف ومستبطن لحدّ اعتباره سلوكًا عاديًّا وطبيعيًّا، أي أنّه يظهر وكأنّه مسألة طبيّعة ومنطقيّة، أو بمعنى آخر وكأنّه لا عنف، ومن ثمّ صعوبة استنكاره أو التنديد به. وهذا يمكنه من تبرير الأنماط الأخرى من العنف[1].

تكشف الإحصّاءات القوميّة الخاصّة بالعنف ضدّ المرأة في مصر عن كارثة في مجال حقوق الإنسان:

يشير التقرير رقم (٩) الصّادر من مركز الأرض لحقوق الإنسان بمصر والذي يهدف إلى التعرف على العنف الموجّه ضدّ النساء من خلال رصد وتحليل مضمون الصحف المصريّة خلال ستة أشهر من عام٢٠٠٧، إلى أنّ جملة حوادث الانتهاكات والعنف ضدّ المرأة المصريّة بلغت (٤١٢) حالة. وشكلّت حوادث الخطف والاعتداءات الجنسيّة على النساء سواء داخل الأسرة أو من المجتمع (٩٦) حالة، كما بلغت حوادث قتل النساء (٤١) حالة، وشكل العنف الأسريّ المُوجّه للنساء (٥٤) حالة، وبلغت الخلافات الزوجيّة (٨٣) حالة. وأتى الإهمال في الرعاية الصحيّة للنساء ليمثل (٤٤) حالة، وشكل انتحار النساء (٣٣) حالة.

أدّى العنف إلى وفاة وقتل العديد من النساء في هذا الرصد، فمن جملة (٤١٢) حالة عنف قتلت (٢٢٠) امرأة.. وجاء بعضها بسبب العنف الأسريّ، أو بسبب قتل النساء المتعمّد، والخلافات الزوجيّة أو بسبب إهمال في الرعاية الصحيّة.

وأفاد المسح السكانيّ الصحيّ ـ مصر ٢٠٠٨ بأنّ ٣٩٪ من السيدات وافقن على أنّ عاملاً واحدًا على الأقل من تلك العوامل يكفي كمبرر لضرب الزوجة، وهذه العوامل هي (إذا خرجت من دون أن تخبره، أهملت الأطفال، جادلته، رفضت

---

(١) Andrée Michel., La sociologie de la famille, éd., Mouton,Paris, La Haye 1970.

ممارسة الجنس معه، حرقت الطعام)، ويعدّ الخروج بدون إخبار الزوج وإهمال الأطفال (٣٢٪ و٢٩٪ على الترتيب) أهمّ المُبررات لأنّ يضرب الزوج زوجته.

ويبيِّن المسح الديمقراطيّ والصحيّ في مصر ١٩٩٥ أنّ امرأة من بين كل ثلاث نساء تعرّضت للضرب من زوجها في العام السابق على المسح.

ويمكن القول إنّ الجماعات النسائيّة ومنظمات المجتمع المدنيّ في مصر أبدت اهتمامـًا متزايدًا بالتوعية بقضايا المرأة وحمايتها من التمييز ضدها، عبر الضغط لاستصدار قوانين وتشريعات لمواجهة مختلف أشكال العنف من قتل باسم الشرف، واغتصاب، وتحرش جنسيّ، والإيذاء البدنيّ مثل تجريم ختان الإناث، إلى غير ذلك من أوجه العنف الجسديّ أو الجنسيّ حيال النساء، أو العنف الناجم عن ممارسات اجتماعيّة مثل الزواج المبكر، وتدنّي وضعيّة النساء داخل الأسرة وفي المجتمع. وتعاونت قوى فاعلة في المجتمع وخاصة منظمات المجتمع المدنيّ والإعلام والمُؤسّسات التربويّة من أجل تعزيز دورها في نشر ثقافة المساواة ومناهضة القيم المهينة والمهدرة للكرامة التي تُؤدّي إلى تفشي العنف بشكلٍ عامّ وضدّ النساء والأطفال بشكل خاصّ.

وتعاونت تلك المنظمات مع أجل تفعيل الاتفاقيّات الدوليّة الخاصّة بحقوق النساء منها اتفاقية «السيداو» التي تهدف إلى القضاء على مختلف أشكال التمييز ضدّ النساء. ومنحهنّ حقّ المساواة مع الرجال[١].

هذا إلى جانب مبادرات لدعم النساء المعنّفات، كتوفير مراكز الدعم النفسيّ والاجتماعيّ، كالاستقبال والاستماع والإيواء والتأهيل، لتمكين النساء وتقوية قدرتهن حتّى يتمكّن من تغيير وضعهن ومن الاندماج الفعليّ في المجتمع، الاندماج الذي سيمنع كل أشكال الحيف والعنف ضدّهنّ، ويخلصهنّ من الإحساس بالدونيّة التي طالما عانين منها باعتبارهن الجنس الأقلّ في المجتمع[٢].

في المقابل، بذلت بعض الحركات والتيارات الثقافيّة والدينيّة والعرقيّة في مصر على مدى السنوات العشرين الأخيرة جهودًا منسّقة لمحو هذا التقدّم وإعادة فرض ما

---

(١) د. الزهرة الخمليشي، مصدر سابق.

(٢) اللجنة الاقتصاديّة لغرب آسيا، استراتيجيّة تطوير أوضاع المرأة العربيّة في منطقة غرب آسيا حتى عام ٢٠٠٠، الأمم المتحدة، ١٩٨٥.

تراه أدوارًا تقليديّة. وكثيرًا ما تبرّر هذه الحركات العنف ضدّ المرأة، وتلتمس له العذر باسم الدين أو الثقافة أو التراث أو التقاليد[1].

وفي ذلك، يقول إريك فروم: «لقد تسبب إخضاع نصف الجنس البشريّ بواسطة النصف الآخر، ولا يزال يتسبّب، في أضرار جسيمة لكليهما: فالرجال يلبسون أثواب المُنتصرين، بينما تلبس النساء مسوح الضحايا. ولا توجد علاقة بين رجل وامرأة مبرّأة من اللّعنة، لعنة إحساس الرجل بالتفوق وإحساس المرأة بالنقص. هذه اللّعنة موجودة حتّى الآن، وحتّى بين أولئك الذين يقفون ضدّ سيطرة الرجل عن وعي كامل»[2].

لنتحدث عن رقمٍ مهمٍّ آخر.

١٤٧ مليار جنيه هو حجم الخسائر التي تكبدها الاقتصاد المصريّ خلال ٥٠ عامـًا مضت، جرّاء العنف الموجّه ضدّ المرأة، حسب ما كشفته دراسة أعدّها الدكتور حمدي الحناوي، أستاذ الاقتصاد الاجتماعيّ. وتُؤكّد الدراسة أنّ العنف ضدّ المرأة أحد عوامل التخلّف الاقتصاديّ والاجتماعيّ على المدى الطويل.

قسمت الدراسة التكاليف الاقتصاديّة الناتجة عن العنف ضدَّ المرأة إلى شقّين، الأول: تكاليف مباشرة للعنف، تتمثّل في علاج الإصابات الناتجة عن العنف أو تعطل المرأة عن العمل، والبالغة قيمتها ٦٤٢ مليون جنيه، أمّا الشق الثاني فهو التكاليف غير المباشرة، والبالغة قيمتها ١٤٣,٦٦٧ مليار جنيه، متمثّلة في نقص قدرات المرأة الإنتاجيّة وتدني مساهمتها في الناتج القوميّ وانخفاض دخل المجتمع وعنفها ضد الرجل.

وتقول هذه الدراسة إنّ العنف ضدّ المرأة تزداد كلفته سنويًّا بقيمة ٣ مليارات و٣٢٢ مليون جنيه بزيادة عدد الإناث البالغات. وكشفت الدراسة، التي حملت عنوان «اقتصاديّات العنف ضدّ المرأة»، أنّ انخفاض إنتاجيّة المرأة يمثل الجزء الأكبر من التكاليف، بحيث يمكن اختزال غالبيّة تكلفة العنف ضدّ المرأة في انخفاض

---

(١) عزّة كامل، مجتمع خالٍ من العنف، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٧ أكتوبر ٢٠٠٩.

(٢) إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة: سعد زهران ولطفي فطيم، سلسلة «عالم المعرفة»، العدد ١٤٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس ١٩٨٩، ص ١٨٤.

إنتاجيّتها وعدم مشاركتها في الإنتاج، والتي تعود بالأساس إلى العنف المجتمعيّ الذي يمارس ضدّها.

كما حدّدت الدراسة تكاليف العنف المُباشر لكلّ امرأة، والذي بلغ ٤٣ جنيهـًا. ويأتي التحرّش كأكبر مكوّن للتكاليف، حيث بلغت قيمته وحده ٣٠ جنيهـًا، يليه إصابات العنف الأسريّ وتبلغ ٧ جنيهات، ثم عنف الدولة وقيمته ٦ جنيهات، أمّا التكاليف غير المباشرة فبلغت ٧٩٨ جنيهـًا شهريًّا. د. حمدي الحناوي أكّد أنّ الدراسة أجريت على ١٥٠٠ أسرة من محافظات القاهرة والإسكندريّة وسوهاج والمنيا، واقتصرت على أنواع العنف الذي تتعرض له المرأة بصفتها كأنثى، وكان منها القتل باسم «الشرف»، وكل أشكال الاعتداء البدني واللفظي والتحرش والاستغلال الجنسي[١].

أرقام مفزعة وتفاصيل مذهلة تكشف في جانبٍ منها أسباب ارتفاع معدلات الانتحار لدى المرأة.

فتش عن اليأس وقلة الحيلة!

فالمتابع، يلحظ أن معظم حالات الانتحار في مصر خلال السنوات الأخيرة لم تكن محاولات انتحار بقدْر ما كانت محاولات لتوصيل رسائل شكوى من المجتمع وغضب من السلطات، التي لم تمد له يَـد العوْن لحلّ مشكلته، ولم تساعده للعيش في أمان بعيدًا عن المشكلات. ويبدو هذا واضحـًا من اختيار المُنتحِـر للمكان (جسر قصر النيل/ جسر عباس/ ميدان عام/ ...)، والطريقة التي يحاول بها إنهاء حياته (الشنق/ الغرق/ السم/ القفز من مكان مرتفع/ ....)، وكلها دلالات واضحة على أنها رسائل غضب ورفض[٢].

حتّى الانتحار له بؤرٌ جغرافيّةٌ لا تخطئها العين.

إذ إن تقريرًا صادرًا عن المركز القوميّ المصريّ للبحوث الاجتماعيّة والجنائيّة في عام ٢٠٠٧، أكّد أنّ حالات الانتحار تتزايد في المدن الكبرى، حيث جاءت محافظة القاهرة في المركز الأول في عدد من يحاولون الانتحار، بنسبة ٢٤٪، تلتها محافظة القليوبية بنسبة ٥, ١٩٪، واحتلّت محافظة الجيزة المركز الثالث بنسبة ١٢٪،

---

(١) يمنى مختار، تكلفة العنف ضد المرأة ١٤٧ مليار جنيه في ٥٠ سنة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٧ أغسطس ٢٠١١.

(٢) همام سرحان، مصدر سابق.

وتساوت معها محافظة السويس، بينما كانت محافظتا أسيوط وسوهاج الأقلّ في حوادث الانتحار، على الرّغم من أنّهما من أفقر محافظات مصر[1].

النظرة المدقّقة لخارطة مراكز الانتحار في مصر، وعلى سبيل المثال خلال موجة محاولات الانتحار في يناير ٢٠١١، ستكشف عن تركزها في المنطقة الواقعة بين القاهرة والإسماعيلية والإسكندرية والغربية والقليوبية، وغيرها من المحافظات الساحلية والوجه البحري والعاصمة، في الوقت الذي قلت ـ إن لم يكن خلت فيه ـ محافظات الصعيد من حالات انتحار.

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان بقوة: ما السرُّ الذي يدفع مواطني محافظات الوجه البحريّ والمدن الساحليّة والقاهرة للانتحار حرقـًا؟ في حين لم يفكر مواطنو محافظات الصعيد والمحافظات الحدوديّة في الإقدام على إزهاق أرواحهم «بجركن بنزين أو كيروسين» برغم التفاوُت الكبير في مستوى المعيشة والدخل بين مواطني الوجه البحريّ ونظرائهم في الوجه القبليّ؟!

فتّش عن العائلة والتقاليد!

فمن الواضح أنّ محافظاتِ الصعيد تتّسم بتركيبة سكانيّة يغلب عليها العائلة والقبيلة والعادات والتقاليد، بجانب الاهتمامات الحياتيّة المتشابهة ربّما إلى حدّ التطابق، وزعماء العائلات والقبائل يلعبون دورًا محوريًّا في سير الأمور الحياتيّة، بما لديهم من قدرة على الاحتواء وحلّ المُشكلات مهما كان حجمها، وبثّ روح العزيمة والتماسُك في العَلاقات، والتأكيد بأنّ كل فرد من أفراد العائلة أو القبيلة رقم صحيح في المعادلة الحياتيّة لا يمكن الاستغناء عنه. ويضيف الكاتب الصحفيّ دندراوي الهواري عاملا آخر، إذ يقول إنّ «الصعيدي لديه عادة قناعة بأنّ عدم قهره للظروف مهما كان حجمها يُعدّ نوعـًا من أنواع الهزيمة، خاصّة الظروف المعيشيّة، وأنّ محاولة التنصُّل من مسؤولياته وأعبائه الحياتيّة تجاه نفسه وعائلته بأيّ وسيلة من وسائل التنصُّل بما فيها التخلّص من حياته، يعد طعنـًا غير مقبول في رجولته»[2].

---

(١) هالة عبدالحافظ، خطر الانتحار يضرب المجتمعات العربية، مجلة «الوعي الإسلامي»، الكويت، ٢١ إبريل ٢٠١٢.

(٢) دندراوي الهواري، لماذا تركّزت حالات الانتحار حرقـًا بين مواطني القاهرة والإسكندريّة والوجه البحريّ.. واختفت في محافظات الصعيد؟، موقع «اليوم السابع» الإلكترونيّ، ١٩ يناير ٢٠١١.

الصورة قد تختلف في القاهرة والمحافظات الساحليّة، مع تراجع الالتزام العائليّ والقبليّ، وسيادة الفرديّة، مع بروز صعوبات في التأقلُم والتكيّف مع المحيطين، وغياب القدوة وأصحاب القرارات الرشيدة. ووسط صخب المدن، والسرعة المفزعة في سباق الحياة، وضعف التماسُك العائليّ، يُصاب الإنسان بمشكلات نفسيّة مُؤلمة تدفعه إلى محاولة التنصُّل من أعبائه ومسؤولياته تجاه نفسه أولًا ثم عائلته ثانيـًا، عن طريق الانتحار.

في الإسكندريّة مثلًا، تكرّرت مشاهد الانتحار خلال الفترة بين أكتوبر وديسمبر ٢٠١٠، بسبب ضغوط الحياة وغياب الوازع الدينيّ والنظرة السوداويّة للمُنتحرين.

ومن واقع سجلّات ومحاضر الشرطة خلال الفترة المذكورة، تبيّن تسجيل أكثر من ١٧ حالة انتحار، احتلّت خلالها أسباب «ضعف الإمكانات الماديّة» المرتبة الأولى، فيما جاءت الأسباب العاطفيّة وصعوبة إتمام الزواج بسبب قلة الموارد وصعوبة ارتباط الشخص المُنتحر بمحبوبته في المرتبة الثانية، واحتلّت البطالة والمرض المرتبتين الثالثة والرابعة، حيث يفشل المُنتحر في الحصول على فرصة عمل، الأمر الذي يجعله يحاول التخلّص من حياته.

وأظهرت الحالات التي تمّ رصدُها خلال تلك الفترة ارتفاع معدلات الانتحار بين الفئات العمريّة من العشرينيّات إلى نهاية الأربعينيّات، وأكّدت دراسة أعدّتها الباحثة نيفين عبدالواحد أنّ ٤٠٪ من الانتحار كان بسبب الفقر، و٣٠٪ بسبب الفشل في العَلاقة الزوجيّة، والباقي بسبب البطالة والمرض[1].

هذه رؤية مبدئيّة قابلة للنقاش. وتبقى هناك حاجة مُلحة لمزيد من البحث والدراسة وتحليل البيانات، من أجل فهم أعمق لتلك الخارطة الجغرافيّة لحالات ومحاولات الانتحار في مصر خلال السنوات الأخيرة.

وفي اليوم العالميّ للوقاية ضدّ الانتحار الذي يصادف العاشر من سبتمبر، ذكرت منظمة الصحة العالميّة في عام ٢٠١٠ أنّ معدل الانتحار في مصر بلغ أقلّ من ٦,٥

(١) محمد مجلي، وندى سعد، ١٧ حالة انتحار خلال شهرين بالإسكندريّة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٧ ديسمبر ٢٠١٠.

حالة انتحار لكلّ ١٠٠ ألف نسمة، أي نحو ٢٢٠٠ حالة كل عام، أو ما يقرب من ١٨٣ حالة انتحار شهريًّا[١].

المزعج حقًّا هو أنّ تزايد المُؤشّرات بتلك المُعدّلات جعل مصر من بين الدول التي تعاني معدلات انتحار مرتفعة عالميًّا، وذلك لأسباب تتركّز عادةً في الفقر المُدْقع والبطالة والغلاء الفاحش وشيوع حالة اليأس وفقدان الأمل في المستقبل[٢].

والفقر طعنة، والبطالة سمّ بطيء.

تقول الإحصاءات الرسميّة إنّ ٤٤٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر، الذي تحدّده الأمم المُتّحدة بأقلّ من دولار يوميًّا (الدولار يعادل نحو ٥,٥٢ جنيه مصريّ)، كما بلغت نسبة البطالة في عام ٢٠٠٦، ١٠,٣٪، وقد نتج عن البطالة الكثير من الأمراض الاجتماعيّة مثل: زيادة نسب الجرائم، حيث إنّ ٩٠٪ من الجُناة عاطلون عن العمل، وزيادة الهجرة غير الشرعيّة إلى الدول الأوربيّة، وإقبال عدد من الشباب المصريّ على الانتحار للشعور باليأس وفقدان الأمل لعدم قدرتهم على إعالة أسرهم[٣].

والعاطل عن العمل قد لا يتورّع عن القيام بأيّ حركة طائشة غير محسوبة من أجل النجاة بنفسه.. أو الانتحار.

هنا يطلّ علينا تقرير مركز الأرض لحقوق الإنسان الذي يشير إلى أنّ هناك ١٢ مليون مصريّ لا يجدون مأوى، من بينهم مليون ونصف المليون يسكنون المقابر، وأنّ ٤٨ مليون فقير يسكنون في ١١٠٩ مناطق عشوائيّة من دون خدمات أو رعاية اقتصاديّة أو اجتماعيّة، وأنّ ٤٥٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر ويحصلون على أقلّ من دولار في اليوم، في الوقت الذي وصل فيه سعر كيلو اللحم لحوَالَي ١٠ دولارات، وأنّ ٤٦٪ من الأُسر المصريّة لا تجد الطعام الكافي.

يُضاف إلى ذلك، انهيار جميع خدمات البنية التحتيّة بالمناطق الريفيّة، وزيادة معدلات البطالة في بعضها بنسبة بلغت أكثر من ٦٠٪، وتدني مستوى المعيشة بين

---

(١) مليون منتحر في العالم سنويًّا... وإلى ازدياد، جريدة «المستقبل»، بيروت، ١١ سبتمبر ٢٠١٠.
(٢) فهمي هويدي، نافسناهم في الانتحار، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٨ سبتمبر ٢٠١٠.
(٣) همّام سرحان، مصدر سابق.

الفلاحين إلى أدنى درجاته، وانتشار معدلات الجريمة خاصّة جرائم السرقة والنصب بنسبة تفوق الـ٨٥٪ مقارنة بعام ١٩٨٠، وانخفاض نصيب الفرد من الخدمات الصحية سواء بالنسبة لعدد الأطباء أو الوحدات الصحيّة في الريف. وأدّى ذلك إلى إصابة ٦ ,٣٣٪ من أطفال الريف بقصر القامة و٥٢٪ من تلاميذ المرحلة الابتدائيّة في الريف بالأنيميا وحوَالَي ٥ ,٢ مليون مصابون بالبلهارسيا، وعدم وجود خدمات الصرف الصحيّ في المناطق الريفيّة[١].

ولعلّ هذا ما دفع إلى الترويج لفكرة مُؤدّاها أنّه من الظّلم أن ننظر إلى من يقدّم على الانتحار على أنّه منتحر، «فالأدق أن نقول إنّه «منحور» أي مذبوح بسكين الظلم والضياع. والحساب لا بدّ أن يكون مع مَن دفعوه وغيره إلى ذلك، فقد «نحرهم» الذين تركوهم بلا عملٍ، وأهدروا حقوقهم كبشرٍ، وألهبوهم بقوانينهم الظالمة»[٢].

بل إنّ هناك مَن رأى أنّ «الانتحار هو أقصى درجات التعبير عن الرفض والاحتجاج، ولولا أنّه محرّم دينيًا لزادت معدلاته بيننا. ليست هذه دعوة للانتحار بالتأكيد، فالحياة تستحقّ أن تعاش، وأرواحنا بِيد خالقها، لكنّني أردت فقط أن أقول إن المُنتحرين ليسوا دائمـًا مرضى نفسيّين، في أحيان كثيرة، هم الأعمق رؤيةً والأنصع روحـًا والأصدق تجربةً»[٣].

لقد وجد المصريون أنفسهم بين نارينِ: إمّا الهجرة وإمّا الحياة تحت نير الظلم والطغيان واستبداد والفساد، فهاجر عقل مصر إلى الخارج عبر الملايين الذين يملؤون الدنيا من خيرة أبنائها يقدّمون صفوة خبرتهم وإبداعاتهم إلى الأمم الأخرى.. وبقي من بقي محبطـًا أو منهكـًا أو مضطهدًا في عمله أو رزقه، في حين توجّه آخرون إلى البحر هربـًا إلى أيّ أمل في الحياة فابتلعهم البحر، فمنهم من عاد جثة هامدة في صندوق، ومنهم من ما زال في قاع البحر يشكو الظلم والظالمين[٤].

---

(١) علي خميس، «منتحرو» العيد يهددون الثورة «المخملية»؟!، بوابة «الوفد» الإلكترونية، ٩ نوفمبر ٢٠١١.

(٢) د. محمود خليل، المنتحر والمنحور، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٣ يناير ٢٠١١.

(٣) عماد الغزالي، انكسار الروح، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٧ يونيو ٢٠١٠.

(٤) أحمد منصور، انتحار الشباب المصريّ؟، جريدة «الدستور»، القاهرة، ١٧ سبتمبر ٢٠١٠.

تقول الإحصّاءات إنّ ٧٠ مليون مواطن عربيّ وقفوا على شبابيك السفارات الأجنبيّة طلبـاً لتأشيرة عمل أو هجرة في عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٠ [١]. ولنا أن نتصوّر دلالة الرقم في بلد مثل مصر، التي تفرّق أبناؤها في أنحاء الدنيا بحثـاً عن عمل مناسب وحياة كريمة.

والبطالة هي في أحد وجوهها القاسية مرآة للقوى الاجتماعيّة السافرة على الأرض.

في السنوات الأخيرة، أخذت حوادث الانتحار في مصر أشكالًا مختلفة، مثل الشنق أو القفز تحت عجلات المترو، أو في النيل، وذلك في صفوف الرجال الذين كانوا يفضّلون عادة الانتحار بإطلاق النار على أنفسهم؛ أو من أعلى أسطح المنازل أو قطع شرايين اليد، وهذا في صفوف النساء، اللّاتي كن يفضلن من قبل الانتحار عن طريق تناول الحبوب[٢].

وفي الفترة ما بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٥، نشرت الصحف المصريّة على صفحاتها الأولى أخبارًا وعناوين حول الانتحار، ومنها:

انتحار رئيس حي شمال الجيزة بطلق ناريّ في رأسه.. قالوا إنّ السبب ضغوط العمل.. بجانب مشكلاته الصحيّة.

غابت ابنة السابعة عشرة عن منزلها ليلة كاملة بحجة أنّها كانت عند صديقتها.. ولما اكتشفت أمها كذبها ألقت بنفسها من الطابق الرابع.

ينتحر بإلقاء نفسه من الطابق الرابع بعد القبض عليه بتنفيذ أحكام بالسجن مجموعها ٣٥ عامـاً.

شاب ينتحر لفشله في توفير نفقات زواجه.

شاب ينتحر لفشله في الحصول على عمل.

---

(١) علي سعد الموسى، هل أصبح ـ البوعزيزي ـ قدوةً عربيةً؟، جريدة «الوطن»، الرياض، ١٩ يناير ٢٠١١.

(٢) دراسة: المُطلقون والأطباء أكثر إقبالاً على الانتحار، موقع سي إن إن العربية، ١٢ أكتوبر ٢٠١١.

بعد استيلائه على مليون جنيه احتيالاً على الناس، ينتحر بشنق نفسه قبل القبض عليه بساعة.

شابٌ يشنق نفسه في شجرة في حيّ مصر الجديدة!

أمّ لخمسة أطفال تنتحر بسبب كثرة أعبائها المنزليّة ومعايرة زوجها لها بفشلها[1].

الشابّ حسن رمضان خريج الحقوق أرسل رسالة إلى رئيس مجلس الوزراء يحمله مسؤوليّة انتحاره بعد أن أمضى عشر سنوات من البحث عن وظيفة من دون جدوى[2].

ولعلّ أشهر قصة انتحار هزت المجتمع المصري خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تلك التي شهدت انتحار رجل الأعمال المصري أيمن السويدي وهو مليونير مصري برصاصة في رأسه، بعد أن أطلق من مدفعه الرشاش وابلًا من الرّصاص على زوجته المطربة التونسيّة ذكرى، ومدير أعماله وزوجته.

ففي فجر يوم الجمعة ٢٨ نوفمبر من عام ٢٠٠٣ جرى نهرٌ من الدماء في الشّقة رقم ١١٢ بسراي السلطان في شارع محمد مظهر في حيّ الزمالك. وفي غضون ربع ساعة، انطلقت ٦٩ رصاصةٍ من مدفعِ رشاش أمسك به رجل الأعمال أيمن عوني صادق السويدي وصوّبه تجاه زوجته المطربة التونسيّة ذكرى ومدير أعماله عمرو الخولي وزوجة مدير أعماله خديجة صلاح الدين. وبعد المذبحة البشعة أمسك رجل الأعمال بمسدسه وصوّب الفوهة إلى فمه وأطلق على نفسه رصاصةً واحدة وانتحر.

الساعات التي سبقت المأساة الدامية شهدت اصطحاب السويدي ذكرى، التي كان قد تزوّجها بعقد زواج عُرفي في ٢٣ أغسطس ٢٠٠٣، إلى سهرةٍ في محلٍ يدعي «بلوز» اشتراه السويدي قبل شهرٍ من الواقعة في شارع النيل بجوار كوبري جامعة القاهرة.

بعدها عاد الجميع إلى مسكن السويدي الذي يضمّه مع زوجته ذكرى، الكائن في

---

(١) عزّت السعدني، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٢) جريدة «الأهرام»، القاهرة، ٢٩ يناير ٢٠٠٥.

شارع محمد مظهر بالزمالك.. وكان بصحبتهما مدير أعماله وزوجته. ظهرت معهم هذه المرّة فنانةٌ مغمورة تدعى كوثر سعيد رمزي (٥٥ عامـًا)، وهي معروفةٌ بقراءة الفنجان للفنانات.

وفور دخول المنزل طلب السويدي من كوثر الجلوس في الصالون وتركهم بمفردهم، وطلب أيمن من الخادمتين زينب إبراهيم (١٩ عامـًا) وأمّ هاشم حسني الوسي (١٧عامـًا) إغلاق الباب عليها؛ لأنّ هناك حديثـًا عائليًّا بينهم، ثم طلب من الخادمتين البقاء في غرفتهما وعدم مغادرتها.

وسرعان ما بدأت محاكمة غريبة الأطوار!

عين السويدي نفسه قاضيـًا ومدعيـًا عامًّا، وعقد محاكمة لضحاياه الثلاث استغرقت نحو عشرين دقيقة، اتّهم أثناءها زوجته الفنانة بأنها على صلةٍ برجل ما، ثم عاد وقرّر أنّه مدير أعماله عمرو الخولي.

بدأ السويدي المحاكمة موجّهـًا حديثه إلى زوجته ذكرى طالبـًا منها التفرّغ له كزوجة؛ لأنّ عملَها الليليّ يأخذها منه في حين يعمل هو نهارًا.. لكنّها ردت عليه في حدّةٍ بأنّها لن تترك عملها كفنّانة، وأنّه تزوّجها وهو يعرف طبيعة عملها.

كان أيمن السويدي يغار بشدّة على ذكرى حمد الدالي (١٦ سبتمبر ١٩٦٦– ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٣). غيرةٌ دفعت الزوج صاحب مصانع السويدي المعروفة للأدوات الكهربائيّة إلى نقل خلافاتهما في وقتٍ سابق إلى ساحات القضاء، حتّى حصل على حكم في دعوى قضائيّة في منتصف نوفمبر ٢٠٠٣ بإثبات صحّة توقيع ذكرى على وثيقة الزواج العرفيّ بينهما. ومن الواضح أنّ المطربة الراحلة كانت ترفض إثبات زواجها من رجل الأعمال، ما دفعه للجوء إلى القضاء لإثبات الزواج. وبعد طعنها في صحّة التوقيع على عقد الزواج العرفي أثبتت المحكمة صحة توقيعها باللجوء إلى الخبراء.

تعرّفت ذكرى إلى أيمن في محل «بلوز» الذي يمتلكه السويدي، وحدث بينهما منذ اللّحظة الأولى إعجابٌ متبادل، وكان ذلك في شهر يوليو ٢٠٠٣، واستمرّت العَلاقة تنمو حتّى تزوجا في الشهر التالي، على الرّغم من أنّه كان متزوّجـًا من مغربيّة تدعى نادية.. ولكن لأنّ حبّه لذكرى ملك عليه قلبه، قرّر تطليق نادية ـ مثلما تزوّج

وطلّق من قبل فنانات وراقصات مثل حنان ترك وهنديّة واللبنانية جيهان قمري ـ لتنتقل ذكرى للعيش في منزل الزمالك، وبدأت قصّة الحب تنمو بين الزّوجين.

غير أنّ الخلافات عرفت طريقها إلى العَلاقة بين السويدي وذكرى منذ الأيام الأولى لزواجهما. وعندما كانا يقضيان شهر العسل في شرم الشيخ، شاهدها تتحدّث مع أحد المُعجبين، فاعتدى عليه وعليها بالضرب، ثم عاد واعتذر بعد أن هدّدته بطلب الطّلاق، غير أنّ الشكّ كان قد تمكّن منه، فكان يسأل الخادمات لدى سفرها عن نوع الملابس التي تأخذها معها وألوانها. بل إنّه كان يلاحقها في كل مكان، أو يرسل خلفها من يتتبعها ويراقبها .وبنار الغيرة تشتعل وردة القلق.

وحدث أن سافرت ذكرى إلى ليبيا وقدّمت حفلًا ولكنّه اعترض، بعد أن عرفت الغيرة طريقها إلى قلبه. وبدأت الخلافات تشتدّ بينهما بسبب عملها، ما جعلها تقرّر العودة إلى شقّتها الخاصّة في حيّ المهندسين.

لقد أحبّ أيمن ذكرى بطريقةٍ جنونيّةٍ وصلت به لدرجة الغيرة العمياء، وكان يريدها أن تنظم أعمالها بطريقةٍ مُغايرة بحيث تقوم بتسجيلاتها الغنائيّة صباحـًا.

وأثناء النقاش بين الزّوجين في تلك الليلة، طلب السويدي من ذكرى عدم السفر للمشاركة في مهرجاناتٍ واحتفالات قوميّة لبعض الدول العربيّة.

احتدّ النقاش بينهما حاملًا في طيّاته نبرة الغيرة عليها، قبل أن ينتفض السويدي من مكانه ويتّجه ناحية غرفة الصالون، ليجد كوثر رمزي تصلّي الفجر. وبحزمٍ وعصبيّة شديدة طلب منها بعصبيّة شديدة مغادرة المنزل على الفور. ارتبكت كوثر وهمّت بالانصراف، لكنّها حين وصلت بالقرب من الباب تذكرت حذاءها الموجود في غرفة الصالون. وعندما طلبت منه أن تعود لإحضار حذائها طلب منها الانتظار عند الباب وذهب بنفسه ليحضره لها، طالبـًا منها النزول من باب الضيوف الذي تقف أمامه.

ثم عاد أيمن السويدي إلى ذكرى وعمرو وخديجة، ليستأنف جلسة المحاكمة الساخنة.

وفي لحظاتٍ اندلعت نيران الانفعال، وتناثرت الكلمات الجارحة وتطايرت الاتهامات، إلى أن أخرج أيمن السويدي أسلحته النارية: طبنجتين ومدفعًا رشاشًا.

راح أيمن السويدي يصرخ بعصبيّةٍ، ويُصوّب نحو الموجودين أسلحته.

وفي لحظةٍ هستيريةٍ أطلق الرَّصاص على ذكرى بطريقة عشوائيّة حتّي أصابها بـ٢١ رصاصة من رشاش ألمانيّ من نوع هكلر في أجزاء متفرقة من جسدها أودت بحياتها في الحال، بعدها وجّه رصاصاته إلي مدير أعماله عمرو الخولي فأصابه بنحو٢٠ رصاصة في القلب والصدر، ثم قتل زوجة الأخير بـ١٤ رصاصة. وأخيرًا وضع المسدس في فمه وأطلق رصاصة واحدة أنهت حياته في الحال أيضـًا لتسقط الجثث الأربع في مشهد مأساوي بل مذبحة وحشيّة تناثرت فيها الدماء وامتزجت بالحطام.. لتنهي قصة حبٍ تداخلت فيها الغيرة والشّك.

كان البلاغ الأول للشرطة من الحراسة الأمنيّة المعيّنة على فندق «سفير» الملاصق لشقة السويدي، حيث هرعت إلى هناك قوةٌ من الشرطة، وكان المشهد لا يحتاج إلى تعليق.

بدت الشقة التي شهدت المجزرة كأنّها مشرحةٌ لا تحمل في جوفها إلا الجثث.

هنا اجتمعت عناصر التشويق والإثارة: رجل أعمال معروف، وفنّانة مشهورة، وقتيل ثالث ـ عمرو حسن صبري الخولي ـ هو نجل مدير مكتب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والمبعوث الشخصي للرئيس المصري الراحل أنور السادات[١].

والأهم من ذلك كله حضور مأساة الدم لتختلط بشهرة الأبطال.. والضحايا.

نشير إلى أنّ هناك من يعتقد أنّ الألم سينتهي بعد لحظة الانتحار، وأنّه سيتخلّص من الصراعات والألم إلى الأبد. وأحيانـًا، يرى أنه سبب رئيس في آلام الآخرين، فيقرّر الانسحاب من حياتهم بهدوء، وربما يقْـدُم على الانتحار ليَـشعر ظالموه بأنّهم السّـبب في إنهاء حياته، فتؤنّبهم ضمائرهم. وأحيانـًا، يتردّد في تنفيذ القرار، فيستخدم أساليب أقلّ خطورة: كالحبوب أو محاولة قطع الشرايين، بدلًا من الشَّـنق وإطلاق الرَّصاص والحرْق بالنار، كما لو أنّ المتردّد يرغب في تحقيق هدفه من الانتحار دون تنفيذه[٢].

---

(١) د. ياسر ثابت، جرائم العاطفة في مصر النّازفة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٩، ص ١٢٣- ١٢٦.

(٢) سويس إنفو، د. محمد المهدي: الشباب المصريّ افتقد العمل والأمل فأقـدم على الانتحار!، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٥ أكتوبر ٢٠١٠.

ويُلاحَظ إقدام عدد من المراهقين والأطفال على محاولة الانتحار، إمّا بسبب التحوّلات العميقة التي تشهدها الأسرة في عالمنا اليوم وغياب الحوار البناء بين أفراد العائلة، أو لتأثر النشء بالألعاب الإلكترونيّة، أو عدم تحملهم العزلة الاجتماعيّة من جانب الرفاق، أو بسبب الضغوط الدراسيّة والخوف من الرسوب. إنّ السبب الاجتماعيّ الأكثرَ تأثيرًا في ظاهرة الانتحار يرجع الى الفشل المدرسيّ الذي يعيشه المراهق كجرح نرجسيّ عميق. وممّا يزيد في خطورة هذا العامل، موقف الأهل الذين يسقطون الآمال على أبنائهم ويأملون تحقيق ما لم يتمكّنوا من تحقيقه من خلالهم، فيلجؤون إلى استعمال القمع والقوة للوصول إلى ما يبتغون.

وفي تقدير المنفلوطي فإنّه «لا يجني الطالب على نفسه، وإنّما يجني عليه والده وأستاذه ومجتمعه الذي يعيش فيه». ويشير إلى خطأ الأب بممارسته ضغوطًا نفسيّة على الابن «وربّما أشار عليه بالانتحار من طرفٍ خفيٍّ فيقول له: إذا لم تنجح في الامتحان، فموتك أفضل من حياتك»[١].

وهكذا، فإنّ الفشل المدرسيّ يشكل نقطة التقاء ظروف سلبيّة وشكلًا خاصًّا من التوظيف والتأثير القمعيّين.

وترى آن هاس، مديرة مُؤسّسة الوقاية من الانتحار الأمريكيّة، أنّ صغار السّنّ هم الأكثر عُرضة لانتشار «عدوى» الانتحار بسبب حساسيتهم المُفرطة تجاه ما يحيط بهم من أمور، إلى جانب ميلهم لتقليد ما يقوم به أقرانهم[٢].

وقد يرى البعض أنّ ارتفاع معدّلات الانتحار لا يمكن تفسيره بعيدًا عن ضيق الأفق الفرديّ والاجتماعيّ الذي يسيطر على الواقع المصريّ المعاصر. ونعني بضيق أفق الفرد إصراره على النظر إلى الحياة من ثقب إبرة، وغرامه بأن يكون ابن اللّحظة التي يعيشها دون أن يفكّر فيما سواها. فالانتحار هو فعل قتل الإنسان لنفسه للتخلص من حياته في لحظة فقدان تامّ لأيّ أمل. وهي لحظة خلل في التفكير وفقدان للمنطق؛ لأنّه لا يوجد شيء اسمه فقدان تام للأمل.

حالات الانتحار المُتواترة بشكل مُفزع، لها أبعادٌ كثيرة، بعضها ذو طابع اقتصاديّ،

---

(١) مصطفى لطفي المنفلوطي، مرجع سابق، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) بحث: تمجيد ذكرى المُنتحرين يشجّع الشباب على قتل أنفسهم، موقع سي إن إن العربية، ٢٢ مارس ٢٠١٠.

في ظلّ دولة لا تحمي المُهمّشين، وغياب الشعور بالأمان النفسيّ والطمأنينة خاصّة في الطبقات الفقيرة.

الأمان النفسيّ أحد مفاتيح المشكلة.

إذ يشير استطلاع حكوميّ للرأي، إلى أنّ غالبية مواطني مصر، لا يشعرون بالأمان في وطنهم، بسبب زيادة معدلات الجريمة، وتصاعد الفساد، واستغلال النفوذ، وسيطرة رأس المال، وتفاقم ظاهرة الاستخفاف بالقانون.

وحسب الاستطلاع، الذي أجراه المركز القوميّ للبحوث الاجتماعيّة والجنائيّة من خلال طرح أسئلة على ١٠٠ مواطن، فإنّ ٩٠٪ منهم قالوا إنّ ارتفاع معدلات الجريمة سبّب إحساسهم بنقص الأمان، وإنّ إجراءات الأجهزة المعنيّة لا تكفي لسد أبواب الإجرام والانحرافات، وضرب بعضهم المثل بجرائم مستحدثة لطبقة الصفوة، ووصفوا ذلك بأنّه «الفساد الكبير».

القراءة المُدقّقة لنتائج استطلاع الرأي تكشف المزيد، إذ قال ٧٩٪ من المشاركين، إن إحساسهم بعدم الأمان يرجع إلى ضعف الوجود الأمنيّ في الشارع، خصوصـاً مع ازدهار القطاع الخاصّ، ما جعل قطاع الأمن غير قادر فنيًّا وماليًّا على توفير حراسة للشركات والبنوك، ما أدّى إلى انتشار شركات الأمن الخاصّة، التي توفر خدماتها للقادرين فقط، وهو ما يعني أنّ الأمن ليس مكفولًا للجميع.

واعتبر ٦٢٪ أنّ اتساع ظاهرة الإدمان بين الشعب، من أسباب الإحساس بانعدام الأمان، خاصّة في ظل اقتران الإدمان بالجريمة والعنف والفساد الأخلاقيّ، ويقول ٦٢٪ أيضـاً إنّ البعد عن القيم الدينيّة يساهم في إحساسهم بنقص الأمن.

ويقول ٤٩٪ إنّ تفشّي ظواهر العنف الاجتماعيّ والسياسيّ من الأسباب الأساسيّة للإحساس بعدم الأمان، إذ يقترن بها غياب العدالة الاجتماعية وسوء توزيع الثروات والغلاء والفقر، والمفارقات الاقتصاديّة التي أسقطت كثيرين في بئر الحرمان والغضب[١].

---

(١) ريهام العراقيّ، استطلاع حكوميّ: المصريون لا يشعرون بالأمان في وطنهم، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٠ يناير ٢٠٠٩.

ويبدو أن قنبلة العاطلين انفجرت بالفعل، لتزيد الأوضاع سوءًا.

إن العاطلين من شباب مصر كانوا وقودًا لثورة ٢٥ يناير، بعد أن لجأوا إلى الثورة على النظام السابق لنيل حقوقهم في الحصول على وظيفة شريفة تبعدهم عن الفقر، وتحفظ مكانتهم. غير أن ما جرى في تقدير كثيرين هو أن النظام السابق سقط بكل فساده، وبقيت البطالة، وتضاعف عدد العاطلين، وعجزت حكومة الثورة عن إيجاد مجرد تصور عملي لتشغيل شباب مصر. وأصبح الكلام عديم الجدوى عن البلطجة والاعتصامات والاحتجاجات والتخريب في شتى أنحاء البلاد، ما دام كابوس البطالة جاثمـًا فوق الصدور(١).

مع كل ضمور للعدالة الاجتماعية التي تُسأل عنها الدولة أولاً وأخيرًا، يكبر غول البطالة ويهدد بالانفجار مثل قنبلة موقوتة. ومن أحياء الفقر البائسة المنتشرة، ينمو الغضب، ويتحرك أصحاب الدخل المحدود الفقراء لتنظيم إضرابات واعتصامات ومظاهرات، احتجاجـًا على الفقر أو الغلاء الذي يأكل الأجور المحدودة.

والإحساس بالعجز غولٌ يلتهم الإرادة ويشل التفكير، مثلما حدث مع هشام محمود العجرودي (٣٨ سنة)، وهو فني لحام، مقيم في حيّ الزهور ببورسعيد، حين قرّر التخلص من حياته بالقفز من الدور الخامس في مستشفى الزهور العام، بسبب عجزه عن توفير نفقات علاج والدته المريضة(٢).

وقبل ذلك بسبعة أشهر، صدم ابن مدينة رشيد، فرج خميس البراوي، المجتمع المصري بانتحاره في ساحة مسجد، ردًّا على واقعه شديد الإظلام. كان فرج عاطلاً عن العمل منذ ثمانية عشر شهرًا، بعد أن صدمت سيارة الأجرة التي يقودها إحدى السيارات فألغى المرور رخصته، وما كانت له مهنة غير القيادة. ومن بعد بات عليه أن يدخل اختبارًا تلو اختبار لاستخراج رخصة جديدة تعيد الاعتراف بلياقته للقيادة، لكنه ـ لسببٍ ما ـ فشل في ذلك، مع أنه يعمل سائقـًا منذ ٣٠ عامًا(٣). وجد

---

(١) ناصر فياض، المعدمون والعيد، بوابة «الوفد» الإلكترونية، ٧ نوفمبر ٢٠١١.

(٢) جمال نوفل وحمدي جمعة، شاب ينتحر من الدور الخامس بالمستشفى بسبب عجزه عن توفير علاج والدته، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٤ نوفمبر ٢٠١٠.

(٣) سائق ينتحر داخل مسجد لفشله في استخراج رخصة قيادة من عام ونصف في البحيرة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢١ أبريل ٢٠١٠.

فرج نفسه أبـًا عاجزًا عن القيام بمسؤولياته حيال زوجته وأولاده الثلاثة. أخرج الأولاد تباعـًا من مدارسهم، ومرضت زوجته وابنه الأكبر فأضيفت إليهما محنة المرض بعد الجهل.

وبعد ليلة عابسة ونوم قلوق فوق سرير شاخ عمره، وحشياتٍ أخرجت ما في جوفها من قطن أسود آسن ووسادات كالحة طافحة، نهض فرج (٥٤ عامًا) من فراشه وقصد المسجد لأداء صلاة الفجر.

وعقب الصلاة في مسجد الحردي بمدينة رشيد، انتظر فرج انصراف الجميع من المسجد حتّى يعود إليه وينفذ خطته. أخرج حبلًا كان يُخفيه بين طيّات ثيابه وربطه في السلم الخشبيّ الذي يفضي إلى المنبر، أتى بأحد المقاعد التي يصلّي عليها المرضى والمسنون وصعد فوقه، لفّ الحبل حول رقبته ثم ركل المِقعد بقدمه ولفظ أنفاسه[١].

وفي الصباح اصطدمت عيون رواد المسجد بمشهد فرج معلقـًا بحبل في السقف، وقدماه تتدليان تروحان يمنة ويسرة.

موتٌ صدم أهله وجيرانه، الذين شهدوا له بالاستقامة وحسن الخُلق.

من الضروريّ التحذير من خطورة تزايد هذه الظاهرة خاصّة بين الفقراء.

ومن العوامل التي تؤدّي إلى الإقبال على الانتحار، شعور المواطن بمرارة الفوارق الطبقية، وما يقرؤه وما يسمعه من نهب الأموال أو من الرشوة أو من عدم هيمنة قوة الدولة على التفاوت الطبقيّ، الأمر الذي يوجد خللاً في نفوس المواطنين.

ولعلّ مشهد تعلق نجار حلوان من رقبته داخل حجرة نومه ـ الكائنة في الطابق الرابع في البلوك رقم ١٠ بمساكن الزلازل ـ بعد أن قرّر التخلّص من حياته بسبب الفقر، هو المشهد الذي لن ينساه أولاده الأربعة وجيرانه.. طفله الأصغر محمد (٥ سنوات) ظلّ يستيقظ يوميًّا مفزوعـًا وصورة أبيه لا تفارقه وسط تلك الجدران الكئيبة.. ابنه الأكبر عبدالرحمن تحدث لإخوته قائلاً: «كنت على استعداد أن نموت من الجوع ولا أرى والدي في هذا المنظر».. بعد الانتحار الذي وقع في نهاية يونيو

---

(١) نيفين مسعد، خبر عادي، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٩ أبريل ٢٠١٠.

٢٠١٠، تولّى الابن الأكبر مسيرة والده التي فشل فيها وانتهت بإزهاق روحه.. فأخذ يبحث عن فرصة عمل ربّما تغنيه عمّا فعله والده[١].

العصير المسموم، كان وسيلة انتحار الشاب عبدالفتاح فتحي زكريا (٣٠ سنة). فقد فشل ابن قرية الأزهريّ بالعدوة ـ محافظة المنيا ـ في العثور على فرصة عمل، على برغم أنّه حاصل على دبلوم فني منذ ما يزيد على ١١ سنة، وكان آخر محاولاته العمل جنديًّا في الشرطة. ومع شعوره بالعجز عن تدبير نفقات الزواج، على رغم بلوغه سن الثلاثين، اشترى عبدالفتاح كميّة من السمّ ومزجها في كوب عصير وتناوله ليلقى مصرعه هربـًا من إحساسه باليأس. تمنّى عبدالفتاح حياة كريمة له، لكن يبدو أن اليأس الذي تملك منه أخذ يوسوس له «ما فائدة التَّمَنِّي وأنت على مشارف المحو؟». نتوقف هنا عند ما قاله أشرف فتحي زكريا، من أن شقيقه عبدالفتاح قال له قبل أن ينتحر «الكوسة في البلد هتكون سبب انتحاري»[٢]!

وعلى صفحة مياه نهر النيل طفت جثة الشاب عادل فؤاد (٣٠ سنة) لتشير بإصبع الاتهام إلى الفقر.

كان عادل فؤاد قد تخرّج قبل سبع سنوات في كلية التجارة، لكنّه فشل في العثور على عمل فأصابته حالة نفسيّة سيّئة دفعته إلى الإقدام على التخلّص من حياته في لحظة يأس بالقفز في النيل!

إنها القفزة نفسها التي همّت بها ربّة منزل تدعى هويدا عبدالله (٣٤ سنة) بعد أن تفاقمت مشكلاتها مع زوجها بسبب نفقات البيت ممّا أصابها بالاكتئاب. ذهبت هويدا في لحظة يأس إلى منتصف كوبري قصر النيل وحاولت القفز، إلا أنّ بعض المارة أسرعوا بالقفز وراءها وتمكّنوا من إنقاذها في الوقت المناسب[٣].

«الفقر كل يوم بيكبر في الدنيا.. ١٧ سنة عايشة في حجرة مترين في متر فوق

---

(١) فاطمة أبو شنب، «المصري اليوم» ترصد أحزان أسرة نجار انتحر في حلوان بسبب الفقر، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢ يوليو ٢٠١٠.

(٢) سعيد نافع، انتحار شاب بـ «عصير مسموم» لفشله في الحصول على عمل، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٣ نوفمبر ٢٠١٠.

(٣) محمد عبدالحميد، أسبوع الانتحار في مصر!، مجلة «المرأة اليوم»، أبو ظبي، ٧ يونيو ٢٠١٠.

السطوح ودورة مياه مشتركة مع ٤ أشخاص.. قلت الموت أهون من الذلّ ومد الإيد»[١].

كلمات تلخّص حالة نفيسة حسن يوسف أحمد (٣٥ سنة)، التي ألقت بنفسها من أعلى كوبري قصر النيل في مطلع شهر يونيو ٢٠١٠ وأنقذتها العناية الإلهيّة من موت محقّق. يكفي أن نشير إلى أنّها حاولت التخلص من حياتها ٣ مرات، في الأولى ألقت بنفسها من أعلى كوبري مسطرد في ترعة الإسماعيليّة وتناولت موادَّ سامّة ـ بعد تعرضها لصدمات وقسوة وإدخالها مستشفى الأمراض النفسيّة ـ إلى أن سمعت أنّ مياه النيل تحمل الموت الأكيد، فقفزت من أعلى كوبري قصر النيل.

البعض قد ينتحر نتيجة الشعور بالخزي الاجتماعيّ، ومن هؤلاء نجل الفنانة إجلال زكي ـ التي اشتهرت بدور الفتاة الجادّة في مسرحيّة «سك على بناتك» ـ الذي كان معيدًا في كليّة الاقتصاد والعلوم السياسيّة في منتصف تسعينيات القرن العشرين، لكنّه انتحر في حمام منزله. وكانت إجلال زكي قد وُجهت لها في وقت سابق تهمة التورط في أعمال منافية للآداب[٢].

الحرمان من حياة طبيعية، وحقوق إنسانيّة أصيلة، جزء مؤلم من ظاهرة الانتحار التي تكبر مثل كرة الثلج في بلادنا.

ولنأخذ على ذلك مثلاً هاجس العنوسة.

إذ تشير إحصائيّة رسميّة إلى أنّ نحو ٢٧٠٠ فتاة تقدِمن على الانتحار سنويًّا في مصر، بسبب العنوسة، وأنّ نسبة العنوسة بين فتيات مصر وصلت إلى ٣٠٪[٣]. وفي عام ٢٠٠٧، كانت مصر تضم ٩ ملايين عانس من بين ١٣ مليون فتاة في سنّ الزواج، وهناك ٤ ملايين فتاة تخطين سنّ الخامسة والثلاثين بدون زواج. ولنتذكر أنّ التقرير الصادر عن المركز القوميّ للبحوث في شهر يونيو ٢٠١٠ أكّد انتحار ٢٥٠٠ فتاة سنويًّا بسبب العنوسة[٤].

---

(١) فاطمة أبو شنب، صاحبة محاولة الانتحار الفاشلة: أسعد لحظات حياتي أثناء سقوطي في مياه النيل، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١١ يونيو ٢٠١٠.

(٢) جريدة «الوفد»، القاهرة، ٢ مارس ١٩٩٢.

(٣) همام سرحان، مصدر سابق.

(٤) د. محمود خليل، لماذا ينتحر المصريون؟، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٤ يوليو ٢٠١٠.

ومن هؤلاء، سميرة، وهي معيدة بكليّة التمريض في جامعة عين شمس، عانت الاكتئاب لسنوات بسبب تخطيها سنّ الأربعين دون أن يتقدّم أحد لخطبتها، فحاولت الانتحار أكثر من مرة، إلى أن تمكّنت من إلقاء نفسها من بلكونة وهي تمسك بزجاجة مياه فارغة بيدها، وعندما ظلت على قيد الحياة طعنت نفسها عدة طعنات نافذة بالزجاجة حتى لفظت أنفاسها الأخيرة[1].

وقد تكون الصدمات العاطفيّة سببـاً في اليأس.

هنا نتذكر مقولة الكتاب والفلاسفة الغربيين: «الرومانسيون كانوا آخر المختصّين بالانتحار. بعدهم صار الانتحار عرضة إلى عدم الاتقان. من أجل تحسين نوعيته، نحن في حاجة كبيرة إلى مرض جديد للعصر»[2].

وعندما يصاب الفرد بصدمة عاطفيّة، أو ماليّة أو اجتماعيّة فإنّه مباشرة يفكر في الانسحاب من الوجود؛ لأنّه لا يشعر بالارتباط مع أيّة فئة اجتماعيّة بما أنّ علاقته بالمجتمع كانت مبنيّة على المصلحة الخاصّة والنزعة الفرديّة والأنانيّة المُطلقة[3].

ومن هذه الفئة، قتيل كوبري قصر النيل، عمرو موسى عبداللطيف.

لم يرغب عمرو (٣١ سنة) في التخلّي عن حبيبته، لم يستسلم لكلمات الأب الذي أراد لابنته عريسـاً ثريًا. حسم أمره سريعـاً، وقادته قدماه من دير الناحية بمنطقة ميت عقبة، حيث يقيم، إلى كوبري قصر النيل. ربط طرفه في سور الكوبري وترك الطرف الآخر يلتف حول رقبته[4]. ألقى بجسده ناحية النيل الذي طالما رسم على صفحة مياهه صورة حبيبته، لم يسقط، لكنّه ظلّ معلقـاً بضع ساعات بالقدمين المُعلّقتين والجسد الهامد البارد.. ينتظر يدًا تمتدّ إلى ملابسه لتلتقط رسالته الأخيرة، التي طلب

---

(١) محمود عبدالراضي، انتحار معيدة بجامعة عين شمس لتجاوزها الأربعين دون زواج بأكتوبر، جريدة «اليوم السابع»، القاهرة، ٢٧ يونيو ٢٠١٠.

(٢) إميل سيوران، المياه كلها بلون الغرق، ترجمة: آدم فتحي، منشورات الجمل، كولونيا: ألمانيا، ٢٠٠٣، ص ٣٠.

(٣) معن خليل العمر، التفكك الاجتماع، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٦.

(٤) إبراهيم أحمد، بالصور.. شابّ يشنق نفسه على كوبري قصر النيل لفشله في الزواج من حبيبته .. آخر كلماته: «أستطيع ترك الدنيا لكني لا أستطيع أن أترك حبيبتي»، جريدة «اليوم السابع»، القاهرة، ٢ يونيو ٢٠١٠.

فيها إبلاغ ابنة الجيران «منى» أنّه عاش لأجلها.. ومات لأنّه يحبّها[1]. المنتحر قال أيضًا في رسالته لحبيبته إنّه يستطيع ترك الدنيا لكنّه لا يستطيع الحياة بدونها.

انتحار عمرو بحبل وعلى كوبري العشاق تبدو في نظر البعض نقطة تحول في جريمة قتل النفس في مصر، وهي واقعة تعد إنذارًا مبكرًا وشديد اللهجة من الطبقات الكادحة إلى الحكومة ولكلّ الطبقات المرفهة، حيث إنّ مكان الانتحار يعتبر موقعًا استراتيجيًا يقع أمام الفنادق الكبرى[2].

هذه الحادثة تذكّرنا بانتحار الطالب المتفوق عبدالحميد شتا خريج كليّة الاقتصاد والعلوم السياسيّة بتفوق، وذلك لرفض تعيينه ملحقًا تجاريًا، بدعوى أنّ الشاب ـ الذي خرج من قرية الغرباوي في محافظة الدقهليّة[3] ـ غير لائق اجتماعيًا، على رغم اجتيازه اختبارات القبول ونجاحه بتفوق على أقرانه المُتقدّمين للوظيفة[4]. انتحر عبدالحميد شتا، بعد أن أخذوا ابن شقيقة رئيس لجنة الامتحان، فمنحته الصحافة المصرية لقب «شهيد الإحباط»[5].

حكاية الشاب الذي شنق نفسه فوق كوبري قصر النيل، ذكرتنا أيضًا بحادثة جرت في الصعيد عام ٢٠٠٧، بطلها مكوجي اسمه ميخائيل بطرس أبادير، قتل نفسه بالسُّمّ بعد ثلاث سنوات من الاكتئاب والعلاج النفسي. لم ينتحر ميخائيل بسبب قصة حب فاشلة، أو لعجزه عن سداد ديونه، وإنما لأن أحدًا لم يعد يحتاجه.

دفعته نساء إسنا للانتحار حين أقبلن على شراء مكاوٍ كهربائية واستغنين عن خدماته. قل زبائنه، وضاق رزقه. فعل أقصى ما يستطيع كي يستمرّ، خفّض أسعار الكي، وكوى أحيانًا بالمجان، ووصّل الطلبات للمنازل، طاف بالبيوت يقرع أبوابها كي يحمل ربطات الملابس كما اعتاد، لكنّه لم يجد سوى الصدّ والتجاهل. عاد كسيفًا وهو يلعن الكهرباء والمكاوي والنساء وإسنا، فقرّر أن ينهي حياته وهو بعد في الخمسين[6].

---

(١) السيد أحمد، وصية شهيد الحب الذي شنق نفسه على كوبري قصر النيل، جريدة «الفجر»، القاهرة، ٦ يونيو ٢٠١٠.

(٢) ممدوح حُسن، مصدر سابق.

(٣) عزت السعدني، مرجع سابق.

(٤) محمد حامد الجمل، ظاهرة انتحار الشباب المصري، جريدة «الوفد»، القاهرة، ١٢ يونيو ٢٠١٠.

(٥) عزت السعدني، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٦) عماد الغزالي، انكسار الروح، مصدر سابق.

لقد كثر المنتحرون الذين لا يجدون أملاً في التغيير، ولا يجدون قدرة على مقاومة. هنا يقوم المنتحر بعملية تدمير ضدّ ما يقدر عليه: ذاته.

وها هم المرفوضون اجتماعيًّا يتزايدون في المجتمع ويشكلّون قوة رافضة للأوضاع، علمـًا أنّ فريقـًا منهم مصاب باكتئاب نفسيٍّ شديد، الأمر الذي يجعل فكرة الانتحار واردة. وقد أشار ويرزليكي M. Wierzlicki إلى أنّ محاولة الانتحار مرتبطة إلى حد بعيد بمتغيرات سلوكيّة ونفسيّة معيّنة، أهمها الاكتئاب، والشعور بالوحدة النفسيّة وضغوط الحياة الشديدة والألم أو فقدان شيء أو شخص عزيز وإن كان الاكتئاب يعتبر أكبر منبه ودافع لتصوّر الانتحار. غير أنّ هذه العلاقة بين الاكتئاب والانتحار قد أثارت جدلاً عميقـًا ونقاشـًا كبيرًا بين الباحثين[١]، إذ ألحّ بعضهم على ضرورة اقتران الاكتئاب باليأس حتّى تزداد احتماليّة وقوع الانتحار[٢].

ويشير التراث النفسيّ في موضوع الانتحار إلى أنّ اليأس له تأثير بالنسبة للعلاقة بين الاكتئاب ونية الانتحار، وأنّ اليأس أقوى تأثيرًا في نيّة الانتحار إذا ما قورن بالاكتئاب[٣].

دعونا نتذكّر أنّ في مصر نحو ١,٥ مليون مصاب بالاكتئاب الحادّ، في حين أنّ الإحصائيّات العلميّة تؤكّد أنّ ١٥٪ من هؤلاء المصابين بالاكتئاب الحادّ **يلجؤون إلى الانتحار للتخلص من معاناة هذا المرض**[٤]. ويقول د. هشام عادل صادق، مدرس الأمراض النفسيّة والعصبيّة في كلية طب عين شمس، إنّه تعامل مع كثيرين مصابين بمختلف أنواع الأمراض، لم يجرؤ أحد منهم على الانتحار، إلا مريض الاكتئاب والذي يفكر ويخطط ويقدم على الانتحار بمنتهى السهولة ويستخدم الوسائل الأكيدة

---

(١) طاس وازي، مصدر سابق.

(٢) حسين علي فايد، المشكلات النفسية الاجتماعية، رؤية تفسيرية، طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.

(٣) Denis Salter and Stephen Platt, Suicidal intent, hopelessness and depression in a parasucide population: The influence of social desirability and elapsed time, British Journal of Clinical Psychology, November 29, 199, pp. 361-371.

(٤) وفاء بكري، الدكتور أحمد عكاشة في ندوة بـ«المصري اليوم»: ١,٥ مليون مصري مصابون بـ«اكتئاب جسيم».. و١٥٪ يلجأون لـ«الانتحار»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٩ أكتوبر ٢٠٠٨.

ليضمن نجاح الخطة والوصول لغايته، وهي الموت للتخلص من شعوره البغيض، والذي يتمثل في فقدان لذة وطعم ومعنى ومتعة أي شيء في الحياة والضيق والحزن والظلمة التامة من حوله[1].

وهذا يقودنا إلى غياب أو تغييب الصحة النفسيّة في بلادنا.

وبينما تنصح منظمة الصّحة العالميّة بأن تكون ميزانية الصّحة النفسيّة نحو ١٠٪ من ميزانية الصّحة العامّة، نجد أنّها لا تزيد على ٥ ,١٪ في البلاد الفقيرة، و٣٪ في البلاد متوسطة الدخل. أمّا في البلاد مرتفعة الدخل فلا تزيد على ٧٪، ناهيك عن أنّ ميزانية الصّحة العامّة في البلاد منخفضة الدخل تتراوح بين ٣ و٧٪ من الميزانيّة العامّة وتصل في الولايات المتحدة إلى نحو ١٤٪ من الميزانيّة العامّة، وللأسف في مصر لا تتجاوز ميزانيّة الصّحة ٣٪ من الميزانيّة الكليّة وهي أقلّ من معظم البلاد العربيّة والإفريقيّة[2].

حوادث الانتحار في مصر بدأت تأخذ في السنوات الأخيرة طابعـًا مختلفـًا، بإقدام ربّ الأسرة على قتل أسرته أو بعض أفرادها ثم إزهاق روحه. وربّما كان أبرز ما تحفظه الذاكرة هو تنفيذ شريف كمال الدين حافظ (٥٦ سنة)، وهو صاحب شركة كمبيوتر في مصر الجديدة، مذبحة عائليّة، إذ أنهى حياة زوجته وابنيه ببلطة وقطع شريان يده محاولًا التخلص من حياته. وتبيّن أثناء التحقيق أنّه نفذ الجريمة لمروره بضائقة ماليّة وأنّه كان يخشى على أسرته معاناة الفقر، فاتخذ قرارًا بقتلهم وتخليصهم من الحياة، حتّى لا تصدمهم ديونه والمتطلبات الماديّة التي يواجهها[3].

كذلك حال الشاب الذي رفضت زوجته العودة إليه بعد فصله من عمله فأخذ ابنته في حضنه وقفز من الطابق السادس، والفتاة التي ألقت بنفسها في النيل لعدم قدرة والدها على دفع مصروفاتها الدراسيّة.

---

(١) د. هشام عادل صادق، الانتحار.. لماذا؟، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٦ يوليو ٢٠١٠.

(٢) شريف عاشور، د. أحمد عكاشة في «الكونجرس الإسكندنافي»: المصري ليس جديرًا بحقوقه ما دام ينتظرها «هبة» من الحاكم، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٩ أكتوبر ٢٠٠٩.

(٣) عمر حسانين وفاطمة أبو شنب، مهندس ينفذ مذبحة في مصر الجديدة بقتل زوجته وابنيه ويحاول الانتحار، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٦ يناير ٢٠٠٩.

ويبدو أن صفحات الحوادث هي إحدى المرايا التي تعبر بصدق عن الأحوال الاجتماعيّة والاقتصاديّة في مصر الحقيقيّة، بعيدًا عن أيّ تصريحات ورديّة بشأن التنمية أو مُؤشّرات الاقتصاد المختلفة.

إنّ التطورات التي شهدتها مصر خلال العقدين الأخيرين أظهرت عجز المواطن العادي عن الوفاء بأبسط الالتزامات، برغم ارتفاع بند أجور العاملين في القطاع الحكوميّ في الموازنة العامة ٢٠٠٩- ٢٠١٠ إلى نحو ٨٦ مليار جنيه، ليصل في خطة موازنة ٢٠١٠- ٢٠١١ إلى ٩٦ مليار جنيه[١].

ومع الاختلالات الكبيرة في الأجور، شهدنا إلغاء الدعم عن مستلزمات الإنتاج الزراعيّ، وتحرير سعر الفائدة على القروض الزراعيّة الائتمانيّة، وحرمان صغار المُلاك ممّا كان مقررًا لهم من إعفاء ضريبي. وأسفر ذلك كله عن هيمنة مافيا الاستيراد والتصدير والقوى الاحتكاريّة على مقدّرات الزراعة والمزارعين، فتفاقمت معدلات البطالة الريفيّة وتدهورت أوضاع العمالة الزراعيّة وعمّال التراحيل[٢].

وتزايدت حالات الإضراب والاعتصام في المصانع وحركات الاحتجاج في الريف. وأصبحت الأحياء العشوائيّة مناطق نفوذ لجماعات العنف الأصوليّة، ومنابع للإرهاب والجريمة والظواهر المقلقة من أطفال الشوارع إلى الاتجار في المخدّرات[٣].

وعن البطالة حدّث ولا حرج!

فقد أظهر تقرير الأداء الاقتصاديّ ـ الذي تصدره وزارة التنمية الاقتصاديّة ـ للربع الثاني من العام المالي ٢٠٠٩- ٢٠١٠ ارتفاع عدد المتعطلين عن العمل إلى ٢,٣٧ مليون شاب، وسط انحسار لفرص العمل الجديدة، إلى جانب ارتفاع فرص

(١) عثمان: الحديث عن وجود فجوة في الأجور (غير صحيح)، جريدة «الشروق»، القاهرة، ١٥ مايو ٢٠١٠.

(٢) عزة عبدالمحسن خليل، «الحركات الاجتماعية في العالم العربي.. ورقة عامة»، في: عزة عبدالمحسن خليل، (محرر)، الحركات الاجتماعية في العالم العربي، مركز البحوث العربية والإفريقية، القاهرة، ٢٠٠٦.

(٣) د. ياسر ثابت، قصة الثروة في مصر، دار ميريت، القاهرة، ٢٠١٢، ص ٣٣٦.

العمل التي وفرّتها مكاتب التشغيل، في مقابل تراجع كبير من جانب القطاع الخاصّ والاستثماري وشركات إلحاق العمالة بالخارج[1].

بدوره، كشف تقرير للجهاز المركزيّ للتعبئة العامّة والإحصاء عن زيادة معدل البطالة إلى ٩,٤٪ من إجمالي السكان القادرين على العمل وارتفاع عدد المتعطّلين عن العمل إلى ٢,٣ مليون حتّى عام ٢٠٠٩. وأشار الجهاز إلى أنّ النسبة الأعلى من المُتعطّلين عن العمل تتركز في الفئة العمريّة من ٢٠ إلى ٢٤ سنة، حيث تصل نسبة البطالة بينهم إلى ٤٦,٨٪، بينما تصل النسبة إلى ٢١٪ بين الفئة العمريّة من ٢٥ إلى ٢٩ سنة[2]. غير أنّ الخبير الاقتصادي أحمد السيد النجار ذكر في دراسة حديثة له أنّ عدد العاطلين لا يقل عن ٩ ملايين عاطل على الأقل أو ٢٨٪ من قوة العمل المصرية وَفقـًا لتعدادها الحقيقيّ[3].

وبحسب أرقام الجهاز المركزيّ للتعبئة العامّة والإحصاء، بلغت نسبة المشتغلين بأجر نقديّ ٦١,٦٪ من إجمالي المشتغلين، مقابل ١٢٪ يعمل لحسابه وليس موظفـًا عند أحد، و١١,٧٪ يعمل لدى الأسرة بدون أجر. وحتّى تكتمل الصورة، نقول إن نسبة الـ٢٣,٧٪ المنتمين للفئتين الأخيرتين لا يمكن اعتبارهما من ضمن فئة المشتغلين بشكل لائق، فأغلبيتهم عمالة غير منظمة وغير مؤمن عليها أو تعمل بدون أجر[4].

(١) أميرة صالح، «الحكومة»: عدد المتعطلين عن العمل تجاوز ٢ مليون شاب وتراجع قدرة القطاع الخاص على توفير فرص جديدة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٠ فبراير ٢٠١٠. عمل جديدة

(٢) أميرة صالح، «المركزي للإحصاء»: ٢,٣ مليون عاطل.. ونسبة البطالة ٩,٤٪، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٣٠ أبريل ٢٠١٠.

(٣) كرم أصلان، أحمد النجار يكشف في دراسة جديدة «الإنجازات الاقتصاديّة» لولاية مبارك الخامسة، مرجع سابق.

(٤) ميريت مجدي، استقرار معدّل البطالة خلال الربع الأخير من ٢٠٠٩، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٣ فبراير ٢٠١٠.



الانتحار طريقًا للثورة

«لا ينتحر إلا المتفائلون، المتفائلون الذين لم يعودوا قادرين على الاستمرار في التفاؤل. أما الآخرون، فلماذا يكون لهم مبرر للموت وهم لا يملكون مبررًا للحياة؟»[1]

في شهر يناير من العام ١٩٦٩، تقدّم شابٌ، بعد أن سكب البنزين على جسده، إلى ساحة وينيسلاس، ثم أشعل النار في نفسه: كانت تلك حركة يأس للتعبير عن غياب المخرج إثر انتفاضة «ربيع براغ» قبل نحو عام تقريبـًا.

هذا الشابّ، يان بالاش، بات بالنسبة لجيل الشباب الأوربيّين الغربيّين منهم والشرقيّين، رمزًا مأساويًا وبطوليًا في الآن نفسه. ففي نظر هؤلاء الشبّان الأوربيّين، ما الذي يمكنه أن يكون أنثروبولوجيـًا أكثر من الموت، غير الموت إراديًا وبشكل سريع[2]، في مواجهة المفهوم التقليديّ الذي يعتبر الانتحار فضيحة.

هذا الشاب التشيكوسلوفاكي أعاد تكرار ما كان قد قام به راهب بوذي عندما أحرق نفسه في سايغون عام ١٩٦٣ للاعتراض على نظام «نغو دينهديام» المحسوب على الولايات المُتحدة والملتزم الصراع ضدّ فيتنام الشماليّة وحلفائها الجنوبيّين[3].

---

(١) إميل سيوران، مرجع سابق، ص ١١٤.

(٢) انظر: رسالة فاتسلاف هافل إلى غوستاف هوساك عام ١٩٧٥، خاصة المقطع المتعلق بـ«سلام المقابر»، مذكور في «Essais politique»، باريس، كالمان ـ ليفي، «بوان»، ١٩٩٠، ص ٣١.

(٣) François JOYAUX, La nouvelle question d'Extrême-Orient. L'ère du conflit sino-soviétique 1959-1978, Paris, Payot, 1988, p. 104-105.

وبحركة مشابهة، أعاد التونسيّ محمد البوعزيزي في نهاية ٢٠١٠ تغيير المشهد العربيّ، من حيث لا يدري.

ومن عجائب القدر أنّ الساخطين والثائرين في كل بلاد العالم يشعلون الحرائق في جلاديهم، ولكنّ أنظمة عربيّة أوصلت شعبها إلى حالة من اليأس والذلّ والإحباط جعلتهم يشعلون النار في أنفسهم.

وليس أدلّ على رعب البطالة وذل الفقر من مشهد الشبّان اليائسين الذين يُضرمون النار في أجسادهم احتجاجًا على حرمانهم من حقّ العمل.

لقد تحوّل نموذج الشابّ التونسيّ محمّد البوعزيزي إلى رمز عربيّ، بعد أن رفض أن تصفعه موظفة البلديّة فادية حمدي على وجهه، ووجه له زميلها صابر عدّة ركلات، عندما اعترض على مصادرة رأسماله ورزقه الحلال من الخضروات التي كان يبيعها على عربة يد. لم يحتمل الشاب هذا الإيذاء النفسيّ والبدنيّ فذهب بشكواه لرئيسها في البلديّة، فأهانه وسبّه ولم ينصفه، فخرج وأضرم في نفسه النيران ومات متأثرًا بجراحه بعد ١٨ يومًا، زاره خلالها الرئيس المخلوع زين العابدين بن علي، ولكن كانت شرارة الثورة الشعبيّة قد اندلعت وقضي الأمر وفات أوان الاعتذار للشعب[١].

ألقت القصّة بظلالها على البلاد العربيّة، خصوصًا أنّها انتهت بهروب الرئيس بن علي وسقوط نظامه في ١٤ يناير ٢٠١١. وسرعان ما ساد اعتقادٌ في أوساط كثيرين بأن كلمة السر للتغيير في الشارع العربيّ، هي «الانتحار حرقًا».

وفي ظلّ حكومات قمعيّة عاجزة وتنظيمات معارضة منزوعة الدّسم، وفساد مقيم، وشوارع تبث رسائل الإحباط واليأس، وصلنا إلى أن يكون إحراق الجسد ـ قمّة التعبير عن الرأي وأبلغ وسيلة للتفكير وأعظم رسالة لبث صورة المثال والقدوة.

أصبح التونسيّ محمد البوعزيزي، الذي أحرق نفسه، رمزًا لانتفاضة المضطهدين ضد فساد الطبقة الحاكمة، الذي لم يدع لهم سبيلًا للخروج من اليأس إلا الاندفاع في طريق الغضب والاحتجاج.

أشادت الكثير من وسائل الإعلام العربيّة بوفاة البوعزيزي، ووصفتها بأنّها عمل

---

(١) محمد بغدادي، تسمح تولعني، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٣ يناير ٢٠١١.

بطولي أقدم عليه شهيد. بل إن الشيخ يوسف القرضاوي، رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين آنذاك، قال عن انتحار عن البوعزيزي: «الذي ينظر إلى الأمر برمته وبملابساته المختلفة سيجد أن هناك عذرًا لهذا الشاب.. إنّه لم يكن حرًّا عندما اتخذ القرار؛ كان يغلي.. وندعو الله له أن يمنحه العفو والمغفرة.. فهو تسبب في هذا الخير.. وفي إشعال الثورة..»[1]؛ مع أنّ التعاليم الإسلاميّة تعتبره انتحارًا محرّمـًا.

وخلال أيام ظهرت حملة للاحتفاء بانتحار البوعزيزي، حيث عرض رجل أعمال من الكويت مبلغـًا كبيرًا مقابل الحصول على عربة الخضروات التي كان يتكسب منها هذا الشاب التونسي دخلًا ضئيلًا لأسرته.

وربّما كان لردود الفعل الإيجابيّة هذه دور في محاولات انتحار أخرى في المنطقة العربيّة، بسبب قواسم مشتركة تتمثل في استمرار احتكار السلطة، وانتشار الفساد، وغياب العدالة الاجتماعيّة، وفقدان الهُويّة.

وخلال شهر واحد، أشعل حوَالَي ثلاثين شخصـًا النار في أجسادهم، في كلّ من تونس والجزائر والمغرب وموريتانيا ومصر والسعوديّة والسودان واليمن.

في تونس، وقعت محاولات انتحار بالجملة في مطلع يناير ٢٠١١. ففي سيدي بوزيد، حاولت امرأة الانتحار مع أطفالها الثلاثة، بعدما تسلّقت عمود إنارة احتجاجـًا على تردي أوضاعها المعيشيّة. غير أنّ السلطات المعنيّة قطعت التيار الكهربائيّ قبل أن يجري إقناعها بالعدول عن فكرتها، بعدما وعدها مسؤولون محلّيّون بالنظر في حالتها الاجتماعيّة.

وفي منطقة جبنيانة الريفيّة التابعة لولاية صفاقس، فرّقت الشرطة تظاهرة لتلاميذ معهد ثانويّ، فيما أشارت مصادر نقابيّة الى محاولات انتحار. وفي بلدة الرقاب هدّد حامد السليمي (٢٦ عامـًا) العاطل من العمل بالانتحار بالتيار الكهربائيّ بعدما صعد إلى عمود إنارة للتنديد بالفساد، وعدم تكافؤ الفرص، قبل أن يتلقّى وعدًا من السلطات المحلية بتوفير عمل له.

---

(١) د. عبدالرحمن الحبيب، الانتحار احتجاجـًا.. العولمة تتفرج!، جريدة «الجزيرة»، الرياض، ٢٦ مارس ٢٠١٢.

وفي مدينة المتلوي المنجمية أضرم العاطل من العمل مصباح الجوهري النار في جسده، ونُقل الى المستشفى، حسبما ذكر أحد الأهالي. وفي مدينة الشابة عُثر على محمد سليمان (٥٢ عامـاً)، وهو عامل بناء ووالد لأربعة أطفال، منتحرًا شنقـاً[1].

في الجزائر، على سبيل المثال، تُوفّي مواطن في السابعة والثلاثين بلا وظيفة أو مسكن متاثرًا بحروق أصيب بها نتيجة إشعاله النار في نفسه أمام بلدية بوخضرة في منطقة تبسة القريبة من الحدود مع تونس. وقالت أسرة محسن بوطرفيف إنّه لفظ أنفاسه الأخيرة في قسم الحروق الشديدة بمستشفى ابن رشد في عنابة الذي نقل إليه بعد أن أغرق نفسه بالبنزين ثم أشعل النار أمام بلديّة بوخضرة.

وقد أراد الرجل وهو أبٌ لطفلة بهذا العمل اليائس التنديد بما وصفه بالاحتقار الذي عامله به مسؤولو بلديّة بوخضرة عندما تقدّم بطلب للحصول على عمل. وأدّى ذلك إلى إقالة رئيس بلديّة بوخضرة من قبل والي تبسة الذي توجّه إلى المكان.

وكان بوطرفيف ضمن مجموعة ضمّت نحو عشرين شابـاً تجمّعوا أمام مقرّ البلديّة احتجاجـاً على رفض رئيسها لقاءهم لبحث مطالبهم بالحصول على عمل وسكن.[2]

كما سجلت محاولات انتحار أخرى عن طريق الحرق في الجزائر خلال شهر يناير من عام ٢٠١١.

فقد أقدم ربّ عائلة متكوّنة من ستة أفراد يقطن بحيّ أولاد أحمد بمدينة الوادي، على محاولة الانتحار حرقـاً بالبنزين في السوق، لكن تدخّل المواطنين حال دون وقوع الكارثة.

وتتشابه قصّة عفيف حضري (٣٧ عامـاً) الذي يعيل أهله وأولاده، مع قصة الشابّ التونسي محمد البوعزيزي، في أغلب التفاصيل، حيث نقل الضحية لمقربيه أنّ شرطيًّا ظل يضايقه يوميـاً لرفع طاولته من السوق التي نصبها منذ ثلاث سنوات في السوق المركزية.

---

(١) تونس: عمليات انتحار بالجملة، جريدة «الأخبار»، بيروت، ٨ يناير ٢٠١١.

(٢) الجزائر: وفاة شاب من أربعة أحرقوا أنفسهم احتجاجـًا على البطالة، موقع بي بي سي عربي، ١٦ يناير ٢٠١١.

وقال الضحيّة الذي نقل إلى مستشفى الدويرة بالعاصمة للعلاج إنّ الشرطيّ لم يتوقّف عن مضايقته حتّى ذات نهار، ولم يجد بدًّا من تكرار فعلة البوعزيزي[١].

يذكر أيضـًا أنّ امرأة حاولت هي الأخرى الانتحار حرقـًا ببلديّة بن يوب بولاية سيدي بلعباس غربيّ الجزائر احتجاجـًا على مسؤول محليّ أيضـًا في ١٩ يناير ٢٠١١.

وأشعل شاب عاطل في الرابعة والثلاثين النار في نفسه أمام مقرّ أمنيّ في ولاية مستغانم غربيّ الجزائر لكنّ رجال الشرطة تدخلوا سريعـًا لإطفاء النيران.

كما أشعل شابٌّ في السابعة والعشرين النار في نفسه أمام مركز شرطة مدينة جيجل شرقيّ الجزائر، ويعتقد أيضـًا أنّ ذلك تمّ احتجاجـًا على الأوضاع المعيشيّة.

وحاول رجل في الأربعين الانتحار حرقـًا في برج منايل بولاية بومرداس شرقيّ الجزائر العاصمة. كان الرجل - وهو أب لستّة أبناء- يحتجّ على عدم إدراج اسمه في قوائم إعانات الإسكان. تجمّدت الدموع في مقلتيه، وهبطت كلّ آثام الدنيا وخطايا الإنسان وآلام الحياة كسحابة سوداء فوق رأسه، قبل أن يقرّرالتخلص من حياته.

وأوردت جريدة «الوطن» أنّ شابًّا مصابـًا بخلل عقليّ نقل إلى المستشفى في ١٨ يناير ٢٠١١، بعد أن أضرم النار في نفسه في مدينة دلس الساحليّة، في سابع محاولة انتحار بإضرام النار في الجزائر خلال أسبوع.

وأكّدت مصادر لوكالة الصحافة الفرنسيّة أنّ «الشاب (٣٥ عامـًا) مصاب بمرض عقليّ، وهو أعزب من قرية عفير، وأنّ الواقعة حدثت قرب مقر بلديّة مدينة دلس الساحليّة في محافظة بومرداس»[٢].

يُشار إلى أنّ ٧٥٪ من الجزائريّين تحت سنّ الثلاثين، وتشير تقديرات رسميّة إلى أنّ نسبة البطالة في الجزائر تصل إلى ١٠٪ لكنّ منظمات مستقلّة قدرتها بنحو ٢٥٪.

---

(١) رمضان بلعمري، سادس محاولة انتحار في مصر والثامنة في الجزائر حرقـًا وشنقـًا، موقع العربية نت، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٢) دار الإعلام العربية، مصري خامس يحاول الانتحار احتجاجـًا على عدم منحه وحدة سكنية، مصدر سابق.

في الأردن، فوجئ الرأي العام بنبأ انتحار مواطنين اثنين، بحرق أنفسهم في ظرف أربع وعشرين ساعة، في منتصف يناير ٢٠١١.

أجمع المواطنان الأردنيان في رسالتين منفصلتين على أنّ سبب الانتحار يعود إلى أسباب معيشيّة وظلم تعرض له أحدهما على الأقلّ.

فقد ذكر أحمد المطارنة (٥٢ عامـًا) في رسالة كتبها للعاهل الأردنيّ الملك عبدالله الثاني قبل أن يضرم النار في نفسه أمام مبنى الديوان الملكيّ، إنّ «الفساد في المؤسّسة التي يعمل بها أدّت إلى فقدانه عمله»، حسب قوله.

رحل المطارنة عن عالمنا تاركـًا وراءه ١٣ من البنين والبنات. وحسب ابنه الأكبر علاء، فإنّ أباه «ظلم من قبل مرؤوسيه بعد أن عمل في أمانة عمان لمدة ٢٢ عامـًا، إلا أنّهم أحالوه على المعاش، وانخفض راتبه من ١٢٠٠ دينار أردني - ١٧٠٠ دولار أمريكيّ- إلى ٢٠٠ دينار أردنيّ - ٣٠٠ دولار أمريكيّ- وهو ما أثّر عليه، حيث إنّ لديه ابنتينِ تدرسان في الجامعة، وعليه التزاماتٌ بنكيّة صعّبت عليه تسديد مستحقات ماليّة تراكمت عليه.

أثارت وفاة المطارنة موجة من الغضب على مواقع التواصل الاجتماعيّ، حيث أطلق عليه ناشطون اسم «بوعزيزي الأردن»، مشبهين الأسباب التي دفعته لإحراق نفسه بتلك التي دفعت محمد البوعزيزي في تونس إلى ذلك.

حمّل الناشط في الحراك الشبابي والشعبي، عبد الله محادين، النظام مسؤولية وفاة المطارنة، معتبرًا أنه «أحد ضحايا الفساد المستشري في النظام والمقامرة باموال الشعب ومدخراته»، موضحـًا أن خطوة المطارنة ستدفع الشارع إلى المطالبة بمزيد من الإصلاحات، ومؤكدًا أن من المرفوض أن «يقدم أي مواطن على حرق نفسه أو بيع أطفاله من أجل لقمة العيش».

أمّا أمانة عمان الكبرى، التي كان يعمل فيها المتوفى، فأصدرت بيانـًا عبّرت فيه عن أسفها لوقوع هذا الحادث، موضحة أنّ المطارنة كان قد أحيل إلى الاستيداع بتاريخ مطلع يوليو ٢٠١٠ بموجب قرار لجنة شؤون الموظّفين إلى جانب عدد من زملائه، مؤكّدة حصوله على مبلغ ٨ آلاف دينار تعويضـًا من صندوق الضمان الخاص بموظفي الأمانة، إضافة الى ٧٥٠ دينارًا تسلمها فور تركه العمل.

لم تكن تلك محاولة الانتحار الأولى، فقد حاول أحمد المطارنة الانتحار مرّتين قبل ذلك، الأولى أمام مبنى الأمانة، والثانية أمام الديوان الملكيّ بواسطة السمّ، والثالثة كانت عندما أحرق نفسه[١].

وفي سياق مماثل وبعد مُضيّ يوم من حادثة المطارنة، اختار المعلم ياسين الزعبي الذي يبلغ من العمر ٢٧ عامـًا حرق نفسه تحت صورة للملك عبد الله الثاني في منطقة حيّ نزال في العاصمة عمان «لأسباب معيشيّة».

ويقول أستاذ علم الاجتماع في الجامعة الأردنيّة الدكتور حسين الخزاعي «إنّ الفساد والمحسوبيّة وغلاء المعيشة والفقر والبطالة وسياسية التميز بين أفراد الشعب، أهمّ أسباب الإقدام على الانتحار في الأردن»[٢].

وفي السعوديّة، أضرم مواطن في سنّ الستّين النار في نفسه وفارق الحياة على إثر ذلك. وأفادت التقارير بأنّ المواطن، وهو من منطقة جيزان الجنوبيّة، استخدم مشتقات بتروليّة لإضرام النار، وأنّه فارق الحياة في المستشفى في وقت لاحق[٣].

وبدا الحادث محاكاة لما فعله البوعزيزي في تونس.

وفي المغرب، تُوفّي الشابّ مراد رحو (٢٦ عامـًا) بعد تسريحه من الجيش متأثرًا بجروحه. وأفادت صحيفة «أخبار اليوم» أنّ رحو أحرق نفسه في بنجرير وسط المغرب احتجاجـًا على ظروف معيشته. وأوضح موقع جريدة «الرحمانية» المحليّة أنّ الشاب كان يتلّقى راتبـًا ضئيلاً منذ تسريحه من الجيش في يوليو ٢٠١٠ وأنّه كان يعاني الاكتئاب.

وحسب مسؤول محليّ في الجمعيّة المغربيّة لحقوق الإنسان، فإنّ رحو «صب على نفسه خمسة لترات من الوقود قبل إحراق نفسه في سوق بنجرير الأسبوعيّة وتُوفّي في المستشفى»[٤].

---

(١) محمد السمهوري، وفي الأردن أيضـًا «بوعزيزي»، جريدة «الأخبار»، بيروت، ١٢ يناير ٢٠١٢.
(٢) ناصر شديد، أردنيان ينتحران حرقـًا مثل بوعزيزي بسبب صعوبة المعيشة، موقع بي بي سي عربي، ١٣ يناير ٢٠١١.
(٣) سعودي أضرم النار في نفسه يفارق الحياة موقع بي بي سي عربي، ٢٢ يناير ٢٠١١.
(٤) وفاة مغربي أحرق نفسه احتجاجـًا على ظروف معيشته، موقع بي بي سي عربي، ١٢ فبراير ٢٠١١.

أحدثت ظاهرة الانتحار التي تزايدت معدلاتها فجأة في مصر وفي أقطار عربيّة أخرى، حالة من الدهشة والفزع لدى الرأي العام، حملت كثيرين على التفكير فيما يمكن أن تمثله هذه الظاهرة من خلل اجتماعيّ دفين، تكاد لا تحسّ به النخبة أو يُثير اهتمام الدولة والمسؤولين. وقد ظنّ كثيرون أنّ نظريّة «الدومينو» التي يفسر بها علماء السياسة سقوط الأنظمة السياسيّة المتشابهة أو المتجاورة، يمكن أن تفسر انتشار ظاهرة الانتحار في المجتمعات العربيّة. وبعبارة أخرى خافوا من أن ينتقل السيناريو التونسيّ بكلّ تفاصيله إلى دول عربيّة أخرى[١].

وخلال أيام قليلة، سجّل المصريون أعلى نسبة من حرق النفس والانتحار وإزهاق أرواحهم على عتبات المسؤولين، وبوابات مجلس الشعب، أملاً في أن تتحرك الشعوب أو تتحرك مشاعر الفاسدين والمستبدّين والمحتكرين للثروة والحكم. وفي تقرير لها، قالت مجلة «تايم» الأميركية إن مصر - التي وصفتها بـ«الضعيفة» - تبدو معرضة للهجوم، في إشارة إلى انتشار حالات الانتحار في النصف الثاني من يناير ٢٠١١ [٢].

التفاعلات المُثيرة لهذه الظاهرة ظلّت مستمرة طوال أكثر من شهر، وأخذت رسائلها تتدفق بغير انقطاع وأجراسها ترنّ طوال الوقت.

وإذا كانت مقولة «حاولع في نفسي» تعبيرًا مصريًّا دارجـًا وتهديدًا يتردّد على ألسنة العامّة يوميًّا في أوقات الغضب والضيق، فإنّ «الأمر الجديد هو تحوّر الظاهرة، وتحوّل الانتحار حرقـًا إلى ممارسة علنيّة وعامّة»، كما يُلاحظ د. أحمد عبدالله، أستاذ الطبّ النفسيّ بجامعة الزقازيق. ويشدّد د. عبدالله على أنّ الانتحار في شكله الاحتجاجيّ الجديد «دليل على وجود يأس مطلق وكامل من إصلاح الأحوال بأيّ وسيلة ثانية»، مشيرًا إلى أنّ «في الانتحار بحرق الذات نوع من السمو، فالمنتحر يتحمل ألمـًا هائلاً يدلّ على مدى يأسه واكتئابه، لكنّه لا يوجه العنف تجاه الآخرين ولا يؤذيهم»[٣].

---

(١) سلامة أحمد سلامة، الأمل في الغد!، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٦ يناير ٢٠١١.

(٢) فاطمة زيدان، «تايم»: مصر لن تشهد «ثورة».. والتعليم المصري «الفقير» يخرّج أجيالا تفتقر إلى «المهارات اللازمة للمعارضة»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٣ يناير ٢٠١١.

(٣) أحمد عطية، اكتئاب قومي ثم يأس مطلق.. فانتحار في الطريق العام، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٤ يناير ٢٠١١.

هذا التسامي يضع الحكومات في مأزِق حرج، في رأي روجر بيكر، نائب رئيس مركز ستراتفور الأمريكيّ للدراسات، والذي نشر فيديو على اليوتيوب يعلّق فيه على حالات الانتحار حرقـًا في مصر وتونس. يقول بيكر إنّ الاحتراق يدلّ على جدية ونبل المنتحر واستعداده الحقيقيّ لتحمل المشاق في سبيل لفت الأنظار إلى قضيته، وفي الوقت نفسه فإنّه يوجّه العنف تجاه ذاته ممّا يحدّ من قدرة الحكومة على إدانته[١].

على أن أثر الصدمة الذي خلَّفته موجة محاولات الانتحار في يناير ٢٠١١ أخذ يتراجع تدريجيًا. وفي حين أنّ انتحار البوعزيزي حرَّك مشاعر العالم العربيّ، فإنّ محاولات الانتحار التالية لم تعد تهيمن على الصفحات الأولى في الصحف، بل وأثارت موجة من الانتقادات.

ومع ذلك، فقد أبدت حكومات عربيّة قلقها من الظاهرة، واتخذت إجراءات للتصدي لها.

في الجزائر مثلاً، ما إن مرّت ساعات على إعلان الصحف الجزائريّة أنّ شخصـًا يدعى معامير لطفي حاول الانتحار بإضرام النار في نفسه في مدينة الوادي، احتجاجـًا على ظروفه المعيشيّة السيّئة، حتّى نقل الموقع الإلكترونيّ لصحيفة «ليبرتي» عن مصدر وصفته بـ»العليم»، قوله إنّ «الرئيس عبد العزيز بوتفليقة أمر الأجهزة الأمنيّة بإجراء تحقيق في ظاهرة محاولة بعض الشباب الانتحار حرقـًا، يتضمّن تحديد وضعيّتهم الاجتماعيّة وتوجهاتهم مع اقتراح حلول تقدّم بسرعة إلى رئاسة الجمهوريّة»[٢]. وكشف مصدر جزائريّ أنّ رئيس الحكومة أحمد أويحيى أمر ولاة المحافظات الـ٤٨ ورؤساء الدوائر والبلديات باستقبال المواطنين والاستماع إلى مطالبهم والإجابة الفوريّة عنها من دون إرجاء أو تأجيل. يضاف إلى ذلك تعليق تطبيق القرارات القضائيّة التي تقضي بطرد مواطنين يشغلون مساكن بطرق غير قانونيّة إلى وقت لاحق.

وقرّرت السلطات الجزائريّة وضع خطة عاجلة من محورين لمعالجة تزايد ظاهرة

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) يو. بي. آي؛ أ. ف. ب، بوتفليقة يحقّق في ظاهرة الانتحار، جريدة «الأخبار»، بيروت، ١٩ يناير ٢٠١١.

إقدام مواطنين في البلاد على إضرام النار في أجسادهم. ويتعلّق المحور الأول بتنفيذ حملة توعية عبر المساجد من أجل إقناع الجزائريّين بأنّ هذا الفعل يعتبر انتحارًا ويحرّمه الدين الإسلاميّ، أمّا المحور الثاني فهو إنشاء خليّة أزمة تابعة لوزير الداخليّة دحو ولد قابليّة. وتعمل خليّة الأزمة على دراسة سبل امتصاص غضب المحتجّين، وتنفيذ تعليمات رئيس الوزراء الجزائريّ أحمد أويحيى العاجلة لجميع المحافظين، والتي أكّد فيها ضرورة الاهتمام بتلبية طلبات المواطنين[١].

وفي دول عربيّة مختلفة، قام العديد من المعالجين النفسيّين بالإضافة إلى فاعلين في المجتمع المدنيّ بوضع أنفسهم في خدمة هذه الحالات التي تحاول الانتحار بغية معالجتها، منها على سبيل المثال SOS انتحار ـ فينيكس و SOS صداقة في الجزائر. أمّا فيما يتعلّق بالأئمة المسلمين، فقد أخذوا يشدّدون وبشكل متواصل في خطبهم يوم الجمعة على منع هذه الظاهرة. ومن ذلك أنّ المفتى العام في السعوديّة أدان عمليّة حرق النفس في خطبة له يوم ٢١ يناير ٢٠١١[٢].

وفي الحالة المصريّة.. تعدّدت الأسباب، والانتحار واحد.

«الانتحار هو الحلّ»!

شعار يبدو أن عددًا من المعذّبين بحياتهم القاسية رفعوه احتجاجًا على حكومات رأوا أنّها لا تلبّي الحدّ الأدنى من مطالباتهم.

ورأينا في المقابل كيف تسعى الجهات الرسميّة والأمنيّة أمام أي حالة انتحار إلى إثبات أنّ المنتحر مجنون أو مصاب بقلق، أو أنّه يعاني مشكلات عائليّة، أو عاطل عن العمل، من دون أن يتوقّف هؤلاء أمام حقيقة ما إذا كانت لديه مطالبات إنسانيّة يستحق نيلها أم لا. ومن المؤكّد أنّ مواطنًا لن يحرق نفسه، أو ينهي حياته شنقًا أو بالسمّ، لمجرد أنّه «مختل» أو «مريض نفسي»، كان يشاهد نشرات الأخبار التليفزيونيّة فقرّر أن يتفاعل مع الأحداث!

---

(١) وكالات الأنباء، الجزائر تنظم حملة توعية دينية وتشكل خلية أزمة لمواجهة حالات الانتحار حرقًا، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

(٢) Dominique Avon, Suicide, Islam and Politics.. On the recent events in Tunisia, Books and Ideas.net, 6 May 2011.

وللأسف، قد تغيّب بعض التفاصيل والبيانات الدقيقة عن عدد من حالات الانتحار التي شهدتها مصر خلال تلك الفترة، إذ لا نجد الكثير ممّا يلقي الضوء على الحالة النفسيّة التي كان يعانيها المُنتحر في اللّحظة التي اتخذ فيها قراره، وكيف أعدّ العدة لتنفيذ هذا القرار، وكيف نفّذه في النهاية، وهل كان مضطربـاً أم خائر النفس، هادئـاً أم متحمّسـاً، قلقـاً أم غاضبـاً،....إلخ.

الأصعب من ذلك أنّ ما باح به بعض المقدّمين على الانتحار من أسرار حول حالتهم ظلّ في الغالب الأعمّ غير كافٍ، إذ إنّه حين تكون المسارات مثار شكّ، فإنّ المقدم على الانتحار يميل إلى أن يُسيء فهم نفسه وطبيعة أوضاعه، ممّا يجعل ملاحظاته عن حالته مبتسرة ومشوشة أو حتّى مبهمة.

غير أنّ بوسعنا تكوين نماذج اجتماعيّة للانتحار، ليس بتصنيفها مباشرة حسب خواصها الموصوفة مسبقـاً، بل بتصنيف الأسباب التي أنتجتها[1]. وفي يقيننا أننا ننفذ إلى ظاهرة من الظواهر بنحو أفضل حين نعرف سببها وليس حين نعرف فقط خصائصها، وحتّى الجوهريّة منها.

والشاهد أنّ دراسة الدوافع والظروف التي تقود إلى الانتحار ـ بخلاف حالات المرض النفسيّ والاضطراب العقليّ ـ هي التي يجب أن نتوقف عندها في هذه الظروف. وبغض النظر عن دور الدين وتعاليمه التي تنهى عن إهلاك الذات أو قتل النفس ـ وهي تمثل الحاجز الأولي والأقوى الذي يمنع الكثيرين عن أن يلقوا بأنفسهم إلى التهلكة ـ فإنّ غياب الحلم لدى الأفراد، وانسداد أفق المستقبل، وضعف القدرة على مواجهة الواقع والتعامل معه، غالبـاً ما يقدّم الأرضيّة الخصبة أو الحالة النفسيّة التي تدفع إلى الانتحار.. وهو ما تعاني منه المجتمعات العربيّة بدون استثناء[2].

وفي تقديرنا أن عام ٢٠١١ حلّ وعموم الناس في مصر يخيم عليهم شعور بالقلق، وخوف ممّا قد يأتي به الغد. ربّما لا تكون ضغوط الاحتياج الماديّ وعوامل مثل الفقر والبطالة هي السبب الرئيس في ذلك القلق، فالمصريون في غالبيتهم لم يعتادوا على حياة رغدة في أي عهد من العهود، وهم دائمـاً مهيأون لفكرة الكد وراء لقمة العيش.

---

(١) إميل دوركايم، مصدر سابق، ص ١٦١.

(٢) سلامة أحمد سلامة، الأمل في الغد!، مصدر سابق.

قلق المصريين وخوفهم كان مبعثه أنّهم يعيشون حالة ضبابيّة لا يعرفون - حتّى إذا انقشعت - ماذا سيجدون خلفها، ولا يلمحون فيها ضوءًا واضحًا يثقون أنه سيقودهم للخروج منها، ويتوجّسون خيفة من أيادٍ مجهولة يشعرون أنّها تحاصرهم ولا يعرفون هُويّتها الحقيقيّة ولا أغراض أصحابها(١).

كانت مصر المريضة في تلك الفترة في مستنقع يأس جماعيّ بعد أن ترهل النظام السياسيّ وشاخ، واستشرى الفساد وتغول أصحاب السلطة والنفوذ.

وفي ظلّ وضع بائس وتعيس لا يليق بدولة مثل مصر، ارتجل كثيرون الغضب والاحتجاج، وظنّ بعضهم أنّ تجربة البوعزيزي يمكن أن تحدث التأثير المطلوب وتنقل صرخة الاحتجاج في صدورهم إلى الحكومة والسلطة بشكل عامّ. إنّها «جاذبية المثال» التي يستسلم لها بعضهم كما يقول إميل دوركايم(٢).

محمود الجارحي (٢٦ سنة) عاطل من سوهاج. مصطفى راشد (٤٠ سنة) موظّف بكفر الشيخ. بهاء مصطفى، موظّف مفصول بجنوب سيناء. ناجي أنطون (٦١ سنة) موظّف بالمعاش القاهرة. محمد فاروق (٥٠ سنة) محامٍ، القاهرة. أحمد هاشم (٢٥ سنة) عاطل بالإسكندرية.

هؤلاء بعض المصريين الذين أحرقوا أنفسهم أو ألقوا بأجسادهم من الشرفات أو خاطوا أفواههم خلال أسبوع احتجاجًا على البطالة أو سوء المعاملة أو الإهانة(٣).

غير أنّ الانتحار حرقًا أخذ منحى تصاعديًا لافتًا للانتباه عقب الثورة الشعبيّة في تونس.

وهكذا تمكنت قوات الأمن من منع عجوز من الانتحار من أعلى كوبري أكتوبر في ١٢ يناير ٢٠١١، بسبب تفاقم ديونه التي وصلت إلى ١٦٠ ألف جنيه.

وأشعل عبده عبدالمنعم جعفر، صاحب مطعم من مدينة القنطرة غرب في الإسماعيليّة، النار في نفسه أمام مجلس الشعب في القاهرة، احتجاجًا على تعسف

---

(١) محمد هاني، الثورة التي يجب أن تقوم في مصر، مجلة «روز اليوسف»، القاهرة، ٢٢ يناير ٢٠١١.

(٢) دوركايم، مصدر سابق، ص ٨٨.

(٣) وائل جمال، (التنفيس) والتغيير في مصر، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٥ يناير ٢٠١١.

الوحدة المحليّة معه في صرف الخبز المُدعم المخصّص له ولوالدته[1]. مذكرة نيابة السيدة زينب إلى النائب العام تنصّ على أنّ الواقعة تتلّخص في أنّ عبده عبدالمنعم حضر في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين الموافق ١٨ يناير أمام الباب رقم ٣ لمجلس الشعب حاملاً «جركن»، وظلّ يصرخ ويردّد عددًا من الكلمات منها «أمن الدولة يا أمن الدولة حقّي ضاع في الدولة»، فطالبه حرس المجلس بالابتعاد، وعدم الإزعاج، فزاد غضبه وبدأ يصرخ بصوت أعلى وأشعل النيران في نفسه بعد سكب جركن المواد المشتعلة على ملابسه عندما حاول حرس المجلس الاقتراب منه. واستعان الحرس بأسطوانة لإطفاء الحريق من إحدى سيارات الشرطة، وتم إخماد النيران، ونقله إلى مستشفى المنيرة[2].

ورأى نشطاء ومتضامنون في إقدام أحد الأشخاص على حرق نفسه، تحذيرًا للحكومة، معتبرين أنّ الشعب المصريّ كلّه، تحوَّل نتيجة الظروف الاقتصاديّة السيّئة والاجتماعيّة والبطالة والعنوة، إلى قنبلة موقوتة، يمكن أن تنفجر في أيّ لحظة[3].

لم تكن تلك المحاولة سوى بداية لسلسلة محاولات انتحار أمام مجلس الشعب.

مسلسل مأساوي استوقف المتابعين ودفع كاتبًا صحفيًّا إلى الحديث عن «شيطنة الضحية»، قائلاً إنّه «ليس هناك من يقول بأن المختلين نفسيًّا الذين يحرقون أنفسهم أمام المجلس المزور، ما كانوا ليختلوا وتطق أبراج من أدمغتهم لو حصلوا على حياة كريمة حرموا منها، بسبب احتكار الثروة»[4].

---

(١) يسري البدري وفاطمة أبو شنب، النيابة تعيد سماع «صاحب محاولة الانتحار بسبب الخبز».. و«الأمن» يعثر على ٢٤٠٠ جنيه و«فيزا كارد» في غرفته بالفندق، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

(٢) فاطمة أبو شنب، مذكرة النيابة: صاحب المطعم يهدد بالانتحار مرّة ثانية.. ويطلب إيداعه مستشفى الأمراض العقلية، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

(٣) تيسير قوايد، مظاهرة أمام «النائب العام» ترفع العلمين التونسيّ والمصريّ للتضامن مع «المُنتحرين»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

(٤) عزت القمحاوي، لماذا يختل المنتحر أو يترك ابنته وحيدة؟، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٥ يناير ٢٠١١.

ومن المآخذ على مجلس الشعب أنّ البرلمان برئيسه ولجانه لم يفكر في عقد جلسة استماع أو مناقشة حالات الانتحار المتوالية التي يفترض أنّها تمثّل خطرًا. في البداية أحال المجلس قضيّة انتحار المواطن عبده إلى لجنة الاقتراحات والشكاوى، باعتبار أنّ انتحار مواطن وحرقه لنفسه، هو مجرد شكوى أو اقتراح. بعدها توصلّت اللجنة إلى أنّ المواطن عنده شكوى. والتزمت اللجنة والمجلس الصّمت.

المجلس صمت دهرًا ثم أحال موضوع الانتحار إلى اللجنة الدينيّة، لينقله من باب الشكاوى إلى باب الفتاوى. اللجنة الدينيّة مهمّتها أن تبحث الموقف من الانتحار، مع أنّ الأزهر والشيوخ عمومـًا كفوًا المجلس مؤونة البحث وأصدروا فتاوى تحرّم الانتحار. غير أنّ نقل ملف الانتحار إلى اللجنة الدينيّة حوَّله إلى قضية دينيّة في حين أنّه قضيّة اجتماعيّة واقتصاديّة تكشف عن اختلال موازين العدالة والفساد، و انقطاع الاتصال بين السلطة والمواطنين[1].

وكي نعرف حجم كرة الثلج التي تتدحرج، لنستعرض وقائع محاولات الانتحار خلال يوم واحد: ١٨ يناير ٢٠١١.

فقد أشعل المحامي محمد فاروق محمد حسن (٥٠ سنة)، النار في نفسه أمام مجلس الشعب، وتمكّنت قوات التأمين من إخماد النيران[2]. برّر الرجل محاولته الانتحار بتباطؤ أجهزة الأمن في البحث عن ابنته طالبة الثانويّ، المتغيّبة منذ شهر ونصف الشهر، في حين رسمت التحقيقات سيناريو مختلفـًا، وتحدّثت عن اعتياد الفتاة الهروب من المنزل، وأنّها على علاقة بشاب كان يحرضها على الهروب. وقبل محاولته الانتحار بيوم واحد، ظل الأب يردد أمام عائلته: «لازم نعمل حاجة، البنت لازم ترجع»[3].

وأحبطت أجهزة الأمن محاولة أخرى للانتحار في المكان نفسه، بطلها سيد علي سيد، (٦٥ سنة)، محاسب على المعاش، من مدينة السلام، قبل أن يسكب على نفسه مادة الكحول الأحمر[4].

---

(١) أكرم القصاص، محروقو الداخل.. في برلمان شو، موقع «اليوم السابع» الإلكتروني، ٢٥ يناير ٢٠١١.

(٢) وفاة احد مصريين أشعلا النار في جسديهما، موقع بي بي سي عربي، ١٨ يناير ٢٠١١.

(٣) أشرف غيث، زوجة المحامي: «فاروق» أشعل النار في نفسه احتجاجـًا على تجاهل المسؤولين له في واقعة اختطاف ابنته، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

(٤) يوم الانتحار: محام يحرق نفسه.. والأمن يحبط محاولتين.. ووفاة ثالث بالإسكندرية، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

وحاول المواطن محمد عاشور محمد (٥٣ سنة)، فرد أمن سابق في شركة مصر للطيران، إشعال النيران في جسده أمام نقابة الصحفيّين، إلا أنّ أمن النقابة منعه في اللحظات الأخيرة، وتبيّن من تحريات المباحث أنّه أقدم على ذلك لاعتراضه على فصله من العمل ورغبته في العودة إليه مرّة أخرى[١]. وكان مصيره إحالته إلى إدارة الشؤون القانونيّة في مصر للطيران، للتحقيق معه في الواقعة. وقالت الشركة في بيان لها إن عاشور يستغل الأحداث الجارية التي يشهدها الوطن العربي في الإساءة لسمعة الشركة[٢].

وفي الإسكندريّة، تخلص أحمد هاشم السيد (٢٥ سنة) عاطل، من حياته بعد أن قطع شريان يده وأشعل النار في نفسه، ولفظ أنفاسه الأخيرة بعد وصوله إلى المستشفى الجامعيّ، ونسبت الصحف إلى والده قوله إنّه مريض نفسيًّا[٣]. غير أنّ رمضان هاشم، شقيق المنتحر، نفى إصابة شقيقه بأيّ مرضٍ نفسيٍّ بقوله: «لم يعان أحمد طوال عمره من أيّ مرض نفسيٍّ، وكل ما تردّد في الصحف عن ذلك لا أساس له من الصحة، والسبب الرئيس وراء انتحاره، هو توقفه عن العمل لفترة طويلة، وعدم الاستقرار مادياً»[٤].

هذه الحوادث الخطيرة وقعت في يوم واحد.. وما خفي كان أعظم.

أجراس الخطر، دفعت العشرات من شباب حركات «كفاية» و»شباب من أجل العدالة والحرية» و»الجبهة الحرة للتغيير السلمي» و«نساء مع التغيير» إلى تنظيم وقفة احتجاجيّة أمام مكتب النائب العام بالأعلام التونسيّة والمصريّة، للتضامن مع المُنتحرين المصريين.

(١) المصدر نفسه.

(٢) يوسف العومي ومحمد كامل، إحالة موظّف «مصر للطيران» الذي حاول الانتحار للتحقيق و»الشركة»: يتقاضى ٤٦٠٠ جنيه شهريًا ويحاول استغلال الأحداث، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٣) نبيل أبو شال وناصر الشرقاوي، مصرع شابّ أشعل النار في جسده بالإسكندريّة.. ووالده: أحمد مريض نفسيًّا، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

(٤) عمر حسانين ومحمد غريب وهبة حامد، تشييع جنازة «المنتحر حرقًا» بالإسكندرية وشقيقه ينفي أنه مريض نفسيًّا، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٠ يناير ٢٠١١.

وسط هذه الأحداث المُتصاعدة، خرج فاروق حسني، وزير الثقافة حينذاك، بتصريحات قال فيها: «الانتحار حرقـاً أصبح موضة في مصر والوطن العربيّ، والمصريون الذين أشعلوا النيران في أنفسهم لم يكونوا يقصدون الانتحار فعلاً»[١].

وبالتزامن مع تصريحات حكوميّة صدرت في ١٩ يناير لاحتواء الموقف المتفجر، كانت قوات الأمن تلقي القبض على حازم عبدالفتاح، موظف بشركة المياه بمسطرد، أثناء حمله زجاجة فارغة وولاعة أمام محافظة القاهرة، ليهدّد بإشعال النار في نفسه إذا لم يحصل على وحدة سكنيّة في إسكان حديثي الزواج.

غير أنّ الحرس الخاصّ في المحافظة تمكّن من السيطرة على الشابّ البالغ من العمر ٣٥ عامـاً. كشفت التحريّات أنّ الموظّف متزوج حديثـاً، وليس لديه مسكن خاصّ، وتبيّن أنه تقدم للمحافظة عدة مرات للحصول على شقة، لكن المسؤولين لم يعيروه اهتمامـاً. فما كان من الموظف البسيط إلا أنّ أقدم على هذا التصرف في محاولة للفت نظر المسؤولين الحكوميين للحصول على وحدة سكنية[٢].

وكاد محمد عاشور، عامل الأمن بشركة مصر للطيران، ينجح في إشعال النار في جسده أمام نقابة الصحفيين، لفشله في مقابلة الرئيس مبارك لعرض شكواه التي قال إنّها تتضمّن معلومات عن اختراق الأمن القومي المصري، لتقوم الشركة بعد محاولته لقاء الرئيس بنقله إلى مكان آخر، ووقف جميع مكافآته من دون أسباب، حسب روايته.

مسلسل الانتحار تتابعت حلقاته المفزعة، فقد شهدت مصر في ٢٠ يناير، ٦ حوادث انتحار، انتهت بمصرع ٤ مواطنين في القاهرة والإسماعيليّة. ففي الوقت الذي نجح أحمد، الطالب بالمعهد الفنيّ بمدينة السلام، في الانتحار بسبب رفض أهله الزواج من زميلته في المعهد، كانت عزبة خير الله في انتظار حالة انتحار مأساويّة عندما شرع السمكري مسعد سعيد عبدالقادر (٢٥ عامـاً) في الانتحار شنقـاً بعد

---

(١) محمود جاويش، «الطريق إلى ٢٥ يناير.. «المصري اليوم» تكشف أسرار الثورة التي غيرت وجه الوطن (١)»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٥ يناير ٢٠١٢.

(٢) دار الإعلام العربيّة، مصري خامس يحاول الانتحار احتجاجـًا على عدم منحه وحدة سكنيّة، موقع العربيّة نت، ١٩ يناير ٢٠١١.

عجزه عن توفير ١٥ جنيهـاً ثمن الكشف الطبيّ على طفلته الوحيدة، التي لم يتجاوز عمرها ٣ أشهر.

وفي المرج، تخلّص سائق يُدعى يونان فؤاد عبدالمسيح، يعمل في شركة المياه الغازيّة، من حياته بشنق نفسه داخل منزله لعجزه عن سداد ديونه. وفي الإسماعيليّة، تخلّصت فتاة تعاني مرضـاً نفسيًّا من حياتها بإلقاء نفسها من الطابق الثالث بمدينة القنطرة غرب، ولفظت أنفاسها أثناء محاولة إسعافها ونقلها للمستشفى العامّ.

وأحبطت أجهزة الأمن محاولة سائق آخر يُدعى سعيد عبدالفتاح (٦٥ عامـاً) الانتحار بإحراق نفسه أمام مجلس الشعب، بسبب خروجه إلى المعاش وفشله في الحصول على قيمة التأمينات من الشركة التي كان يعمل بها، في الوقت الذي فشل حمادة شعيب، عامل في مقهى، في الانتحار مرتين، الأولى عندما حاول إلقاء نفسه من أعلى كوبري قصر النيل، بسبب فشله في الارتباط بابنة عمّه، وتدخلت قوات الشرطة لمنعه، فأخرج آلة حادة من سترته ليقطع شرايينه، لتنقذه الشرطة مرة أخرى وتنقله إلى المستشفى.[١]

وفي ٢١ يناير، وقعت ٧ محاولات للانتحار تُوفّي منهم ٤ ونجحت قوات الأمن في منع ٣ منهم أمام مجلس الشعب.

وتتالت حوادث الانتحار في مصر طوال الأيام التالية، بوتيرة متصاعدة وتفاصيل كثيرة يطول عنها الحديث.

ونحن لا نبالغ حين قول إن قرار إزهاق الروح مؤلم للجميع، لكن أسبوع الانتحار في مصر، تأسيًّا بتجربة البوعزيزي في تونس، بدا انجرافـاً وراء الظاهرة لأسباب شخصيّة في معظمها، فلم تنجب المأساة سوى مزيد من الألم، وبقيت رياح التغيير - ولو إلى حين - كما لو أنّها على مقاعد الاحتياطي.

على أنّ الظاهرة المقلقة، في ظلّ إقدام عدد من المواطنين على إشعال النيران في أنفسهم، اعتراضـاً على تدهور الحالة الاقتصاديّة، والمشكلات التي يمرّون بها، استدعتْ تفكير السلطات والجهات المعنيّة في حلول سريعة وفعالة.

---

(١) عمر حسانين ويسري البدري وأحمد البحيري، الأزهر يدعو «أولي الأمر» للقضاء على البطالة وتوفير الحياة الكريمة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢١ يناير ٢٠١١.

هنا اختلط الهاجس الأمنيّ بالحملة الدينيّة، والقصد من الاثنين الحدّ من الخسائر في الأرواح ومنع تفاقم الظاهرة المؤلمة. وإذا كانت الحكومة المصريّة لم توجّه إدانة مباشرة للمنتحرين، فإنّ علماء الدين الرسميّين في الأزهر أكّدوا أنّ المُنتحر مخلد في النار، من دون مناقشة للأسباب والدوافع وراء الانتحار.

وفي ختام أسبوع الانتحار (١٥-٢٢ يناير ٢٠١١)، تمحورت خطبة الجمعة (٢١ يناير) في جميع محافظات مصر على «تحريم الانتحار»، وبيان الموقف الشرعيّ لقتل النفس الإنسانيّة.

خارطة الوطن تحدّثت عن نفسها.

فقد استنكر الشيخ صلاح نصار، إمام جامع الأزهر، انتشار ظاهرة الانتحار في الفترة الأخيرة، وأرجعها سببها إلى عدم الإيمان والبعد عن كتاب الله وسنة نبيه، وأنّ انتشارها يرجع لما سمّاه «أسباب واهية». وقال في خطبة الجمعة: «لم تشهد مصر المسلمة ومصر الوسطيّة والاعتدال هذه الظاهرة في تاريخها، ولم تعرف سفك الدماء وقتل النفس مثلما يحدث الآن». ووصف هذه الأفعال بأنّها «غريبة ومستوردة من الخارج»، مضيفـًا: «المنتحر في النار خالدًا فيه»، وأوضح أن انتشارها يؤثر على وحدة المجتمع وعدم استقراره.

وفي المنوفيّة، اختلف أئمة المساجد حول تحريم الانتحار، حيث ذهب بعضهم إلي تكفير المُنتحر؛ لأنّه، بحسب قولهم، أزهق روحه عمدًا، فيما رأى آخرون أنّ المُنتحر «آثم» وليس كافرًا. وأكّد الشيخ إبراهيم إسماعيل، وكيل وزارة الأوقاف بالمحافظة، أنّ تعليماتٍ صادرة بتوحيد خطبة الجمعة حول حرمانيّة المُنتحر، منعـًا لانتشارها.

وفي القليوبيّة، ندّد الخطباء بحوادث الانتحار وحرق النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بالحقّ، ووصفوا عملياتِ الانتحار المُتكرّرة بأنّها «ليست من الإسلام»، وأنّ مرتكبيها خارجون عن تعاليم الدين، فيما وجّه بعض الأئمة رسالة إلى الحكام والمسؤولين بالعمل على حلّ مشكلات المواطنين وتحسين وضعهم الاقتصاديّ، منعـًا لتكرار هذه الحوادث الاحتجاجيّة.

وفي السويس، نظم المئات من قوى سياسيّة وأحزاب المعارضة مظاهرة عقب

الصلاة بميدان الإسعاف بحيّ الأربعين، وردّدوا هتافات مؤيّدة للثورة التونسيّة من بينها «النهارده في تونس بكرة الثورة في مصر»، و«اللي بيحصل مش انتحار دي ثورة شعب من الأسعار»، مطالبين بتغيير النظام القائم في مصر، فيما حاصرت قوات الأمن المظاهرة دون حدوث مصادمات مع المتظاهرين.

وفي الشرقية، أجمع الأئمة على أن ظاهرة الانتحار جريمة تحرمها كافة الأديان، وأنه لا يأس من رحمة الله، ودعوا إلى الصبر على الابتلاء؛ لأنّه، بحسب وصفهم، اختبار من الله تعالى، فيما استند أحد الأئمة على تقرير للجهاز المركزيّ للإحصاء يؤكّد أنّ هناك ١٠٤ آلاف محاولة انتحار في مصر خلال عام واحد وأغلبهم من الشباب في المرحلة العمريّة من ١٥ إلى ٢٥ عاماً.

وفي أسيوط، قال الشيخ محمد الأمين، وكيل وزارة الأوقاف، إنّ المديريّة أبلغت الخطباء كافّة بالحديث عن «حرمة الإسلام في قتل الإنسان نفسه»، فيما أكّد مصدر أمني مسؤول أنّ اللواء أحمد جمال الدين، مدير الأمن، شدّد الوجود الأمنيّ أمام المؤسّسات الحكوميّة والمساجد خشية إقدام الأهالي على إشعال النيران في أنفسهم.

وفي المنيا، تصدّرت قضية الانتحار الخطب كافة، في ظل انتشار أمنيّ ملحوظ حول المساجد، وأكد الدكتور عبدالرؤوف المغربيّ، وكيل وزارة الأوقاف بالمحافظة، أنّه أصدر تعليمات للأئمة بمناقشة فتوى مجمع البحوث الإسلاميّة التي تحرم الانتحار، دون الخوض في أسباب الانتحار مثل الغلاء والبطالة وغيرها. ومن جانبه دعا الشيخ سويفي، واعظ مركز المنيا، المصلّين إلى التّحلي بالصبر على المكاره حتّى ولو كانت أعظم المصائب، مؤكّدًا أنّ المرء يُثاب على قدر صبره، وأنّ الله جعل للصابرين باب في الجنّة[1].

كما تناول خطباء المساجد في جميع مراكز المنيا الحديث عن قتل النفس التي حرّم الله، وأنّ الروح التي في الجسد ليست ملكـاً لابن آدم، إنّما هي ملك لخالقها، وأنّ الدينَ الإسلاميّ وجميع الأديان السماويّة حرمت قتل النفس سواء عن طريق

---

(١) خطباء الجمعة يبشّرون الصابرين بجنة الآخرة.. ويجمعون: المنتحر كافر، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٢ يناير ٢٠١١.

تناول السموم أو الانتحار أو إشعال النار في الجسد. وأكّدوا أن من يقوم بذلك فهو في نار جهنّم، مستشهدين بآيات القرآن والأحاديث النبويّة، كما قال الخطباء إنّ الشيطان يتملّك الإنسان الضعيف فقط ويحاول السيطرة عليه، حيث إنّه يجد فيه الأرض الخصبة لدفعه إلى أيّ عمليات إجراميّة.

وطالبوا جميع المسلمين باللجوء للقرآن والتعرف أكثر على سير الصحابة وطالبوا الشباب ألا ينساقوا إلى الطريق الأسود، وأنّ الحالة الاقتصاديّة ليست مبررًا لأن يُقدم الشابّ على أيّ عمل يصفه الناس بالإجراميّ؛ لأنّه يتسبّب في ترويع أمن المواطنين وتعرض حياتهم إلى الخطر، وأشار الخطباء إلى أنّ أيّ عمل من هذا النوع يغضب الله عزّ وجلّ.

وفي العريش، تناول عدد من خطباء الجمعة ظاهرة الانتحار وتحريمها في الإسلام وتكفير من ينتحر، واعتبر عدد من الخطباء في مساجد الرفاعي والنصر والمالح وعمرو بن العاص وعدد آخر من المساجد أنّ مَن ينتحر هو في النار، وَفقـًا للإسلام وما ورد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي، صلّى الله عليه وسلّم، مشيرين إلى أنّ الإسلام فتح باب الهجرة والسعي في الأرض حال إن ضاقت السبل بأيّ إنسان في الحياة.

وتحدّثت بعض مساجد سيناء، خاصّة في مدينة القنطرة غرب بالإسماعيليّة، عن ظاهرة بعيدة عن الانتحار، وهي الانحلال الاجتماعيّ، ودور الترويج للظاهرة في تدمير المجتمع.

وفي مطروح، التزم خطباء معظم المساجد التابعة للأوقاف بتعليمات الوزارة حول موضوع تناول خطبة الجمعة لمشكلة الانتحار، في حين لم تلتزم بهذه التعليمات المساجد الأهليّة المنتشرة بالمحافظة، حيث تنوّعت الموضوعات التي تناولها خطباء هذه المساجد بعيدًا عن موضوع الانتحار.

ودارت خطبة الجمعة التي ألقاها الشيخ على حامد الرفاعي، إمام وخطيب المسجد الكبير بمدينة مرسى مطروح، حول حرمة الانتحار وجزاء المنتحر في الآخرة، مؤكدًا أن ذلك التصرف يعد خروجـًا على صحيح الدين. ودلل الرفاعي على ذلك بآيات من القرآن، وأحاديث السنة، وطالب بالابتعاد عن إزهاق النفس بالانتحار، لكي لا يكون الإنسان قد خسر دنياه وآخرته بهذا التصرف.

وفي الدقهلية، قال خطيب الجمعة في مسجد السلام بالمنصورة، إنّ الانتحار جريمة كبرى وسوء خاتمة، فالذي يقتل نفسه فرارًا من مصيبة أو ضائقة أو فقر أو نتيجة انفعال وغضب، فإنّه يعرض نفسه لعقوبة الله تعالى، فقد قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ (النساء: ٢٩ـ ٣٠)، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يلجم بها بطنه في نار جهنم خالدًا مُخلّدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بسمّ فسمُّه في يده يتحسّاه في نار جهنم، ومن ابتلي بمصيبة فصبر كان ذلك رفعـًا لدرجاته»، والمصائب أنواع فتكون مرضـًا أو فقد مال أو فقد حبيب كابن أو أخ أو والد أو زوج أو زوجة، فالله تعالى يبتلي عباده بالنعم والمصائب، وهي الخير والشرّ كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥). وأكّد أنّ الله كرم بني آدم وخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأمر الملائكة بالسجود له واستخلفه في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠)، وكذلك فقد كرَّمه على سائر مخلوقاته.

ويقول الشيخ سعد الفقي، وكيل مديرية الأوقاف بالدقهليّة، «أمرنا الله تعالى بالحفاظ على أنفسنا لأنّنا من صنيعة الله ومن تكوينه ومن ثم فقد حرّم الله أن يعتدي الإنسان على غيره أو على نفسه؛ لأنّه بنيان الله في الأرض ولا يجوز هدمه بأيّ حال من الأحوال، ومن ثم حرّم أن يقتل نفسه أو غيره، وفي الحديث الشريف «الإنسان بنيان الله، ملعون من هدمه»، والانتحار جريمة نكراء محرّمة في كل الشرائع السماويّة لا سيّما الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

وشهدت محافظة الإسماعيليّة في خطبة الجمعة المذكورة في معظم مساجدها داخل المدينة وخارجها إدانة شديدة للانتحار، ووصف خطباء الجمعة المنتحر بأنّه كافر ومصيره النار. وقال شيخ مسجد المطافئ، أكبر مساجد مدينة الإسماعيليّة، في خطبته، إنّ الإنسان صنعة الله ولا يجوز تشويه صناعة الله عزّ وجلّ.

أمّا في كفر الشيخ، فلم يلتزم العديد من الخطباء في مدن وقرى المحافظة بتوجيهات الأوقاف بتخصيص خطبة الجمعة لبيان الموقف الشرعيّ من الانتحار وقتل النفس الإنسانيّة. وفي مدينة كفر الشيخ، تباين موضوع الخطبة من مسجد لآخر وكذلك مساجد المدن والقرى المنتشرة بالمحافظة فكانت موضوعات الخطبة ما بين «التوبة وشروطها ـ هلاك النفس والانتحار ـ الربا وآثاره ـ الوحدة الوطنيّة وآثارها ـ الإيمان والعمل الصالح ـ عذاب القبر ـ الحرص على أداء الفرائض ـ إتقان العمل».

والمساجد التي التزمت بتوجيهات الأوقاف أكّدت أنّ الإسلام حرّم القتل عمومـًا سواء قتل النفس بالانتحار أو قتل الغير وترك القصاص لأولي الأمر «يقصدون الحكومة»؛ لأنّها هي الموكلة لها عمليّة القصاص. وقد أثار عدم التزام المساجد تساؤلات عدّة من المُصلّين الذين عرفوا توجيهات الأوقاف، وكان للخطباء ردُّهم أنّ كفر الشيخ من المناطق التي يندر فيها وجود من يقدّمون على هذا العمل؛ لأنّه مجتمع ريفيّ ملتزم ولمعرفة الكثيرين حرمة قتل النفس وتعرضها للهلاك.

وفي الإسكندرية، توحّدت خطب صلاة الجمعة حول فساد المسؤولين الذي جعل الشعب يلجأ إلى محاولات الانتحار بطريقة علنيّة للتعبير بها عن غضبهم مقارنـًا بين الناس في عهد الصحابة أبي بكر وعمر بن الخطاب وبين الآن، حيث أكّد إمام مسجد عباد الرحمن أنّ الناس في عهد عمر كانوا لا يحتاجون إلى شيء حتّى إنّه كان يقول، «هل من دائن فأسدُّ عنه دينه»، وكان يزوّج من لا يملك المال من بيت مال المسلمين، وكان يحمل أجولة الدقيق بنفسه في الليل إلى المحتاجين، حتّى إنّه كان ينام تحت شجرة فقيل له «حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر». وخاطب إمام المسجد الرئيس التونسيّ المخلوع زين العابدين بن علي قائلاً: «حكمتَ، فظلمتَ، فخِفتَ، فهربتَ، يا عابدين».

ووجهت الخطبة للشباب دعوةً بالتوكل على الله والإيمان به والسعي للإصلاح والثقة بقدرة الله على نصرته، من دون اللجوء إلى الكفر بالله والانتحار.

وفي البحر الأحمر، أدّى د. محمود حمدي زقزوق، وزير الأوقاف حينذاك، والمحافظ مجدي القبيصي صلاة الجمعة في مسجد عبدالمنعم رياض، وتركّزت الخطب في مساجد المحافظة على تحريم ظاهرة إقدام عدد من الشباب والفتيات

علي الانتحار حرقـًا. وألقى الشيخ شوقي عبداللطيف، رئيس القطاع الدينيّ بوزارة الأوقاف، خطبة تناول فيها تحريم الدين الإسلاميّ للانتحار وحرق النفس، والإضرار بالبدن، كما طالب المستثمرين بمعاونة الدولة في توفير فرص عمل للشباب للحدّ من البطالة.

في الوادي الجديد، كانت توجيهات مديريّة الأوقاف لكلّ الخطباء بشكل ضمنيّ عن محورينِ أساسيينِ، هما تحريم الانتحار، وقتل النفس، مهما كانت الأسباب، وهو ما التزم به معظم خطباء المحافظة وتطرق بعضهم عن أسباب الرزق والسعي إليه، وطرحوا نماذج عن الصبر وجزاء الصبر، وآخرين تطرّقوا إلى الحديث عن فرص العمل وأنّها ستكون متاحة بشكل كبير خلال الأيام المقبلة، وَفقـًا لإمام مسجد عمر بن الخطاب بحيّ الخارجة القديمة، وبعضهم الآخر تحدّث عن القناعة والرضا مُستهدفـًا الموضوع نفسه وهو تحريم الانتحار.

والمحور الثاني عن تماسك المجتمع والتعايش ودعم أواصر الوحدة الوطنيّة إلا أنّ الكثير من الخطباء لم يلتزموا بذلك؛ لأنّ مجتمع الواحات ليس فيه أيَّ احتقان طائفيٍّ، وتطرق معظمهم إلى الحديث عن موضوعات تمسّ هموم ومشكلات المواطن، ومنها مشكلة زيادة رسوم دخول المستشفيات والتي ألغاها مجلس محليّ المحافظة بالإجماع، وبعضهم الآخر تحدّث عن قضايا عامّة لا تتعلّق بالأحداث الجارية وإنّما كانت تدور حول حسن الخلق، وجزاء العمل الصالح، وغير ذلك من القيم الحميدة[١]. وفي جنوب سيناء، انتقد الخطباء محاولات بعضهم بإحراق أنفسهم أمام المصالح الحكومية بدافع الفقر والبطالة، مؤكّدين أن قتل النفس من الكبائر بعد الشرك بالله، وأوضحوا أنّ قتل الحكام أو نفيهم ليس الحلّ نحو التغيير أو الحريّة، وأنّ ثمة وسائل شرعيّة أخرى للتعبير عن الاحتجاج. واستنكر الشيخ جلال شريف، مدير إدارة الدعوة بمديريّة الأوقاف بالمحافظة، إقدام بعض المواطنين على

(١) عبدالحليم سالم، وحسن مشالي، وحسن عبدالغفار، ومحمد صالح، وجمال حراجي، ومحمد سليمان، وهناء أبو العزّ، وحسن مختار، وماهر أبو نور، وفايزة مرسال، خطبة الجمعة في المحافظات تدين المُنتحرين.. والخطباء يؤكّدون: الحالة الاقتصاديّة ليست مبررًا على قتل النفس.. وإمام بالإسكندرية: «حكمت فظلمت فخفت فهربت يا عابدين».. وخطيب يتّهم بعض المثقفين والفنانين بالفجور، موقع «اليوم السابع» الإلكترونيّ، ٢١ يناير ٢٠١١.

الانتحار، وقتل النفس بدون حقّ الذي حرمه الإسلام، وأشار إلى قول الرسول، صلّى الله عليه وسلّم، «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجّأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن شرب سُمًّا فقتل نفسه فهو يتحسّاه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تردّى من جبل فقتل نفسه، فهو يتردّى في نار جهنّم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا»[١].

نأتي إلى الأمن.

مع ارتفاع وتيرة معدلات الانتحار، وخصوصًا أمام مجلس الشعب المصريّ، عمدت قوات الأمن الموجودة أمام المجلس إلى تفتيش المارة والسيارات في الشارع المقابل للمجلس تفتيشًا دقيقًا، خشية من احتماليّة حملهم مواد قابلة للاشتعال، تؤدّي إلى حدوث حالات انتحار أخرى. وأمر اللواء إسماعيل الشاعر مساعد أول وزير الداخلية ومدير أمن القاهرة بتكثيف الملاحظة الأمنيّة والوجود الأمنيّ أمام مبنى مجلسي الشعب والشورى وأيضًا المنشآت الحكوميّة المهمة والنقابات وأماكن تجمّع المواطنين، «لوقف محاولات تكدير الأمن العامّ وقيام بعض الأشخاص باستخدام أساليب لا تتّفق مع التقاليد والأعراف المصريّة»[٢].

المثير للانتباه أنّ البرلمان المصريّ وقف مكتوف اليدين أمام حالات الانتحار التي تكرّرت أمام أبوابه، واكتفى بتشديد الحراسة ومراقبة الشارع لمنع المنتحرين من إنهاء خطتهم في الموت حرقًا، وتمّ تزويد البوابات والحرس بأعداد إضافيّة من البطاطين وطفايات الحريق وأكياس الرمل لمواجهة حالات الانتحار الطارئة، «ولم يبق أمامه سوى أن ينشئ محرقة طبيّة بالاشتراك مع وزارة الصّحة تسهل عمليات الحرق أو الاعتراض وتقدّم مراهم للمنتحرين. وبهذا تحوّل مجلس الشعب من سلطة تشريعيّة إلى سلطة مطافئ»[٣].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (١٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) محمد عبدالوارث وإبراهيم أحمد، الانتحار الحلّ الأخير لشباب مصر.. ٥ أشخاص يلجأون اليوم إلى الحرق والشنق للتخلص من أزماتهم، موقع «اليوم السابع» الإلكتروني، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٣) أكرم القصاص، محروقو الداخل.. في برلمان شو، مصدر سابق.

إلا أنّ هذا لم يحل دون تمكّن العشرات من مستوردي المواد المصنوعة من البورسلين من تنظيم وقفة احتجاجيّة محدودة أمام مجلس الشعب، حملت في سياق شكواها الخاصّة، لافتة بالغة الدلالة تقول كلماتها: «لا للانتحار الاقتصاديّ»[١].

وإذا كان الانتحار بالحرق من أصعب طرق التخلص من الحياة، فإنّ أطباء نفسيّين أجمعوا على أن تنفيذه أمام أماكن لها دلالات سياسيّة يهدف إلى لفت أنظار المجتمع إلى أزمة صاحبه.

التفسير يطرحه د. أحمد عكاشة، رئيس اتحاد الأطباء النفسيّين العرب، قائلاً إنّ الانتحار على الملأ وأمام «أماكن النظام السياسيّ» يعتبر احتجاجاً ناتجاً عن إحباط شديد وإحساس باليأس والعجز عن الإصلاح في حياة المُنتحر نفسه، مُضيفاً أنّ المُنتحر يريد لفت أنظار الجميع إليه من خلال تلك الأماكن، وذلك ما ساعدت عليه وسائل الإعلام[٢].

ويشير د. عكاشة إلى أنّ حالات الانتحار، حسب إحصائيّات منظّمة الصّحة العالميّة، وصلت إلى مليون منتحر سنويًّا، بواقع حالة انتحار كل ١٧ ثانية تقريباً، مضيفاً أنّ ٧٠٪ من حالات الانتحار في العالم ترجع إلى أسباب اقتصاديّة واجتماعيّة ونفسيّة.

وعن حالات ومحاولات الانتحار في يناير ٢٠١١، قال د. عكاشة إنّها لا تعكس أسلوب المريض النفسيّ في الانتحار، فالمريض النفسيّ عندما ينتحر عادة ما يكون بآلة حادّة ويصوّر له عقله أسباباً للانتحار لا عَلاقة لها بمرضه، أمّا هؤلاء المنتحرون فأسبابهم واضحة، هي البطالة وعدم الرضا عن أوضاعهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة، فمنهم من ذهب أمام مجلس الشعب ظنًّا منه أنّه مصدر القرار ليعبّر عن شكواه ويلفت الانتباه إلى أوضاعه[٣].

---

(١) محمد عبدالراضي وندى الخولي، عشرات المستوردين يرفعون شعار (لا للانتحار الاقتصادي) أمام (الشعب)، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٢) بسنت زين الدين، «عكاشة»: اختيار الانتحار أمام «أماكن النظام» رغبة في لفت الأنظار، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

(٣) رانيا بدوي، د. أحمد عكاشة: النظام يخشى الشعب بدليل وجود مليون ونصف المليون ضابط و«عسكري»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٢ يناير ٢٠١١.

ويصف الدكتور أحمد شوقي العقباوي، الانتحار حرقـًا بأنّه «أسوأ أنواع الانتحار على الإطلاق». أمّا د. أنور الأتربيّ، أستاذ الأمراض العصبيّة بطبّ عين شمس، فيقول إنّ ما شهدته مصر في منتصف يناير ٢٠١١ «حالات انتحار حقيقيّة وليست وهميّة»، مؤكدًا أنّ الانتحار المزيف، علميًّا، لا يمكن فيه أن يُؤذي الشخص نفسه، وما حدث هو العكس. وبحسب د. الأتربيّ، فإنّ حالات الانتحار في الفترة المذكورة تعبر عن «يأس مطلق من الحياة»، واصفـًا إيّاها بأنّها «صرخات احتجاجيّة».

وكشف د. خليل فاضل مستشار الطبّ النفسيّ، عن أنّ نسبة الانتحار بين الأشخاص العاديّين أعلى بكثير من المرضى النفسيّين، وذلك في إطار ردّه على أن مَن يحاول الانتحار مختل عقليًّا.

وقال د. فاضل إن نحو ٨٠٪ من المصريين يعانون أمراضـًا واضطرابات نفسيّة تتراوح في درجة شدتها، مضيفـًا أنّ «الأسباب التي تقف وراء تعدّد حالات الانتحار خلال الفترة الماضية متعدّدة وفي مُقدمتها العامل البيولوجيّ وهو ما يُسمى بكيمياء المخّ العصبيّة التي تتأثر بالضغوط نتيجة لأسباب مختلفة منها نقص المال والشعور بالظلم والإحساس بأنّ الآخر يحتكر السلطة وهو ما يتسبّب في الاكتئاب والرغبة في التخلّص من الحياة».

وأضاف د. فاضل أن «من الأسباب أيضـًا أن المصريّ بشكلٍ عامّ نفسه عزيزة عليه جدًّا وفرعونيّته ليست لها مثيل»، مشيرًا إلى أنّ هذا الإحساس الزائد بالكرامة يقابله إذلال شديد وقهر أمام جهات الإدارة وتحديدًا الشرطة، فلا يجد أمامه منفذًا إلا التخلص من حياته. أمّا السبب الثالث «فهو تملك اليأس والقنوط من نفوس المصريّين بعد إحساسهم أنّهم لم يستطيعوا تحقيق أقلّ احتياجاتهم وهي الطعام، حيث يموت كمدًا قبل أن يموت انتحارًا» بحسب د. فاضل. وأوضح أنّ ما يحدث في مصر من محاولة بعضهم حرق أنفسهم يُعدّ محاكاة أو «تمحكـًا» بتجارب أخرى لكي يتخلّص من عذابه النفسيّ بعدم القدرة على فعل شيء وكذلك كي يكسب نقطة ظنًّا منه أنّه سيحرك الشارع، أي أنّه يحاول أن يكسب بطولة.

من جهته، قال د. ناصر لوزة مراقب الأمانة العامّة للأمراض النفسيّة بوزارة الصحة إنّ الانتحار ظاهرة موجودة في العالم كلّه، مشيرًا إلى أنّ هناك عوامل كثيرة

قد تؤدّي إلى إقدام الفرد على الانتحار، منها ما هو وراثيّ أو عوامل متعلّقة بالبيئة والتربية والمشكلات الماديّة والعاطفيّة، مطالبـًا مَن يشعر بأنّ عنده ميلاً للانتحار عليه باللجوء إلى الطبيب النفسيّ وعدم الخجل من ذلك.

من جانبه، أرجع د. فاروق لطيف أستاذ الطب النفسيّ بجامعة عين شمس الظاهرة التي تشهدها مصر حاليـًا إلى ارتفاع معدلات الاكتئاب في المجتمع المصريّ بسبب الظروف الاقتصاديّة والاجتماعيّة. وأشار د. لطيف إلى أنّ الأسباب المُعلنة في حالات الانتحار الأخيرة ليست هي الأسباب الحقيقيّة، مُؤكدًا أنّ السبب الرئيس يكمن وراء التراكمات.

وقال د. محمد المهدي أستاذ الطب النفسيّ والخبير الاجتماعيّ إنّ «ما يحدث هو نوع من توجيه العنف نحو الذات على أمل تحريك الآخر أو إيلامه، خاصةً أن آلة القمع عالية في عدة دول، وتمنع التعبير المباشر عن الاحتجاج، فحصل تعبير احتجاجي غير مباشر»[1]. وأوضح أن حالات ومحاولات الانتحار، التي وقعت في مصر خلال السنوات الخمس الأخيرة، هي أقرب إلى كونها مظاهر اعتراض ورسائل غضب موجّـهة إلى الحكومة والنظام الحاكم، مشيرًا إلى أنّ الفقر والبطالة والعنوسة، أشهر دوافع الانتحار وأن انعدام الأمل وقلة الحيلة، أبرز عوامل الانتحار وأن الشباب المصري قد افتقد العمل والأمل، فأقدم على الانتحار.

ولخّـص د. المهدي الوصفة العلاجيّة للقضاء على ظاهرة الانتحار أو التقليل منها في تحقيق العدالة من خلال التوزيع الجيّد للثروة، فتقل الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وإعادة قِـيم التراحم والمساندة والدعم والتكافل، فتقوى شبكة الأمان الاجتماعيّ، فضلاً عن ضرورة السّـعي لإعادة القيم الإسلاميّة الأساسيّة، مُشدّدًا على «أهمية تنمية الوعـي الثقافيّ لدى العامة بأمراض الاكتئاب والانفصام والإدمان والقلق»، ومحذّرًا الشباب والفتيات من تسلّـل اليأس إلى نفوسهم[2].

---

(١) محمد خيال، ٨٠٪ من المصريين مضطربون نفسيـًا.. ومن يحاول الانتحار، فليس مختلًا عقليًا، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٢) سويس إنفو، د. محمد المهدي: الشباب المصريّ افتقد العمل والأمل فأقـدم على الإنتحار!، مصدر سابق.

من جهتهم، يشدّد علماء الاجتماع على ضرورة فهم الانتحار كظاهرة اجتماعيّة يعاني منها المصريّون بسبب البطالة وغياب العدالة الاجتماعيّة وانتشار قيم الاستهلاك وتسويق نماذج هابطة كقدوة للشباب، وحمَّلوا الحكومة مسؤوليّة تحوّل الانتحار إلى ظاهرة في السنوات الأخيرة. ورأى د. سمير نعيم، رئيس قسم الاجتماع بجامعة عين شمس، أنّ الانتحار هو أحد أعراض مرض «فقدان المناعة» الاجتماعيّة(١).

الموقف من المنتحر بدا مثار خلاف واسع في الرأي بين علماء الاجتماع والأطباء النفسيّين من جهة، وعلماء الدّين من جهة أخرى.

ويرى الباحث الفرنسيّ دومينيك آفون أنّ موجة حرق الذات خلال ربيع الثورات العربيّة، سببت اضطرابـاً عميقـاً بين علماء الدين، أظهر العديد من الخلافات فيما بينهم. فقد تمّ طرح سؤالينِ على هؤلاء: «الأول: ما هو حكم الشريعة الإسلاميّة فيما يخصّ الأشخاص المُنتحرين؛ والثاني: هل يُمكن اعتبارهم شهداء؟». سؤالان، مرّ بينهما خطّ التوتر الأساسيّ بين اتحاد العلماء المسلمين من جهة والسلطات الدينيّة المرتبطة بالدول العربيّة (المعنيّة بالشأن) من جهة أخرى. ولذا احترس مليًّا الفقهاء الممثلون للهيئات الشرعيّة عن التدخل بشكل قويّ في هذه المسألة، وذلك حتّى لا يساهموا في الدعاية لما يعتبرونه «كبيرة من الكبائر».

وأصدر مجمع البحوث الإسلاميّة في مصر بيانـاً للحكم الشرعيّ للانتحار، حيث أكّد أنّ الانتحار حرام شرعـاً في الإسلام حتّى لو كان نوعـاً من الاحتجاج. وقال المجمع إنّ أعضاءه تابعوا باهتمام أخبار ما وقع من أحداث في العالمينِ العربيّ والإسلاميّ ممّا وصفوه بـ«إقدام بعض الأفراد من شباب الأمة على التعبير عن غضبهم واحتجاجهم على بعض الأوضاع بطريقة غير معهودة ولا مشروعة لدى المسلمين، والتي تؤدي ببعض الحالات إلى إزهاق النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق».

وأكّد المجمع في بيانه أنّ حفظ النفس البشريّة من أهم مقاصد الشريعة الإسلاميّة، بل ومن أهم مقاصد الشرائع السماويّة جمعاء، وليعلم شباب الأمة الإسلاميّة أنّ نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول، صلّى الله عليه وسلم، قطعية وصريحة وحاسمة في تحريمها قتل الإنسان نفسه أو غيره لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ

---

(١) سارة نور الدين وياسمين القاضي وأميرة بدر وتيسير قوايد، رجال الدين: المنتحر كافر.. وعلماء الاجتماع: ضحيّة غياب العدالة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِۛ وَأَحْسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ويُؤكّد هذا المعنى أحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، ومنها قوله: «مَن تردّى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنّم وتردى فيها»، إلى آخر الحديث.

وأوضح المجمع في بيانه أنّه لا يفوته أن يشير إلى بعض الأوضاع الصعبة التي يشهدها واقع العرب والمسلمين، والتي تدفع بعض الأفراد إلى التعبير عن غضبهم واحتجاجهم بهذه الطريقة التي لا يقرّها الإسلام، ولذلك فإنّه يهيب في الوقت ذاته بأولي الأمر في العالم العربيّ والإسلاميّ أن يُضاعفوا جهودهم للقضاء على البطالة، ولتوفير فرص العمل والعيش الكريم لكل أبناء الأمة في إطار برامج فعّالة لتحقيق التنمية المجتمعيّة والمزيد من العدالة الاجتماعيّة والتكافل الاجتماعيّ ممّا يضيق الفجوة بين فئات المجتمع[1].

أمّا الشيخ فرحات المنجي، مستشار شيخ الأزهر السابق، فقد قال: «المنتحرون سيدخلون التاريخ.. ولكنهم سيدخلون النار أيضـًا، ويجب على من يريد أن يخدم بلده أن يقدّم له عملًا أو علمـًا».

وأكّد الشيخ أحمد يوسف، الأمين العام لجماعة أنصار السنة المحمديّة، أنّ من يحاول قتل نفسه بإشعال النار أو غيره من الوسائل كافر، وإذا مات فهو في جهنّم.

من جهته، قال المتحدّث الرسميّ باسم الأزهر الشريف، السفير محمد رفاعة الطهطاوي، إنّ القاعدة الشرعيّة العامّة تؤكّد أنّ الإسلام يحرّم الانتحار تحريمـًا قطعيـًا لأيّ سبب كان. وأضاف أنّ الأزهر لا يمكن أن يعلّق على حالات الأشخاص الذين يُقدمُون على حرق أنفسهم، باعتبار أنّه ربّما يكون هؤلاء في حالة من الاضطراب العقليّ أو الضيق النفسيّ[2].

---

(١) لؤي عليّ، مجمع البحوث الإسلاميّة في بيان ساخن: الانتحار «حرام شرعـًا» حتّى لو كان نوعـًا من «الاحتجاج».. والحكام العرب مطالبون بالقضاء على البطالة وتوفير «العيش الكريم» لشعوبهم، موقع «اليوم السابع» الإلكتروني، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٢) سارة نور الدين وياسمين القاضي وتيسير قوايد وأميرة بدر، أطباء نفسيّون وعلماء اجتماع: المنتحر يائس يريد لفت أنظار المجتمع.. ورجال دين: كافر وإلى النار، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

عصام تليمة، الداعية الإسلاميّ المصريّ المقيم في قطر، كان له رأي آخر في فتوى نشرها على موقع «أون إسلام»، وقال فيها إنّ الانتحار في الإسلام حرام شرعـًا وإنّ الإسلام هدفه الأسمى هو الحفاظ على النفس.. لكنّه يُعرف المُنتحر الحقيقيّ بأنّه «هو الذي يئس من حياته، بناء على انغماس في الملذّات، وانكفاء على المحرّمات، وانقطاع صلته بالله عزّ وجلّ، ممّا جعله يتخبّط في الحياة حائرًا، يحيا على غير هدى»، وبالتالي فإنّ المقصود بأحاديث الرسول عن المخلّدين في نار جهنّم بسبب انتحارهم مَن يستحلون الانتحار، ولا يُؤمنون بأنّه حرام، وهو ما لا ينطبق على المُنتحرين المُحتجّين.

ويضيف تليمة إنّه «ليس حتمـًا أنّ نهاية كلّ منتحر النار، كما هو مترسّخ في فهمنا الفقهيّ، بل هو تحت مشيئة الله، إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له؛ لعموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨).

أخطر ما جاء في فتوى تليمة فهو أن «من يُضرب عن الطعام، أو يموت في مظاهرة، في لحظة فقد فيها العدل، وضاع منه الأمل، وخاب رجاؤه فيمن حوله؛ أن يغيثوا لهفته، أو يرفعوا عنه مظلمته، فقام بإضراب، أو قام بمظاهرة فمات فيها، ولم يكن مقدرًا الموت فيها، ولم يسع لذلك الموت، أو قدر أنّه سيدركه الناس قبل موته، أو فعل هذا بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وضاقت عليه نفسه، من ظلم بشع، لا يملك رفعه، ففعل ما فعل مجبرًا مضطرًا إليه اضطرارًا ليس له بديل آخر، فهذا وأمثاله أعتقد أنّهم ليسوا المعنيّين في الحديث بأنّهم من أهل النار، ونحن مطالبون بالاستغفار لهم والدعاء لهم، خاصة إن كان ظاهر أمرهم أنّه ليس انتحارًا بالمعنى المعروف»[(١)].

بدوره، دعم د. يوسف القرضاوي، رئيس الاتحاد العالميّ لعلماء المسلمين آنذاك، «ثورة الشعب التونسيّ» ووضع حركة بوعزيزي ضمن رؤيّة الجهاد ضدّ الظلم والفساد. وبعد هروب بن علي، دعا القرضاوي إلى تعميم الجهاد ضدّ كلّ رموز الدكتاتوريّة، ولإسقاط بقيّة الأصنام المحيطة بها من اللات والعزى, بالإضافة إلى الأصنام التي تنتمي إلى النظام الذي عانى منه التونسيُّون سنوات طويلة.

---

(١) عصام تليمة، حكم الانتحار بقصد الاحتجاج، موقع أون إسلام، http://www.onislam.net/arabic/ ask-the-scholar/127823-2011-01-14-15-53-18.html، ١٦ يناير ٢٠١١.

كما وجّه نداءً إلى شباب العرب والمسلمين، مطالبـًا إيّاهم بأن يحافظوا على حياتهم، مُؤكدًا أنّ الذي يجب أن يحرق هم الطغاة الظالمون. وفي بيانه الذي نأى فيه عن مواقف شخصيات ومؤسسات دينية أخرى، قال القرضاوي ما نصّه: «أنا أنادي شباب العرب والمسلمين في مصر والجزائر وموريتانيا وغيرها الذين أرادوا أن يحرقوا أنفسهم سخطـًا على حاضرهم ويأسـًا من مستقبلهم.. أيّها الشباب الحرّ (لا تيأسُوا مِنْ رُوحِ اللهِ إِنّه لَا يَيْأَسُ من رُوح اللهِ إلّا القومُ الكافِرونَ)، و«إنّ مع العسر يسرًا وبعد الليل فجرًا وأشد ساعات الليل سوادًا وظلمةً هي السّويعات التي تسبق الفجر».

وأضاف: «أيّها الشباب.. حافظوا على حياتكم، فإن حياتكم نعمة من الله يجب أن تُشكر، ولا تحرقوا أنفسكم فإنّ الذي يجب أن يُحرق إنّما هم الطغاة الظالمون، فاصبروا وصابروا ورابطوا، فإنّ مع اليوم غدًا، وإنّ غدًا لناظره قريب». وتابع: «لدينا من وسائل المقاومة للظلم والطغيان ما يغنينا عن قتل أنفسنا أو إحراق أجسادنا، وفي الحلال أبدًا ما يغني عن الحرام»[١].

أثارت دعوات القرضاوي العديد من ردود الفعل القاسية, الشيء الذي اضطرّه للتوضيح بأنّه لم ينشر فتوى في هذا الخصوص بل إنّ كلّ ما قام به كان التعليق على ما حلّ في تونس. فيقول: «إنّي أتضرّع إلى الله تعالى وأبتهل إليه أن يعفو عن هذا الشابّ ويغفر له ويتجاوز عن فعلته التي خالف فيها الشرع الذي ينهي عن قتل النفس».

في المقابل، نجد أنّ موقف مفتي تونس، عثمان بطيخ، يفترق بشكل ملحوظ عن رأي القرضاوي، ذلك أنّه أدان ومن دون تحفّظٍ ما قام به البوعزيزي معتبرًا أنّ «الانتحار ومحاولته جريمة كبيرة من الكبائر، ولا فرق شرعيًّا بين مَن يتعمّد قتل نفسه أو قتل غيره». ثم إنّه يحدد في مقابلة مع جريدة «الصباح»، أنّه وبغض النظر عن وسيلة الانتحار «سواء كان قتلاً بسمّ أو بسلاح أو غرقـًا فكله عمل شنيع ومحاولة ذلك جريمة يعاقب عليها الشرع والقانون. والمنتحر مرتكب كبيرة وليس بكافر. فالمنتحر لا يغسل ولا يصلّى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين استنكارًا لما صدر عنه»[٢].

---

(١) وكالة الأنباء الألمانيّة، القرضاوي للشباب: حافظوا على حياتكم فالذي يجب أن يحرق هم الطغاة، جريدة «الشروق»، القاهرة، ١٩ يناير ٢٠١١.

(٢) محمود محيي، مفتي تونس يدعو إلى عدم الصلاة على «المنتحرين حرقـًا»، جريدة «اليوم السابع»، القاهرة، ١٠ يناير ٢٠١١.

موقف مفتي تونس عزّزه الإعلان الصادر عن لجنة الفتاوى في الأزهر، هذا الإعلان الذي صاغه رئيس هذه اللجنة الشيخ عبد الحميد الأطرش على الشكل التالي: «لا يجوز لإنسان تحت أيّ ظرف من الظروف أن يقدّم على الانتحار عن طريق أيّة وسيلة وأيًّا كان نوعها سواء الحرق أو الغرق أو الخنق؛ لأنّ الانتحار هو قنوط من رحمة الله، ولا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون». لقد حدّد الشيخ الأطرش أنّ الانتحار ليس مُبررًا بأيّة حال من الأحوال، وبالتالي يستحيل اعتبار المنتحر شهيدًا، ويعود لله وحده أن يسامح هذا الإنسان إذا قام بإعلان شهادته. أمّا المرجع القرآنيّ المذكور فهو الآية ١٩٥ من سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾. وشدّد الأطرش على أنّ «الفقير يجب ألّا يكون الأكثر هلعـًا فيما يتعلّق بالجزاء الأخير». إن موقف الأزهر هذا يردّنا إلى قلب الخطاب الهادف لاحترام كل سلطة قائمة. هذا الموقف المرتكز على مبدأين: «فإذا كان الإمام عادلًا فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائرًا فله الوزر وعليك الصبر»(١).

على الجانب المسيحيّ، رفض البابا شنوده الثالث، بابا الإسكندريّة، بطريرك الكرازة المرقسية آنذاك، إقدام بعض المواطنين على الانتحار حرقـًا للتعبير عن مشكلاتهم، وأكّد أنّ الانتحار حرام ومرفوض. وقال البابا شنوده، خلال عظته الأسبوعيّة بالكاتدرائيّة المرقسيّة بالعباسيّة، إنّ الانتحار مرفوض دينيًّا؛ لأنّه قتل للنفس التي هي أمانة من الله للإنسان، ولا يجوز أن ينهي الإنسان حياته بنفسه بسبب أيّ مشكلة أو ضغوط معيشيّة(٢).

وما بين حالة الشدّ والجذب التي شهدها المجتمع المصريّ في «شتاء يناير الساخن» عام ٢٠١١، وجدنا من انتقد الآراء التي قدمتها المؤسّسات الدينيّة في قضية الانتحار، ووصف تلك الأحكام والفتاوى بأنها «طريقة قديمة وتقليديّة للغاية في توظيف الدين لمحاصرة أي ظاهرة سياسيّة أو اجتماعيّة تؤرّق السلطة وتزعجها،

---

(١) Dominique Avon, op. cit.

(٢) عماد خليل، البابا شنوده يدعو المواطنين إلى الهدوء ويؤكد: الانتحار «حرام»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٧ يناير ٢٠١١.

وكأنّ إقدام مواطنين من مختلف الأعمار على الانتحار قضية دينيّة فقط، مقطوعة الصلة بعديد من المشكلات والمساخر السياسيّة والاقتصاديّة، التي أوجدتها سياسات حكوميّة مختلّة وفاسدة»[1].

ويشير وائل قنديل إلى أنّه في وقت لا يمكن تبرير قرار الإقدام على الانتحار، «غير أنّه يدخل في باب النصب والتدليس السياسيّ إرجاع المسألة برمّتها إلى ضعف الوازع الدينيّ عند الشباب، وتجاهل ضعف الحسّ السياسيّ وتبلّد الشعور بالمسؤوليّة الأخلاقيّة تجاه المواطنين، إلى الحدّ الذي يدفعهم لإشعال النار في أنفسهم احتجاجًا أو حتّى ضغطًا على من بيدهم القرار لكي يرحموهم من الفقر والبطالة والإهانة وغياب العدالة»[2].

وبينما أدان بلال فضل «الذين يتشطرون على الرّاغبين في الانتحار حرقًا، ويصمتون عن الذين دفعوهم إلى الانتحار»[3]، رأى فهمي هويدي أنّه بدلاً من تكفير المنتحرين وتسفيههم، كان من الأجدى والأنفع محاولة الإجابة بشكلٍ جادّ عن السؤال الأهم: لماذا ينتحرون؟. وقال هويدي إنّ الذين أفتوا في الموضوع تسرعوا فيما قالوه وأخطأوا فيما خلصوا إليه، مشيرًا إلى أنّ أكبر خطأ وقعوا فيه أنّهم حمّلوا الأحاديث النبويّة التي أدانت المنتحر واعتبرته كافرًا بأبعد كثيرًا ممّا تحتمل، واعتبروه كافرًا بالملة في حين أنّ المراد هو الكفر بالنعمة التي لا تخرج المرء من الملة.. وأن المقصود هو تحذير المؤمنين حتّى لا يسارعوا إلى القنوط ويفقدوا ثقتهم في رحمة الله وفرجه، فيتخلصوا من حياتهم التي وهبهم الله إياها. وبالتالي - والكلام ما زال لهويدي- فإن الأحاديث النبويّة نهت عن قتل النفس وحذرت من يقدم على ذلك من أنّه سيكون خالدًا في نار جهنّم في الآخرة. وخلص هويدي إلى القول بأن «ليت الذين ينشغلون بمصير المنتحرين في الآخرة يتركون ما لله لله. ولو كانوا مخلصين وشجعان حقًا فليتهم يفسرون لنا لماذا أقدم أكثر من ١٠٠ ألف مصري على الانتحار في عام واحد»[4].

---

(١) وائل قنديل، مصر البوعزيزية تلعب بالنار، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) بلال فضل، «أبو ذر» يظهر أمام مجلس الشعب، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٢ يناير ٢٠١١.

(٤) فهمي هويدي، فتاوى فاسدة، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٣ يناير ٢٠١١.

وفي تقدير أستاذ العلوم السياسيّة د. عمرو حمزاوي، فإنّ محاولات الانتحار حرقـًا تعكس «اليأس الكامل» لجزء كبير من الشعوب العربيّة، وعدم قدرة الأنظمة الاستبداديّة التي تحكم هذه البلاد على التعامل مع هذه الأوضاع. وأضاف أن هذه الأفعال «مستوحاة بشكل واضح من أحداث تونس» وخاصّة انتحار البوعزيزي[١].

وتستوقف د. عمرو الشوبكي، الخبير في مركز «الأهرام» للدراسات السياسيّة والإستراتيجيّة، حقيقة مفادها أنّه «كانت هناك من قبل محاولات انتحار احتجاجيّة في مصر، ولكنّها المرّة الأولى التي نرى فيها أشخاصـًا يشعلون النار في أنفسهم».

غير أنّ هناك من انتقد الظاهرة ووصفها بأنّها «موضة».

فقد اعتبر الكاتب الصحفيّ سليمان جودة أنّ «انتحار «البوعزيزي» إذا كان قد أشعل ثورة في بلده، فليس من الضروري أن يؤدّي انتحار أيّ شابٍّ آخر، في أيِّ بلد، إلى ما أدّى إليه في تونس.. وإلّا فقد انتحر كثيرون، خلال أيام مضت، عندنا وعند غيرنا، ولم تشتعل ثورة ولا يحزنون!»

ويشدّد الكاتب على أنّه «ليست شجاعة بأيّ مقياس أن تنتحر على مستواك أنت وحدك، ولا هي شطارة بأيّ معيار أن تنتحر فتأخذ معك آخرين!»[٢].

وللأمانة، فإنّ الظاهرة امتدّت إلى مفاصل الكثير من الأزمات.

ومن ذلك، أنّه عندما هدد صحفيّو جريدة «الشعب» المتوقّفة عن الصدور، بحرق أنفسهم أمام مجلس الشورى، ما لم تتمّ الاستجابة السريعة لمطالباتهم، ردّ مكرم محمد أحمد، نقيب الصحفيّين، بالقول «اللي يحرق نفسه يحرق نفسه»[٣].

وبينما كان من رأي وزير الأوقاف آنذاك د. حمدي زقزوق أنّ ظاهرة الانتحار عمليّة استعراض، قال د. قدري حفني، أستاذ علم النفس السياسيّ في جامعة عين

---

(١) وكالة الصحافة الفرنسية، محاولات جديدة للانتحار حرقـًا تعكس أزمة اجتماعية في العالم العربي، موقع إيلاف، ١٨ يناير ٢٠١١.

(٢) سليمان جودة، ليست شطارة.. ولا هي شجاعة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٦ يناير ٢٠١١.

(٣) فاروق الجمل وغادة محمد الشريف، صحفيّو «الشعب» يهدّدون بحرق أنفسهم بسبب عدم الاستجابة لمطالبهم ومكرم: «اللي يحرق نفسه.. يحرق نفسه»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٦ يناير ٢٠١١.

شمس: إنّ محاولات الانتحار بإضرام النار في النفس، هي رسالة يأس مُوجّهة إلى السلطات في منطقة لا تتيح فيها الحياة السياسيّة والاجتماعية أي وسيلة للتعبير عن الغضب، ويؤكّد حفني أنّه «لا فرق بين الانتحار غرقـًا أو الانتحار حرقـًا، ولكن الأخير يتضمّن رسالة إلى السلطات تقول: (إنّني أحتّج)»[1].

من جهته، قال نبيل عبدالفتاح مدير مركز الأهرام للدراسات السياسيّة والاستراتيجيّة إنّ انتقال حالة التونسيّ البوعزيزي هو أمرٌ طبيعيّ جدًّا، خاصّة في ظلّ وجود تشابه بين الدول التي حدثت فيها حالات الانتحار؛ منها السياسات الاقتصاديّة التي تتحيز لقلّة من رجال الأعمال والأثرياء، وعدم المبالاة بالسياسات الاجتماعيّة في التعليم والعمل والصّحة والثقافة والإعلام[2].

ويشدّد هاني صلاح الدين على أنّ الإيجابيّة تفرض على شباب مصر المواجهة لا الهروب من خلال الانتحار، «فما سمعنا في تاريخنا عن منتحرين صنعوا التغيير، بل سمعنا عن رجال رفضوا واقعهم، وبدّدوا الظلم بإرادة الإصلاح، وصمّموا على إخضاع الحكام لمطالباتهم، ومنهم الشباب الذين غيَّروا وجه التاريخ». ويضيف قائلاً إنّ الغضب الذي يملأ قلوب الشباب، لا بدّ أن يتحوّل إلى طاقة عمل جبارة من أجل تغيير الأوضاع المقلوبة، «وعليهم أن يُفَعِّلوا كل الوسائل السلمية للاعتراض على السياسات، التي أغرقت البلاد والعباد في ذل الحاجة والفقر والاستبداد، خاصّة أنّ حكومتنا لن يتحرك لها ساكن حتّى لو حرق نصف الشعب أنفسهم على بوابات البرلمان أو الوزارات»[3].

بعضهم ركز بدوره على الأسباب التي قادت إلى النتائج، ولذا أُثيرت تساؤلات عما إذا كان مسؤولو الدولة أدركوا الأسباب التي دفعت هؤلاء الضحايا إلى الانتحار، بداية من الفقر المدقع وانتهاءً بالفساد الإداريّ الذي أصاب مؤسسات الدولة كافة.. وتساءل سامح جويدة قائلاً: «هل أدرك النظام السياسيّ أنّ القاعدة العريضة من الشعب

---

(١) وكالة الأنباء الفرنسيّة، خبراء: محاولات الانتحار في مصر تجسيد للأزمات الاجتماعيّة والسياسيّة، جريدة «الشروق»، القاهرة، ١٨ يناير ٢٠١١.

(٢) محمد خيال، ٨٠٪ من المصريين مضطربون نفسيًّا.. ومن يحاول الانتحار ليس مختلا عقليًّا، مصدر سابق.

(٣) هاني صلاح الدين، الانتحار ليس حلًا، موقع «اليوم السابع» الإلكترونيّ، ٢٢ يناير ٢٠١١.

غاضبة محتقنة تريد حريّة حقيقيّة بعد أن شبعنا من الشعارات والحكايات والإنجازات الإعلاميّة وأنّ الوجوه الملونة بالسلطة ورأس المال أصبحت مقلقة للأمن القوميّ وأنّ اختفاء المعارضة مثلها مثل اختفاء الجهاز المناعيّ لجسم الإنسان»[١].

وبذكاء محسوب، اختار آخرون أن يرسموا الحدود بين حالتي مصر وتونس، فقالت كاتبة صحفيّة بأسلوب ساخر «عزيزي المُنتحر: لا تكرّر تجارب الآخرين، فالمنتحرون في الحالة المصريّة لا يبدعون.. والثورة لا تحدث بلا إبداع». وتشير حنان كمال إلى أنّ الموت في مصر قد يحدث في عبّارة غارقة، أو حادث إطلاق نار يرتكبه مختل عقليًّا، أو في حادث مرور أو نتيجة الأغذية المسرطنة والمياه الملوّثة، «والمصريون يقبلون أن يموتوا في أيّ خانة من الخانات السابقة لكنّهم لا يفضلون الموت على طريقة ٦٦ تونسيًّا قتلوا برصاص قوات الأمن قبل أن تنتصر إرادتهم ويرحل الرئيس غير المرغوب فيه»[٢].

نقدٌ آخر نالته طريقة معالجة الأزمة وأعراضها، وأسلوب تعامل السلطة مع ظاهرة الانتحار المستشريّة «حتّى عندما يشعل بعض أبنائها النار في أنفسهم احتجاجـًا وتعبيرًا عن الشعور بالعجز والظلم والمهانة، لا تفعل شيئًا سوى أن تقول لهم «هتروحوا النار»، دون أن تكلّف نفسها عناء التساؤل عن الأسباب الموضوعيّة التي تدفع مواطنـًا لاعتبار أنّ حياته وموته متعادلان ومتساويان»[٣].

ولم يخلُ الأمر من نبرة سخريّة، إذ أعرب عبدالعظيم درويش، مدير تحرير جريدة «الأهرام»، عن خشيته من «أن يتمّ تحويل شارع مجلس الشعب إلى شارع حانوتي الشعب»[٤]، مشيرًا إلى أنّ الانتحار حرقـًا ليس وسيلة مُثلَى للتعبير عن الاحتجاج. أمّا الصحفيّ كريم عبدالسلام فقال إنّه «كلما انتحر مواطن بتأثير المدّ «البوعزيزي»، ظهر أهله في وسائل الإعلام وعلى وجوههم انكسار غريب لا يظهر إلا على من تلقوا تعليمات غليظة مشدّدة وهم يعتصرون حزنـًا، ظهروا يحملون شهادات طبيّة لفقيدهم

---

(١) سامح جويدة، قراءة في رسائل الانتحار، موقع «اليوم السابع» الإلكتروني، ٢٤ يناير ٢٠١١.

(٢) حنان كمال، موت لا يفضي إلى ثورة، موقع «اليوم السابع» الإلكتروني، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٣) وائل قنديل، متى تعود مصر من شرم الشيخ؟، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢١ يناير ٢٠١١.

(٤) هدى زكريا، «درويش»: أخشى تحويل شارع مجلس الشعب إلى شارع حانوتي الشعب، موقع «اليوم السابع» الإلكتروني، ٢٣ يناير ٢٠١١.

تفيد بأنّه يعالج من الفصام والبارانويا والهلاوس السمعيّة البصريّة والاكتئاب، ناهيك عن «الاستبحث» المرض النفسيّ الذي استحدثته المطربة الكبيرة شادية!»[1]

وبيّن علماء النفس والاجتماع ، وعلماء الدين، يطل السياسيّون ومسؤولو الأحزاب.

ففي يوم ٢٤ يناير الذي شهد ٤ محاولات انتحار، كان الدكتور أحمد نظيف، رئيس الوزراء، آنذاك، في زيارة لموقع تدشين بدء عمليات حفر المرحلة الثانية من الخطّ الثالث لمترو الأنفاق، وصرح وقتها بأنّ الانتحار ليس حلًا حقيقيًّا لمشكلة البطالة التي يعاني منها الشباب المصريّ، مشيرًا إلى أنّ الحوادث الأخيرة التي تمثلت في إقبال بعض الأفراد على الانتحار «ترتبط بمشكلات شخصيّة لهؤلاء الأفراد وليست بالضرورة مشكلات نفسيّة»[2].

وفي حوار أجراه معه برنامج «حديث المدينة» التليفزيونيّ، أكّد وزير الداخلية آنذاك، حبيب العادلي، أنّ الانتحار نوع من السذاجة والاستخفاف بالنفس، فضلاً عن أنّه محرّم في كل الأديان، واعتبر أنّ أغلب حالات الانتحار، لديها أسباب نفسيّة، ومن يفعل ذلك، فلابد أن يكون مريضـًا نفسيـًّا؛ لأنّه لا يوجد إنسان سوي يقدم على الانتحار[3].

وشهدت مصر في ١٩ يناير موجة تصريحات حكوميّة للتقليل من تأثير تكرار أحداث الانتحار، فخرج الدكتور يوسف بطرس غالي، وزير الماليّة حينذاك، ليصف مقارنة الوضع المصريّ بنظيره التونسيّ بأنّه وهم؛ لأنّ مصر تتمتّع بوسائل إعلام حرّة تمارس دورها بحريّة. وأضاف أن مصر تتمتّع بنظام دعم يجنب محدودي الدخل تأثيرات ارتفاع أسعار السلع الرئيسة، في حين أرجع الدكتور أحمد فتحي سرور، رئيس مجلس الشعب حينذاك، تكرار حوادث الانتحار إلى أمراض الاضطراب النفسيّ التي تؤدّي إلى الاكتئاب. وأضاف خلال مؤتمر اتحاد برلمانات الدول الإسلامية في أبوظبي، أن محاولات الانتحار التي جرت أمام مجلس الشعب تعكس

(١) كريم عبدالسلام، أنت اتجننت يا مواطن، موقع «اليوم السابع» الإلكتروني، القاهرة، ٢٣ يناير ٢٠١١.

(٢) منصور كامل وخير راغب، «نظيف»: الانتحار ليس حلًا..... ولدينا برامج لحلّ مشكلة البطالة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٥ يناير ٢٠١١.

(٣) يسري البدري، «العادلي» لـ«مفيد فوزي»: لم يرتعش مسؤول مصري ممّا حدث في تونس.. وحرق النفس سذاجةذ، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٧ يناير ٢٠١١.

ذلك. وأكّد أنّه لا يجوز استخدام مثل هذه الوقائع أداة للابتزاز السياسيّ لتحقيق أغراض غير مشروعة»[1].

«الحكومة عاملة اللي عليها، والوزراء لا ينامون من أجل العمل لصالح محدودي الدخل سواء من خلال الحكومة، أو أمانة السياسات»[2].

هكذا استبعد محمد هيبة أمين الشباب سابقـًا في الحزب الوطني الديمقراطي المنحل أن يكون لحالات «الانتحار حرقـًا» التي وقعت خلال أسبوع الانتحار تأثير على الحكومة الحاليّة، أو وزرائها. وشدد هيبة على أنّ حالات الانتحار «لن تتكرّر في مصر؛ لأنّ من سمة حكم مبارك هو العدالة الاجتماعيّة والحفاظ على محدودي الدخل من خلال الدعم».

هيبة الذي أقرّ بوجود ضغوط حياتيّة وارتفاع في الأسعار وصعوبة في المعيشة، أعرب عن أسفه لمحاولات الانتحار حرقـًا، قائلاً: إنّ الدّين يحرم هذا، حتّى لو كان من باب الشكوى، فهناك قنوات شرعيّة كثيرة جدًّا يمكن أن يلجأ إليها المواطن؛ بينها مواقع الإنترنت وبرامج الفضائيّات، والجرائد الخاصّة والقوميّة، وجميعها أبواب مفتوحة، إضافة إلى اللجوء لرفع دعاوى قضائيّة أمام المحاكم.

وأصدر حزب العمل الاشتراكيّ المنحل، دعوة دعا فيها إلى عدم حرق الذات، لكن حرق الأعداء بدلاً من ذلك[3].

وفي خط مواز، كان للفنان محمد صبحي رأي واضح، إذ رفض بشدّة الإقدام على الانتحار كوسيلة للاحتجاج أو التعبير عن مشكلات تواجه الإنسان. هنا يقول صبحي: «أنا ضدّ أن يحرق الإنسان نفسه، فالانتحار جريمة كبرى وكبيرة من الكبائر، والنفس البشريّة ليست ملك الإنسان بل ملك الله عزّ وجلّ. ولا بدّ لرجال الدين والدعاة أن يشدّدوا على هذا المعنى. هذا من جانب، ومن جانب آخر، لا بدّ للدولة أن

---

(١) محمود مسلم، «سرور»: الانتحار في مصر بسبب أمراض نفسيّة ولا يجوز استخدامه للابتزاز السياسيّ، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٢) أحمد فتحي، أمين شباب (الوطني) ردًا على محاولات الانتحار: الحكومة عاملة اللي عليها ووزراؤها لا ينامون، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٠ يناير ٢٠١١.

(٣) وكالة الأنباء الألمانيّة، رجال دين عرب: الانتحار.. سلاح العاجزين، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢١ يناير ٢٠١١.

تهتم بمصالح الناس وتحلّ مشكلاتهم وتوفر سبل العيش الكريم لكلّ مواطن ويكون هناك نموذج مشرف بل نماذج عديدة مشرفة تكون مثالًا حيًّا وقويًّا لكلّ الشباب والأجيال الصاعدة».

ويضيف محمد صبحي قائلاً «أذكر عندما كنت أعد لمسلسل «يوميّات ونيس» إنّني ذهبت إلى معظم الوزارات والهيئات ومراكز البحوث الاجتماعيّة وغيرها لكي أجد نموذجـاً مصريـاً أضعه في المسلسل وأعلمه للأجيال الصاعدة. للأسف الشديد لم أجد، فهنا لا بدّ أن ننظر جيدًا إلى الأسباب التي دفعت هؤلاء للإقدام على الانتحار ونحلّ المشكلة من جذورها»[1].

تصريحات رسميّة وحزبيّة كثيرة وآراء اجتماعيّة ودينيّة وفنيّة متباينة، لم تطفئ في نهاية الأمر نار الاحتجاج ورائحة الموت بطعم الانتحار في ربوع المحروسة.

وشهد يوم ٢٢ يناير انتحار ٣ مواطنين، قالت الشرطة عنهم جميعـاً إنّهم مرضى نفسيًّا، في حين تمّ إحباط محاولتي انتحار. وقعت أولى حالات الانتحار حين ألقى مجدي وديع منصور بنفسه من الطابق الرابع. لم يبق من ذلك الوجه إلا رسم شمسيّ مهترئ على قارعة الطريق. وفي الحالة الثانية، ألقى محمد فتحي السيد بنفسه من الطابق العاشر، والثالثة حين ألقى عبدالله هارون (١٩ عامـًا) بنفسه من الطابق التاسع بأحد فنادق الإسكندريّة، وهي الحوادث الثلاث التي قالت تحريات الشرطة في كل محضر على حدة إنّ المُتوفّى يعاني مرضـاً نفسيًّا.

كان الشعور العام لدى كثيرين بأنّها المُقدّمات التي تسبق النتائج، وأنّ الثورة آتية لا ريب فيها، أسرع ممّا يتوهّمون، وأكبر ممّا يتصوّرون.

ثم كانت ثورة ٢٥ يناير!

فجأة، انفجر البخار المكتوم، وثار المصريون مردّدين شعارات عدّة، لعلّ أبرزها «الشعب يريد إسقاط النظام». الثورة الشعبيّة التي امتدّت إلى أنحاء مصر، أدّت في نهاية الأمر إلى خروج عمر سليمان نائب الرئيس في ١١ فبراير ٢٠١١ ليعلن في بيان مقتضب لا تتجاوز مدّتُه ٢٨ ثانية، عن قرار الرئيس المصريّ حسني مبارك التنحي عن منصبه وتسليم الحكم إلى المجلس الأعلى للقوّات المسلّحة.

---

(١) ناصر جابر، محمد صبحي: الانتحار جريمة كبرى، مجلة «الكواكب»، القاهرة، ٢٥ يناير ٢٠١١.

ومن الجائز القول إنّ الثورة المصريّة قامت «ضدّ حالة الاحتقار الحكوميّ للناس، وقد أثبت «الجمهور» من خلالها أنّه أقوى من حكامه. كما قامت للقضاء على مشروع توريث الحكم (الجمهوريّ) وقد قُضي عليه، وللمطالبة بإزاحة رئيس الجمهورية عن الكرسي الذي التصق به، وقد أُزيح، ولمحاسبة رموز النظام السابق ومحاكمتهم، وهم الآن يُحاكمون. ثم أعلن جمهورُ الثائرين أنّهم يطمحون إلى بناء دولةٍ تقوم على القيم الإنسانيّة: المساواة والعدل والحريّة، وهو الأمر الذي يستلزم العمل الطويل الشاق لإصلاح ما أفسده الدهر»[1].

وطوال تلك الفترة، تراجعت معدّلات حوادث الانتحار ومحاولات بعضهم التخلص من حياتهم، واختفت أخبار هؤلاء ـ أو كادت ـ من وسائل الإعلام المطبوعة والمرئيّة والمسموعة.

صار للمصريين هدفٌ واضحٌ: التغيير.

لقد صهر البؤس الجميع، ووحّد الأمل الكل.

وعقب نجاح الثورة في تحقيق هدفها الرئيس، بقيت معدلات الانتحار منخفضة بشكل ملحوظ، على الأقل وَفق ما أمكن رصده في وسائل الإعلام المصريّة. وأخذ المواطنون يملأون شوارع مصر وميادينها حيويّة وحركة، ليمارسوا للمرة الأولى، حريتهم الكاملة في كل شيء بما أعطى أحيانـًا مظهرًا للفوضى في المشهد، وسط غضبٍ قديم على الشرطة واحتقانٍ جديد مع المجلس العسكريّ الحاكم، وصراع حول مبادئ الدستور المقبل وملامح دولتها الجديدة ما بين رؤى تريدها مدنيّة حديثة على خلفية الثقافة المصريّة الضاربة في الإيمان، وأخرى تريدها ذات طابع دينيّ مباشر يستمد من الإسلام تفاصيلها وأحكامها وتشريعاتها.

وفي خضم الأحداث المتلاحقة، نسي بعضهم أن ثورة يناير لم تقم لانتخاب سادة جدد، وإنّما لإقامة نظام ديمقراطيّ وعقد اجتماعيّ جديد، يقوم على المشاركة الواسعة لا الإقصاء والتهميش.

والحقيقة أن النخبة السياسية المصريّة بكل تياراتها وأطيافها لم تستوعب درس

---

(١) د. يوسف زيدان، إجهاض الثورة وإبقاء الفَورة (١/ ٧) المواجهة مع الجنون، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢ نوفمبر ٢٠١١.

سقوط مبارك، فهي «ما إن اختفى مبارك من المشهد الرسميّ، حتّى عادت وبأسرع ما يكون إلى إعادة إنتاج المعارك ذاتها التي كانت دائرة بينها قبل الثورة. ودون أدنى اعتبار لأهميّة اللحظة التاريخيّة التي تمرّ بها مصر، إذا بالقوى والتيارات السياسيّة تضيع فرصة غير مسبوقة للوصول لاتفاق وطنيّ جامع»[1].

الثورات يقوم بها المثاليّون، ويختطفها الانتهازيون!

كان هذا هو شعور كثيرين بعد ثورة يناير، في ظلّ أخطاء وقع فيها شباب الثورة الذين تركوا ميدان التحرير غداة سقوط نظام حسني مبارك في صباح يوم ١١ فبراير ٢٠١١، وقبل أن تتحقّق بقيّة المطالب السبعة التي أيّدها معظم أبناء الشعب المصريّ.

ونتيجة لعدم اختيار قيادة تتحدّث باسمهم وعزوفهم عن تكوين حزب سياسيّ، أو جبهة وطنيّة، يستمرّون من خلالها في المُشاركة النشطة، في الشأن العامّ، بما في ذلك خوض الانتخابات البرلمانيّة ثم الرئاسيّة، تقدّمت الصفوف قوى أخرى أتت إلى الثورة في يومها الخامس، أو لم تُشارك فيها بالمرة، ونجحت في «أن تقفز على أكتافهم، وتختطف ثورتهم، ولن نستغرب كثيرًا، إذا ما حاول هؤلاء «الخطافون» أن يُعيدوا كتابة التاريخ، وأن يُزيلوا كل أثر للثوار الحقيقيّين»[2].

وهكذا شعر كثيرون بأنّ هذه الثورة لم تحقق التغيير المطلوب للتخلص من تركة مبارك الثقيلة، ولم يرَ المواطن المصريّ ما ينبئ بإصلاح تدريجيّ، و«بقيت التركة البائسة على حالها، وأضيف إليها المزيد بسبب الاضطراب الاجتماعيّ والانفلات الأمني والاستقطاب السياسيّ والتراجع الاقتصاديّ»[3].

«قوم يا مصري طفي نارك، لن يفيدك انتحارك، وأنت ميت مش هاتفرق، وانت صاحي تجيب نهارك، قوم يا مصري شد حيلك، لو ولعت أنت وجيلك.. راح منين حقك يجيلك».

---

(١) د. منار الشوربجي، نداء لشباب مصر: تجاهلوهم، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١١ أبريل ٢٠١٢.

(٢) د. سعدالدّين إبراهيم، أين شباب الثورة في معركة الرئاسة؟، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٤ مارس ٢٠١١.

(٣) د. وحيد عبدالمجيد، خيار ثالث.. أم ثورة ثانية؟، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٨ يونيو ٢٠١٢.

هذه الكلمات السابقة تداولها نشطاء سياسيّون وإلكترونيّون قبيل الثورة، ردًّا على محاولات الانتحار المتكرّرة التي جرت أمام مجلس الوزراء. وبالفعل توقفت تلك المحاولات ليركز الشباب كل جهودهم في الثورة التي أسقطت النظام.

غير أنّ هذه الهدنة تبخّرت تدريجيًّا، في ظل فوضى سياسيّة غير خلّاقة، وارتباكٍ اجتماعيّ، وحالة تخبط جعلت بوصلة عقل المواطن المصريّ تزيغها مجالات مغناطيسيّة متناقضة الاتجاهات.

خلال تلك الفترة الحرجة في التاريخ المصري الحديث، بدا واضحـًا مدى الخراب الذي زرعه نظام مبارك في كل شبر ونفس في مصر، فالمصريّون لم يعد بينهم وبين أيّ سلطة، ثوريّة كانت أو برلمانيّة أو تنفيذيّة، أي قدر من الثقة، في حين انفجر البخار المكتوم مثل رصاصٍ عشوائيّ، وتم استدراج الجميع لإعادة إنتاج صراعات وهميّة.

وعاشت مصر دوامة من الأسئلة المتكاثرة والإجابات الناقصة والشكوك والاتهامات غير المنتهية بين كل أطراف ساحتها السياسيّة والاجتماعيّة، وسط مشكلاتٍ متراكمة وضغوطٍ ناجمة عن صعوبات كسب الرزق وتلبية متطلبات الإنفاق الفرديّ والعائليّ.

شكلت هذه الأحوال أزمة ثقة اجتماعيّة وأمنية كبرى، وأصبح الأمن والأمان من أولويّات المصريّ، قبل تحصنه من أعدائه التقليديّين، وسط حيرةٍ وتساؤلات عن المسؤول الحقيقي عن حرق عصب الاطمئنان، بعد أن «حدث شرخ هائل وصدعٌ خطير من شلال الدّم أغرقنا في لُجّته حتّى صرنا نجاهد لكي نتنفس»[1].

كان لهذا كلّه ثمنٌ فادح.

ففي ٢٣ فبراير ٢٠١١، **حاول عبدالقادر عماد الدين عمر (٥٥ سنة) الانتحار أمام مبنى مجلس الدولة في الدّقي**. والذي حدث أنّ عبدالقادر جاء أمام مبنى مجلس الدولة صباحـًا وسكب البنزين على جسده، وكاد يشعل النار، ممّا تسبب في حالة من الذعر بين روّاد المجلس، إلا أنّ رجال شرطة في المجلس استطاعوا منعه وإدخاله

---

(١) د. خليل فاضل، سيكولوجيّة الدم في مصر الآن، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢١ إبريل ٢٠١٢.

المبنى، حيث استمعوا إلى شكواه وأخطروا الجهة القضائيّة. وباشر المكتب الفنيّ لرئيس مجلس الدولة الشكوى، وسط وعود بحلّها في أقرب وقت.

وتبيّن أنّ هذا المواطن كان يحصل على معاش والده المُتوفّى الذي كان يعمل ضابطًا بجهة سياديّة، ثم جرى منعه من الحصول على المعاش دون مُبرّر قانونيٍّ العام قبل الماضي، فأقام دعوى أمام محكمة القضاء الإداريّ، لكنّ الحكم لم يصدر فيها. وزاد من صعوبة الموقف أنّه لم يكن يملك مصدرًا للرزق غير هذا المعاش بسبب عجزه صحيًّا[1].

وفي حادث آخر، لقي مواطن مصرعه بعد أن ألقى بنفسه أمام مترو الأنفاق في محطّة الدقي. لم يترك القطار يترك وراءه سوى أشلاء جثة انطرحت بعيدًا عن مكان الاصطدام، وقطع لحم وعظم تبعثرت على امتداد المسافة الفاصلة بين نقطة التصادم ومساحة استقرار الأشلاء.

بيان الشركة المصريّة لمترو الأنفاق قال إنّ المواطن، ويُدعى خالد السيد جلال، البالغ من العمر ٥٣ عامًا، ترقب دخول القطار القادم من شبرا الخيمة، وألقى بنفسه أمامه، ممّا أدّى إلى وفاته في الحال. وأضاف البيان أنّه تأكّد من خلال شقيقه عبدالله أنّ القتيل كان يعاني مرضًا نفسيًّا، وأنّه حاول الانتحار أكثر من مرّة[2].

وبالمثل، تخلص مزارعٌ من حياته بشنق نفسه بحبل داخل منزله بإحدى قرى محافظة البحيرة. لما سقط سعد باهي (٣٥ سنة) ميتًا، نشأ بداخل زوجته سامية ضيف (٢٧ سنة) فراغ، وأرهقها إحساسُ فقدان لا يُعوَّض. أكدت الزوجة، أنها غادرت منزلها قرية القصيب بحوش عيسى، لشراء بعض الحاجيات، وعندما عادت فوجئت بوجود جثة زوجها تتدلى من حبل داخل غرفة النوم. أمام الميت، مكثت واقفة، غائبة، فوق نفسها، مرعوبة وسط ذهول متثاقل. أدركتْ أنَّ اليأس قد استحوذ عليها، فأخذت تنوح لرحيل السند والراعي والأب والساتر والحامي. وتضيف الزوجة أن زوجها كان يعاني مرضًا نفسيًا[3].

---

(١) محمد بصل، مواطن يحاول الانتحار أمام مجلس الدولة احتجاجًا على بطء التقاضي، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٢٣ فبراير ٢٠١١.

(٢) وكالة أنباء الشرق الأوسط، انتحار مريض نفسي أمام قطار المترو، جريدة «الشروق»، القاهرة، ٨ أبريل ٢٠١١.

(٣) نصر اللقاني، مزارع ينتحر شنقًا بالبحيرة، بوابة «الوفد» الإلكترونية، ٣ نوفمبر ٢٠١١.

ولم يختف الاكتئاب تماماً عن رادار الانتحار في مصر.

فقد انتحر وكيل وزارة النقل ورئيس الإدارة المركزيّة لشؤون رئاسة هيئة الموانئ البرية والجافة اللواء حاتم عبدالوهاب زهران، بإطلاق عيار ناري من مسدسه الخاصّ على رأسه بمكتبه في ١٣ أبريل ٢٠١١.

وفوجئ العاملون والموظفون بالهيئة الكائنة خلف مجلس الشورى بشارع قصر العيني بسماع صوت إطلاق الرصاص داخل مكتب الإدارة المركزيّة لشؤون الهيئة بالدور الأرضيّ بديوان عام الوزارة. وبالدخول إلى مكتبه تبين قيام زهران بإطلاق الرّصاص على رأسه، ممّا أدّى إلى إصابته بإصابة خطيرة[١]. أسرع العاملون في الهيئة إلى نقل اللواء حاتم بسيارة إسعاف كانت تمرّ مصادفة في شارع قصر العيني[٢]، إلى غرفة العناية المركزة بمستشفى قصر العيني حيث لفظ أنفاسه الأخيرة.. وكان رئيس الإدارة المركزيّة لرئاسة الهيئة قد عقد اجتماعاً مع موظفيها قبل انتحاره بدقائق.

وقال اللواء محمد الدمرداش الرئيس السابق للهيئة العامة للموانئ البريّة والجافة والذي ترك منصبه منذ أسبوع، إنّ اللواء حاتم عبدالوهاب مشهود له بحسن الأداء والكفاءة في العمل وحسن الخلق. وأكّد أنّ حادث الانتحار ليس له أيّ صلة بالعمل، موضحًا أنّ اللواء حاتم أصيب أخيرًا بجلطة في المخ نتيجة الإفراط في التدخين، وعلى الرغم من التعافي فإنّها تركت أثرًا علي بعض حواسّه، فضلًا عن أنّه كان يتحمّل مسؤوليّة أسرته وابنتيه بسبب مرض زوجته، وهو ما أصابه بحالة من الاكتئاب الشديد[٣].

اكتئاب يجعل إنسانـاً مثل هذا اللّواء مقتنعـاً بأنّه بعد تلك «الميتة غير الطبيعيّة»، سيموت كل أثر له. لكأنّها سنوات عابرة، لن يتذكّرها أحد بعد رحيله. نسيان فائق في السرعة له علاقة بـ»الميتة» بحدّ ذاتها، على حد تصور بعضهم.

---

(١) رشاد كامل، مستشار وزير النقل أطلق الرصاص على نفسه داخل مكتبه، جريدة «أخبار اليوم»، القاهرة، ١٥ أبريل ٢٠١١.

(٢) حسن أحمد حسين، النيابة تستمع لأقوال شهود العيان في انتحار رئيس الإدارة المركزيّة بهيئة الموانئ البريّة.. وتصرح بدفن الجثّة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٥ أبريل ٢٠١١.

(٣) نيفين صبري وهند نجيب وإنجي نجيب وأحمد مطاوع، انتحار وكيل وزارة النقل بمكتبه، جريدة «روزاليوسف»، القاهرة، ١٤ أبريل ٢٠١١.

كما انتحر عامل طلاء، يُدعى عماد زكريا جيد (٢٦ سنة)، بعد أن شنق نفسه في حجرة نومه في شبرا الخيمة بسبب إصابته بحالة نفسيّة سيّئة. وفي مثل تلك الظروف، نصبّ جام غضبنا على الحياة «التافهةُ الذَّميمةُ المِملَّةُ».

بمناظرة أجهزة الأمن للجثة، وُجِدَ أنّها مسجاة على ظهرها وسط إحدى حجرات الشقة، وعُثِرَ على جزء من حبل بلاستيك ملفوف حول الرقبة، ولا توجد إصابات ظاهرة.[١]

وفي بندر أجا بمحافظة الدقهليّة، انتحرت سيدة في العقد الرابع من العمر داخل صالة شقتها لمرورها بأزمة نفسيّة. وبالمعاينة الأمنيّة، تبيّن أنّ الجثّة لسيدة تبلغ من العمر ٣٧ سنة وتُدعى (ناهد. ص . أ) وأنّه عُثِرَ عليها بكامل ملابسها ومعلّقة من رقبتها بسلك، وأسفلها منضدة خشبية. وأكّد نجل المُنتحرة وشقيقها أنّها كانت تمرّ بحالة نفسيّة سيّئة بعد أن تُوفّي زوجها منذ حوالي شهر[٢].

وفي المنوفيّة، تخلص مدرس من حياته، يُدعى إسماعيل.ع (٤٧ سنة)، بشنق نفسه داخل غرفة نومه. وأكّدت التحرّيات أنّ المجني عليه كان يمرّ بضائقة نفسيّة منذ عدّة أشهر، ويوم الحادث توجّه إلى غرفته وأغلق الباب، وعندما قام شقيقه رضا (٥٨ سنة)، بالطرق على الباب لإيقاظه لم يرُد، فكسر الباب ليجده معلقـاً في سقف غرفته[٣].

مات إسماعيل، وبابه مغلق. فأن تموت يعني أن تحمل ظلّك ونفسك الأخير وتمضي، أن تترك أشياءك كلّها وراءك وتدخل في الغياب.

وأنهى مُنجِّد إفرنجيّ، يُدعى (عامر ح.)، حياته بأن ألقى بنفسه من أعلى كوبري أكتوبر في القاهرة، وتبيّن أنّه يعاني اكتئابـاً نفسيًّا نتيجة انفصاله عن زوجته منذ فترة. كما انتحر محمود. ط، وهو عامل في محطّة بنزين ويقيم بالطالبيّة بالجيزة، إثر إصابته بطلق ناريّ في الصدر. وأفادت والدة المُتوفّى بأنّ سبب انتحار نجلها هو ارتباطه عاطفيًّا بفتاة في المنطقة، وأنّه تقدّم لخطبتها إلا أنّ والد الفتاة رفض زواجه منها.

---

(١) صلاح الوكيل، «نقاش» بشبرا الخيمة ينتحر لمروره بحالة نفسية، بوابة «الوفد» الإلكترونية، ١ نوفمبر ٢٠١١.

(٢) سما الشافعي، انتحار ربة منزل لأزمة نفسيّة بالدقهلية، بوابة «الوفد» الإلكترونية، ٣٠ أكتوبر ٢٠١١.

(٣) هند إبراهيم، انتحار مدرس في المنوفية، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٧ نوفمبر ٢٠١١.

وأوضحت التحرّيات أنّ المجنيّ عليه حاول الانتحار عدّة مرات وكان يتم إنقاذه، إلّا أنّه أطلق عيارًا ناريًّا من فرد خرطوش محليّ الصنع في اتجاه صدره، الأمر الذي تسبّب في مصرعه[1].

حتّى سجون مصر شهدت حالات انتحار.

فقد أفادت إدارة سجن الوادي الجديد بالعثور على السجين (أحمد. ر) مشنوقـًا داخل محبسه الانفراديّ، حيث كان يقضى عقوبة السجن ٧ سنوات في القضية رقم ١٥٤ جنايات عسكريّة، ومسجل خطر «ب» ومتّهم في ١٤ قضية أخرى. اتّضح أنّ السجين استخدم سترته في صنع مشنقة خاصّة وربطها في عنقه وبنافذة السجن التي تعلو مسافة كبيرة من الأرض وتدلّى منها، ليضع نهايته الأخيرة بسجن الوادي الجديد[2].

وفوجئ قطاع مصلحة السجون بانتحار رأفت عبد الشكور حسن والمعروف بـ«إمبراطور البلطجة» في القاهرة، وشهرته «خنوفة»، داخل زنزانته في ليمان طرة. اكتشف مسؤول في القطاع جثة «خنوفة» خلال تفقد العنابر استعدادًا لفتحها، وتبيّن قيامه بالانتحار شنقـًا بعد أن استغلّ ملابس السجن في شنق نفسه بعد أيام قليلة من القبض عليه.

كانت الأجهزة الأمنية بمديريّة أمن القاهرة قد نجحت في إلقاء القبض على المدعوّ رأفت عبد الشكور حسن والذي سبق ضبطه واتهامه في ١٢ قضيّة متنوّعة والهارب من سجن ٤٣٠ بوادي النطرون والمحكوم عليه في عام ٢٠٠٩ في جناية مخدّرات بالسجن المُشدّد ١٠ سنوات، وحكمينِ مُستأنف في قضيتي ضرب وسرقة، و٤ أحكام جزئية في قضايا ضرب وفض أختام[3].

وامتدّت أذرع أخطبوط الانتحار إلى القصور والمنتجعات والمجمعات السكنيّة الفاخرة.

---

(١) حسن أحمد حسين وجيهان عبدالعزيز وأحمد عبدالسلام، ٣ وقائع انتحار في القاهرة والجيزة والوادي الجديد بسبب المشاكل الأسريّة والعاطفيّة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٢ فبراير ٢٠١٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انتحار «خنوفة» إمبراطور البلطجة داخل زنزانته، موقع «الأسبوع أونلاين»، ٢٧ أغسطس ٢٠١١.

فقد انتحر نجل رجل الأعمال عدلي أيّوب داخل فيلته بمنتجع «ستيلا نيو كايرو» بالتّجمع الخامس، باستخدام «طبنجة» ماركة حلوان، غير مُرخّصة، ومسروقة من قسم شرطة الجيزة في أحداث الانفلات الأمنيّ التي صاحبت ثورة ٢٥ يناير.

وتبيّن من التحقيقات أنّ المجني عليه (٣٥ سنة) أطلق رصاصة على رأسه عقب أذان الفجر لمروره بأزمة نفسية، ليتعالى سيل الدماء الفوّارة. واتضح أنّ المنتحر يمتلك شركة طيران خاصّة، ونتيجة الأوضاع الاقتصاديّة التي تمرّ بها مصر وعدم تحقيق مكاسب أصيب بأزمة دفعته للتخلّص من حياته[١].

ترك عدلي أيوب قبل انتحاره خطابـًا كتبه باللغة الإنجليزيّة، وجاء فيه: «أنا آسف جدًّا على إقدامي على الانتحار، وأقدم اعتذاري إلى أولادي وزوجتي، وأشكر والدي ووالدتي على الوقوف بجواري ومساعدتي والتسبب في النجاح الذي وصلت له، وأعلم أنّ الحادث عليكم صعب، ولكنّني أقدمت على الانتحار بسبب سوء المَناخ الاستثماريّ في مصر، وأصعب شيء على الإنسان أن يشعر بأنه يُقبل على الإفلاس في ظلّ الظروف الاقتصاديّة التي تمرّ بها مصر، وأنّه قدّم الكثير لمصر ولم تقدّم مصر له أيّ شيء»[٢].

علينا أن ندرك هنا أن الشخص الحذر، الاقتنائي، يشعر بالأمان. غير أنه بالضرورة يعيش في خطر كبير، فهو يعتمد في وجوده على مـا يملك من مال ومكانة وحيثية، أي على شيء خارجه. فما الذي يبقى منه إن هو فقد ما يمتلك؟ ذلك أن كل ما يمتلكه الإنسان أو يقتنيه يمكن أن يفقده[٣].

الفقر والعوز المادي حضرا أيضًا على مائدة الانتحار.

وفي العيد الثاني للعمال بعد الثورة رصد «أولاد الأرض لحقوق الإنسان» ٣٠ حالة انتحار في صفوف العمال، خلال عام واحد بدءًا من مايو ٢٠١١ وحتّى نهاية إبريل ٢٠١٢. وشهد ذلك العام ١٣٩٨ احتجاجـًا عماليًّا تحت وطأة ارتفاع الأسعار، وتدنّي الأجور، وغياب الأمان الوظيفيّ، وانتشار الفساد في مواقع العمل[٤].

---

(١) إبراهيم قراعة، انتحار نجل عدلي أيوب داخل فيلته، بوابة «الوفد» الإلكترونيّة، ٤ نوفمبر ٢٠١١.

(٢) التحقيقات: عدلي أيّوب انتحر بسلاح مسروق، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٦ نوفمبر ٢٠١١.

(٣) إريك فروم، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٤) أميرة صلاح هلال، عمال وأهوال .. و٣٠ حالة انتحار، جريدة «الأهرام»، ٢ مايو ٢٠١٢.

فجأة ظهرت حركة «المنتحرون الجُدُد»!

فبعد مرور تسعة أشهر على ثورة ٢٥ يناير، عاد لفظ الانتحار مرّة أخرى إلى الساحة السياسيّة، والمُهدِد هذه المرّة هم جماعة ترفع شعار «يا تشغلونا.. يا تموتونا». إنّهم العاطلون الذين مثلوا طبقـًا لتقارير الجهاز المركزيّ المصريّ للمحاسبات الصادرة عام ٢٠١١ حوَالَي ٢,١٢٩ مليون فرد.

بالطبع لم يُهدّد العاطلون كلُّهم بالانتحار الجماعيّ أمام مجلس الوزراء، وإنّما فئة منهم هم أعضاء حركة «لكلّ العاطلين» البالغ عددهم قرابة ٨ آلاف شخص، والذين عقدوا العزم على التوجّه إلى مجلس الوزراء، قبيل عيد الأضحى المبارك بثلاثة أيام، لإعلان اعتصامهم المفتوح في ميدان التحرير ردًّا على تجاهل الحكومة لمطالباتهم والتي تتركّز على إيجاد وظائف للعاطلين أو صرف إعانة بطالة لهم.

وبحسب خالد الهواري، المُنسّق العامّ لحركة «لكل العاطلين»، فإنّ التهديد بالانتحار جدّي، مشيرًا إلى أنّ العقلاء من أعضاء الحركة منعوا عددًا من العاطلين القادمين من محافظات الصعيد من الانتحار الجماعيّ، بعد أن أحضر بعضهم المشانق وآلات حادّة لقطع أوردتهم[١].

ورأى أعضاء الحركة بحسب بياناتهم المُجمّعة التي أطلقوها عبر موقع التواصل الاجتماعيّ فيسبوك أنّه لا مفرّ أمامهم سوى الانتحار الجماعيّ؛ لأنّه لا قيمة للحياة بدون عمل، ولا بديل أمامهم سوى رفع شعار: «يا توظفونا يا تموتونا»[٢].

فقرٌ يتضافر مع ما سبق أن طالب به خوان سومافيا، المدير العامّ لمنظمة العمل الدوليّة، الحكومة المصريّة وجميع الجهات الفاعلة الأخرى بالالتزام بالعمل السلميّ لفتح الطريق أمام حقبة جديدة من العدالة الاجتماعيّة في تاريخ مصر، موضّحـًا أنّ منظّمة العمل الدوليّة لسنواتٍ كانت تشير إلى خطورة العجز في العمل اللائق في مصر وعدد من البلدان الأخرى في المنطقة، حيث إنّ معدلات البطالة ظلّت من أعلى المُعدّلات في العالم، وأدّى الفشل في معالجة هذا الوضع على نحو فعّال، مع كل عواقبه على الفقر والتنمية غير المتوازنة.

---

(١) شريف عبدالمنعم، ٨ آلاف عاطل يُهدّدون بالانتحار الجماعيّ، بوابة «الوفد» الإلكترونيّة، ١ نوفمبر ٢٠١١.

(٢) علي خميس، مصدر سابق.

أمّا د. كليوباترا دومبيا هنري، مدير إدارة معايير العمل الدوليّة في منظمة العمل الدولية بجنيف، فأعربت عن انزعاجها من الاضطرابات التي لحقت بالأنشطة الاقتصاديّة عقب ثورة ٢٥ يناير والتي أدّت إلى زيادة معدلات البطالة، في مصر، إلى ما يقرب من ١٢ ٪، مقابل ٩ ,٨ ٪، خلال الفترة نفسها من عام ٢٠١٠.

الأمر ليس بالهين، خاصة في ضوء ما أعلنه اللّواء أبوبكر الجندي رئيس الجهاز المركزيّ للتعبئة العامّة والإحصاء من ارتفاع معدل البطالة في مصر إلى ٩ ,١١٪ خلال الربع الأول لعام ٢٠١١ مقابل ٩ ,٨٪ خلال الربع الأخير من عام ٢٠١٠.

البطالة، التي أعيت من يداويها، فجّرت سلسلة محاولات انتحار، شملت ذوي الاحتياجات الخاصّة.

فقد كانت الشمس تُلملِم أذيالها خلف الغروب يوم ٣١ أكتوبر ٢٠١١، حين حاول عشراتٌ من ذوي الاحتياجات الخاصّة، القيام بعمليّة انتحار جماعيّ أمام مقرّ مجلس الوزراء المصريّ، بعد فشلهم في مقابلة رئيس الوزراء آنذاك د. عصام شرف.

وأحبط تلك المحاولة، عددٌ من أفراد الأمن المركزيّ وضباط الشرطة الموجودين لحراسة المبنى، بعد أن سكب عدد كبير من ذوي الاحتياجات الخاصّة البنزين على أجسادهم. ونقلت جريدة «الوفد» عن شهود عيان قولهم إنّ عددًا من موظفي المراسم في مجلس الوزراء نزلوا إلى الشارع واصطحبوا مُمثّلين عن المُحتجّين لمقابلة رئيس مجلس الوزراء وعرض مطالباتهم عليه.

وكان العشرات من ذوي الاحتياجات الخاصّة قد نظموا وقفة احتجاجيّة محدودة أمام مجلس الوزراء قبل ذلك بيوم واحد، للمطالبة بتوظيفهم بمختلف الوزارات والهيئات الحكوميّة، تأكيدًا لأحقيّتهم في التوظيف وَفقًا لقانون حدَّد أن يَشغَل ذوو الاحتياجات الخاصّة نسبة ٥٪ من قوة العمل في الهيئات الحكوميّة[١].

ومع تفاقم الأزمة، أعلن ١٥ من ذوي الاحتياجات الخاصّة المُعتصمين أمام مجلس الوزراء إضرابهم عن الطعام، وذلك بعد عدم الاستجابة لمطالباتهم[٢].

---

(١) محاولة انتحار جماعيّ لذوي الاحتياجات الخاصة، بوابة «الوفد» الإلكترونيّة، ٣١ أكتوبر ٢٠١١.
(٢) آيات الحبال، ١٥ من ذوي الإعاقة يضربون عن الطعام، بوابة «الوفد» الإلكترونيّة، ٣١ أكتوبر ٢٠١١.

الفقر الضاغط، أدّى إلى تكرار حالات الانتحار في مصر ما بعد ثورة يناير.

ففي شقة مثل علب السردين في الطابق الخامس بشارع النصر في قلب مدينة الأمل بإمبابة، كتب كهربائيّ يُدعى هشام حسن العزب (٤٩ سنة) رسالة وداع إلى زوجته، قبل أن يربط حبلاً في مروحة السقف ويصنع مشنقة لنفسه وينهي حياته.

والتفاصيل في هذه الحادثة تستحق التأمل.

فقد كتب هشام في خمس صفحات متتالية وعلى ورقة تقويم لأحد أيام العام، ما اعتبره المحقّقون وصية وطلبـًا وأنّه الذي انتحر بيده.. يقول في الورقة الأولى: «بسم الله الرحمن الرحيم.. زوجتي العزيزة أُوصيك خيرًا بولديّ إبراهيم وإسماعيل (٩ سنوات و٦ سنوات).. أنا انتحرت بسبب ظروفي الماديّة السيّئة ولأنّني لا أقدر على الإنفاق عليك وعلى الولدين».. وكتب في الورقة الثانية: «أنا أمتلك محلاً وشقّة هما لزوجتي وولديّ.. وبالنسبة للمحل لم أدفع إيجاره منذ ٥ أشهر.. وبالنسبة للشقّة لم أدفع لصاحبها الإيجار منذ ٤ أشهر، وذلك لأنّ الشغل قليل ويعتبر مافيش في الفترة الأخيرة، وأنا كنت كسّيب وباصرف على نفسي وعلى ولاديّ وعمري ما اتعودت أمد إيدي لحد.. لكن المسائل اتغيّرت في الأيام الأخيرة والمحل مافهوش شغل والطلب قلّ على العمل».. وكتب في الورقة الثالثة: «ودي ديوني لصاحب البيت والمحل أرجو تسديدها».. وكتب في الرابعة: «أنا انتحرت بإيدي وباطلب من أي حد يعرفني إنه يطلب لي الرحمة والمغفرة ويدعي لي.. وإنت يا زوجتي سامحيني وخلي بالك من الولدين».. وفي الورقة الخامسة وهي «ورقة نتيجة» قال: «أطلب منكم دفني في مقابر الصدقة بالفيوم»[1].

راحت زوجة الضحيّة تُولول وتعدّد وسط جوقة من نحيب الأولاد من حولها، بعد أن فقدت في لحظة رجلها الذي عاشرته مُرَّ الحياة وحلوها وقسوة الأيام وصفاءها. وقالت في التحقيقات وسط دموعها إنّها وزوجها شبه منفصليّن منذ ٥ أشهر وإنه يقيم في شقّة بمفرده، هي التي شهدت الجريمة. وأضافت أنّه حاول الانتحار منذ ٤٠ يومـًا بأن منع عنه نفسه الطعام والشراب لمدّة يومين، وتمكّن الجيران من إنقاذه ونقلوه إلى المستشفى.

---

(١) سامي عبدالراضي، كهربائي ينتحر شنقـًا ويترك رسالة لزوجته: «لا أجد مصاريف.. ووصيتك الأولاد وادفنوني في مقابر الصدقة»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ مايو ٢٠١١.

تلك الظروف الضاغطة، دفعت الكهربائيّ إلى التخلص من حياته في لحظة ضعف وانهيار.

وللمرض أيضـًا ضغوطه القاهرة[1].

فقد تخلّص عجوز بالمعاش من حياته، بالمقطم، بتناوله كميّة من المبيد الحشريّ. آثر الرحيل وحده وبيديه تاركـًا مركب الزوجة ـ وفيه حنايا قلبه ـ في عُرض البحر. وأثناء التحقيقات، قالت الزوجة إنّ زوجها ويُدعى (ف. م.) كان يعاني حالة نفسيّة سيّئة منذُ فترة بسبب قرار الأطباء بتر قدمه لإصابته بمرض القدم السكري، وأنّ زوجها حاول تناول كميّة من المُبيد يوم الحادث للتخلص من حياته إلا أنّها منعته، وعقب ذلك غافلها وتناولها، وأنّها استغاثت بالجيران بعد اكتشافها ذلك وقرّر لهم زوجها قبل وفاته أنّه تناول مبيدًا حشريًّا. وجد المُحققون جثة الضحيّة على سرير غرفة نومه وهو يرتدي ملابسه كاملة ولا توجد به إصابات ظاهريّة، وتبين أنّه وزوجته يقيمان بمفردهما داخل الشقة من دون أبناء. بسؤال الجيران شهود الواقعة، قرّروا أنّهم سمعوا صوت استغاثة الزوجة فأسرعوا إلى داخل الشقة وأبلغهم الضحية قبل وفاته بأنّه تناول كميّة من المبيد الحشريّ.

وغافل عامل نظافة زوجته، وتخلص من حياته أثناء سيرهما أعلى كوبري الساحل في القاهرة، وألقى بنفسه في النيل، بسبب مروره بحالة نفسيّة سيّئة. بدا سقوطه كما لو أنَّه سفرٌ حقيقيٌّ يعادلُ الانتقال من مجرَّة إلى أخرَى، بعيدًا عن عالم يغصّ بالأزمات الخانقة.

أفادت التحريّات بأنّ العامل يمرّ بظروف معيشيّة سيّئة، وأنّه أثناء سيره أعلى الكوبري، تناقش وزوجته حول ظروف الحياة ومصروف المنزل والمعيشة. وتبيّن أنّ العامل شعر بضيق شديد، وقرّر في لحظات التخلّص من حياته، وّأنه غافل زوجته، وألقى بنفسه في النيل[2].

---

(١) أشرف غيث، عجوز يتخلّص من حياته بـ«المبيد الحشريّ» في المقطم، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٤ يونيو ٢٠١٢.

(٢) عبدالحكم الجندي، ينتحر بسبب «مصروف المنزل»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يونيو ٢٠١١.

وأنهى عجوز حياته في الإسكندريّة بعد أن انتحر عن طريق شنق نفسه لمروره بأزمة ماليّة، حيث تلقت مديريّة أمن الإسكندريّة بلاغـًا يفيد بوفاة شخص داخل محلّ مفروشات بالعقار رقم ٣ شارع إسماعيل غانم دائرة قسم محرم بك. ففي إحدى الأمسيّات الهادئة، وقف المدعوّ عطيّة ع. (٥٦ سنة) في مخزن محلّه، ثم علق أنشوطة في رقبته، وترك جسده يتدلّى وسط الحجرة الكئيبة المُعتمة.

وبالانتقال والفحص، تبيّن وجود جثة عطيّة، وحول رقبته سلك يتدلّى من سقف مخزن ملحق بالمحلّ. انتهى به الأمر مجرد جثمان بارد يتأرجح يمنة ويسرة كأنّه بندول ساعة توقّفت عقاربها. وبسؤال نجله مينا (٣١ سنة) ويعمل مُهندسـًا، قرّر إقدام والده على الانتحار لمعاناته من حالة اكتئاب لمروره بضائقة ماليّة، وأشار إلى أنّ والده سبق له أن حاول الانتحار من قبل[١].

ولقي صاحب محلّ زجاج في منطقة الساحل بالقاهرة مصرعه إثر سقوطه من شرفة الطابق السادس بمنزله. غافل الضحيّة أفراد أسرته وألقى بنفسه من شرفة المنزل بسبب لوم زوجته وبعض أقاربه له على عدم قدرته على الإنفاق الماديّ للأسرة، وتوفير أدنى مستوى من المعيشة، ما دفعه للانتحار.

بداية التفاصيل إخطار تلقّاه مأمور قسم الساحل من مستشفى معهد ناصر، بوصول شريف سيد أحمد (٥١ سنة) صاحب محل زجاج، مقيم في منطقة كورنيش النيل بالساحل، مُصابـًا بنزيف بالأنف وعدّة سحجات متفرّقة بالجسد وفي غيبوبة تامّة، إثر سقوطه من الطابق السادس بمنزله، وتُوفي أثناء إسعافه. تبيَّن مرور الضحيّة بضائقة ماليّة منذ عام وعدم قدرته على القيام بالإنفاق على أسرته[٢].

وشهدت الجيزة حالتي انتحار في ٢٤ ساعة، إذ انتحر موظّف سابق في مصر للطيران، يُدعى عادل محمد، بالقفز من أعلى كوبري الجلاء وترك خطابـًا يعترف فيه بالتفاصيل ورقم تليفون والده لإبلاغه بحادثةٍ غارقة في الشجن والألم. هكذا تخلع

---

(١) هناء أبوالعز، انتحار صاحب محل شنقـًا لمروره بأزمة ماليّة في الإسكندريّة، موقع «اليوم السابع» الإلكترونيّ، ٢٥ سبتمبر ٢٠١١.

(٢) أشرف غيث، تنتحر بسمّ فئران لرفض والدها إقامة حفل خطوبتها، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١ أكتوبر ٢٠١١.

عنك في الموت جسدك، وعينيك ويديك وأصابعك وجلدك واسمك، تاركًا وراءك رقم هاتف لأبٍ سيأكله الحزن.

وفي الهرم، انتحر نجار يُدعى مصطفى محمود (٢٤ سنة)، مُقيم في كعابيش بالطوابق، بعد أن صنع في سقف حجرة نومه مشنقة وتخلّص من حياته. جذب حبلًا متينًا، وأحكم ربط طرفه الأول في نافذة الباب الحديد للمنزل، ثم من الطرف الثاني للحبل، صنع مشنقة، وشدّها حول عنقه، كما لو أنّه يحاول تغطية وجهه بقناع. وبسؤال شقيقه، قرّر أنّ المُتوفّى كان يعاني مرضًا نفسيًّا ويتردّد على مستشفيات الأمراض النفسيّة للعلاج وأنّه لا يشتبه في الوفاة جنائيًّا(١).

وللناس فيما ينتحرون أسبابٌ ومذاهب!

ففي مركز المنشاة بسوهاج، انتحرت طالبة تُدعى عبير «١٥ سنة» بتناول سُم فئران بسبب رفض والدها إقامة حفل لخطوبتها على أغاني وموسيقى الـ»دي.جي»، نظرًا لظروفه الماديّة. وأرجع تقرير مفتّش الصحة الوفاة إلى فشل في عضلة القلب نتيجة تناول مادّة سامّة[٢].

وفي سوهاج أيضًا، استقبل مستشفى جهينة المركزيّ سيدة في العقد الرابع من عمرها جثة هامدة، انتحرت من أعلى سطح منزلها باستخدام حبل بمركز جهينة.

دلّت التحريات على أنّ السيدة المُنتحرة تدعى «ن.م» (٤٠ عامًا)، وأنّها وجدت معلّقة بحبل كتان أعلى سطح المنزل، وبالكشف الظاهريّ عليها لم توجد ثمة إصابات ظاهريّة عليها. وقرّر زوجها أنّ زوجته كانت تعالج من مرض نفسيّ لدى أحد أخصائيي الأمراض النفسيّة والعصبيّة، ولم يتّهم أحدًا بالتسبّب في وفاتها[٣].

وفي منطقة إمبابة انتحرت ربّة منزل بسبب خلافها مع شقيقها على تحضير السحور.

---

(١) جيهان عبدالعزيز، انتحار موظف ونجار بسبب «الفصل» والمرض، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٥ أبريل ٢٠١٢.

(٢) السيد أبوعلي، تنتحر بسمّ فئرانٍ لرفض والدها إقامة حفل خطوبتها، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢ يوليو ٢٠١١.

(٣) محمود مقبول، انتحار سيدة بـ»حبل» من أعلى سطح منزلها في سوهاج، موقع «اليوم السابع» الإلكترونيّ، القاهرة، ٨ يوليو ٢٠١١.

تبيّن من المُعاينة والتحريّات أنّ الضحيّة تُدعى «ميرفت. م» (٢٧ سنة) ربة منزل، نشب بينها وبين شقيقها «كريم» (٢٦ سنة) مشادّة كلاميّة بسبب خلافهما على تحضير السحور، الأمر الذي أثار غضبها لتلقي بنفسها من شرفة الشقة الكائنة بالطابق الثالث، وهو ما أدّى إلى وفاتها[١].

وفي منطقة بولاق الدكرور انتحرت طالبة عن طريق إلقاء نفسها من الطابق الرابع من مسكنها، لتسقط جثةً هامدة، بسبب تكرار تعدّي شقيقها عليها بالضرب. المجنيّ عليها، وتُدعى «م. ج. ع» (١٩ عامـًا)، نشبت بينها وبين شقيقها «ع» (١٨ عامـًا) مشادّة كلاميّة لمعاتبته لها على سوء سلوكها وعلاقتها ببعض الشباب، ممّا دفعه إلى تقييدها بالحبال والتّعدّي عليها بالضرب. وعقب حلّ قيودها ألقت بنفسها من شرفة الشقة[٢].

واختارت طالبة في كليّة التمريض بالدقهليّة وضع حدٍّ لحياتها بتناولها مادّة سامّة بسبب رسوبها في الامتحان. فقد تلقت مديريّة أمن الدقهليّة إخطارًا بوصول «آلاء .ع» طالبة في كليّة التمريض إلى مستشفى الطوارئ، وقد لفظت أنفاسها الأخيرة، وبتوقيع الكشف الطبيّ عليها تبيّن تناولها مادة سامّة.

وبسؤال والدها - الذي يعمل موظّفـًا في شركة المياه والصرف الصّحي- قال: «بعد أن ظهرت نتيجة امتحانات آخر العام، واكتشفت أنّها راسبة تدهورت حالتها النفسيّة والصحيّة، وقرّرت التخلّص من حياتها عن طريق تناولها حبوب تُوضع لحفظ الحبوب والغلال من الإصابة بالتسوس والعفن، ولم نكن نتوقّع أنّ الأمور سوف تصل إلى هذه الدرجة»[٣]. وأضاف قائلًا: «البنت غافلت أمّها وتناولت الحبوب ثم شعرت بمغصٍ، واعترفت لها بتناولها، وعندما حاولنا إسعافها فشلنا وتُوُفّيت فور وصولها المستشفى»[٤].

---

(١) بهجت أبوضيف، انتحار ربّة منزل بسبب خلافها مع شقيقها على تحضير السحور، موقع «اليوم السابع» الإلكترونيّ، القاهرة، ١٣ أغسطس ٢٠١١.

(٢) بهجت أبوضيف، انتحار طالبة لتعدّي شقيقها عليها بالضرب لسوء سلوكها، جريدة «اليوم السابع»، القاهرة، ٢٣ يوليو ٢٠١١.

(٣) شريف الدّيب، انتحار طالبة لرسوبها في امتحانات كليّة التمريض بالدقهليّة، جريدة «اليوم السابع»، القاهرة، ٢١ يوليو ٢٠١١.

(٤) غادة عبدالحافظ، طالبة تنتحر لرسوبها في الامتحانات بالدقهليّة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٣ يوليو ٢٠١١.

وانتحرت ربّة منزل بكفر الشيخ شنقـًا بعد أن أصيبت بحالة نفسيّة سيّئة ليأسها من الإنجاب. البداية ببلاغ من «محفوظ. م. أ» إلى رئيس مباحث بندر كفر الشيخ، قال فيه إنّه فوجئ بجثّة زوجته «هدى. أ. ع. س - ٣٤ سنة» مُعلّقة من رقبتها بحبل غسيلٍ بسقف غرفة النوم. حين عثر عليها الزوج، كانت واقفة فوق كرسي مسطّح وصغير الحجم، وجثتها تترنّح ذات اليمين وذات الشمال، كما تتحرّك عقارب الساعة. أطلقت ساعديها على اتساعهما مثل عصفور، وأرخت الجسد، ولكزت الكرسيّ بقدميها، فزفرت الهواء الأخير، وانكمشت على نفسها بلا جناحينِ.

بسؤال زوجها، قال إنّه تزوّج هدى منذ ٦ سنوات، وكانت تمرّ بحالة نفسيّة سيّئة لتأخُّرها في الإنجاب[١].

انتحرت هدى، للتخلّص من حياتها وقالب الروح الذي انكسر.

وشهدت منطقة شبرا الخيمة إقدام ربّة منزل على الانتحار بسبب خلافاتها مع زوجها. وبسؤال الشرطة زوج المجني عليها، أكّد أنّه يوم الواقعة كان عائدًا مع زوجته أحلام محمود (٤٤ سنة) من رحلة في أحد المصايف وحدثت بينهما مشادة كلاميّة، ففوجئ بزوجته تسرع إلى شرفة المنزل، لتقوم بإلقاء نفسها وتَلَقَى مصرعها في الحال[٢].

وفارقت زوجةٌ الحياة بعد انتحارها بإلقائها نفسها من الطابق الرابع في منزل آيل للسقوط بمنطقة البساتين، بعد مشاجرة نشبت بينها وبين زوجها، لرفضه حضورها حفل زفاف ابن عمتها. أمّا شقيقها، فقال إنّ الزوج أعطاها مقصًّا أثناء المشاجرة وطلب منها قص لسانها، وما هي إلا دقائقُ حتّى انتحرت[٣].

وتلقى مأمور قسم الساحل إخطارًا من مستشفى الدمرداش، باستقباله «هالة. ع» (٢٠ سنة- ربّة منزل)، التي تُوُفّيت أثناء إسعافها. بالانتقال والفحص تبيّن أنّها مصابة

(١) مجدي أبو العينين، انتحار ربّة منزل شنقًا ليأسها من الإنجاب، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١١ يونيو ٢٠١٦.

(٢) محمد قاسم، انتحار ربّة منزل بسبب خلافات زوجيّة في القليوبيّة، موقع «اليوم السابع» الإلكتروني، ١ أغسطس ٢٠١١.

(٣) حسن أحمد حسين وعاطف بدر، ، شقيق المنتحرة بالبساتين: زوجها طلب منها «قص لسانها بالمقص» فألقت بنفسها من «الرابع»، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٣٠ مايو ٢٠١٢.

بحروق ناريّة متفرقة بالجسم. أظهر التحقيق أنّ المجنيّ عليها سكبت كميّة من سائل الكيروسين على جسدها وأشعلت في نفسها النيران، بسبب مرورها بأزمة نفسيّة وحالة اكتئاب لعلمها من الطبيب بعدم قدرتها على الإنجاب، ممّا أدّى لحدوث إصابتها التي أودت بحياتها.

وفي المنوفيّة ألقى قهوجي نفسه من شرفة الطابق الثالث في مبنى قسم مباحث شبين الكوم، ليلقى مصرعه على الفور. تبيّن أنّ عبدالرحمن بيومي (٧٩ سنة) أوهم أفراد الأمن برغبته في دخول القسم للسؤال عن محضر شرطة قبل أن يغافلهم ويلقي بنفسه لمروره بأزمة نفسيّة عقب وفاة زوجته[1].

ووجد بعضهم في ميدان التحرير مسرحًا مناسبًا لمحاولة الانتحار.

فقد حاول الدكتور أحمد مصطفى قطب، موظّف بجامعة حلوان، أحدُ المُعتصمين بميدان التحرير، الانتحار بإشعال النار في نفسه وسط الميدان، اعتراضًا على عدم القصاص الفوري لضحايا الثورة، وتمكّن عدد من الشباب منعه ونقله إلى المستشفى الميداني، حسب شهود عيان.

وأوضح مصدر طبيّ مسؤول بوزارة الصحة أنّه تمّ نقل قطب من ميدان التحرير إلى مستشفى المنيرة بسيارة إسعاف، وتمّ فحصه والتدخل فورًا لعلاجه، موضّحًا أنّ الفحوص الطبيّة أثبتت أنّ نسبة الحروق لديه لا تتعدّى ١٠٪ وأنّ حالته مطمئنة.

وقال الدكتور أحمد حسن إنّ قطب حاصل على الدكتوراه في الفنون الجميلة، ويعمل في إحدى الوظائف الإداريّة بجامعة حلوان، والهدف من اعتصامه الحصول على وظيفة تليق بالدكتوراه التي يحملها. وأضاف: «أول لقاء تعارف بالمصاب كان أثناء مظاهرات ائتلاف الحاصلين على الماجستير والدكتوراه أمام وزارة التعليم العالي». وتابع: «قطب عُرِفَ عنه كتابة الشعر وأثناء استمرارنا في الاعتصام تعرّض للاعتداء بالضرب من أحد رجال الأمن، وكتب قصيدة بعنوان «الّسنة لاتزال في جيبي»، وأوضح أنّه غير مُصدّق بمحاولة صديقه الانتحار ولم يعرف عنه سوى قوّة الصبر والتحمّل طوال فترة الاعتصام.

---

(١) أشرف غيث وحسن أحمد حسين وهند إبراهيم، انتحار «قهوجي» من أعلى قسم شرطة.. وربّة منزل تحرق نفسها، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٩ إبريل ٢٠١٢.

حتى برج القاهرة لم يسلم من حالات الانتحار.

فقد أنهى شاب، في العقد الرابع من عمره، حياته، بالانتحار قفزًا من الطابق الأخير لبرج القاهرة. أظهرت تحرّيات الشرطة أنّ محمد عبدالتواب، (٣١ سنة)، حضر بمفرده إلى البرج في العاشرة من صباح يوم ٢٣ يناير ٢٠١٢، وصعد إلى أعلى، وبعد نصف ساعة سمع رجال الأمن صوت ارتطام شديدًا، وعندما توجهوا إلى مصدره وجدوا جثةَ الشاب، وقد فارق الحياة.

قال شهود عيان إنّ المجنيّ عليه كان يقف في الطابق الأخير على مقربة منهم، وفوجئوا به يُلقي بنفسه خلال ثوانٍ. أفادت المُعاينة المبدئيّة بأنّ الشابّ، وهو حاصل على دبلوم فنيّ صناعيّ، ومقيم في أبشواي بالفيوم، أصيب بكسور متفرقة في أنحاء الجسد، ونزيف بالرأس تسبّب في وفاته.

تبيّن أنّ المُنتحر يعمل حلّاقـًا، وهو متزوّج ولديه ولد وبنت، ووالده عامل بالسكّة الحديد، وله ثلاثة أشقاء، اثنان يعملان في مجال البناء، والثالث سائق موتوسيكل يستخدمه في نقل الركاب[1].

ولجأ «مسجل خطر» إلى طريقة مأساويّة للتخلّص من حياته داخل الحجز الانفراديّ في قسم شرطة الورّاق، في ٢٣ يونيو ٢٠١١. تبيّن من التحقيقات أنّه صنع مشنقة من قميصه و«شاش طبيّ» وربطها في سقف الحجز قرب باب الحمام وعلّق جسده حتّى لفظ أنفاسه، وكشفت أنّ المُتوفّى كان يواجه ١٣ اتهامـًا بينها الشروع في قتل ضابط وشرطي والسرقة بالإكراه وتزوير واقتحام وحيازة سلاح آليّ، وأنّه أقدم على تغيير اسمه ٤ مرات خلال جلسات التحقيق وكوّن تشكيلاً عصابيًّا من ١١ بلطجيـًا. تم ضبطه بعد مطاردة مدّة ساعتين وتبيّن أنّه هارب من سجن أبوزعبل من حكم بالأشغال الشاقّة المُؤبّدة، لكنّه قرّر الانتحار في قسم الشرطة[2].

وانتحر مسجل خطر يُدعى «مصطفى .س» (٢٨ سنة) من مدينة الخارجة محافظة

---

(١) حسن أحمد حسين، «عبدالتواب» ينتحر قفزًا من برج القاهرة، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٤ يناير ٢٠١٢.

(٢) أحمد عبداللطيف، «مسجل» يشنق نفسه داخل حجز قسم الوراق، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٤ يونيو ٢٠١١.

الوادي الجديد شنقًا بزنزانته الانفراديّة في سجن الوادي الجديد، حيث ربط قميصه بشباك الزنزانة وشنق نفسه، وفقًا لرواية حرّاس السجن.

كان السجين يقضي فترة عقوبة جنائيّة مدتها ١٥ سنة أشغالًا شاقّة بعد أن قتل سائقًا في الشارع بطريقة بشعة حيث مزّق أحشاءه في رمضان ٢٠٠٤، وَفق القضيّة رقم ٩٣٠٨ / ٢٠٠٤ جنايات شرطة الخارجة. وعُرف عن السجين المُنتحر خطورته الشديدة ومحاولته الهرب أكثر من مرة وتعديه على زملائه وآخرها في أحداث ثورة ٢٥ يناير عندما هرب من سجن الفيوم وعاد إلى مدينة الخارجة، قبل أن تنجح قوة من قسم شرطة الخارجة في إلقاء القبض عليه وتسليمه لسجن الوادي الجديد وحبسه في سجن انفراديّ لخطورته[١].

وتساوى في الانتحار رجل القانون وجندي الأمن، فقد انتحر المستشار محمود أحمد بيومي مدير النيابة الكليّة بمدينة الخارجة محافظة الوادي الجديد، بطلقة في رأسه من سلاحه الشخصيّ، في مكتبه بمقرّ النيابة، عقب مروره بأزمة نفسيّة، وحالة من الاكتئاب دفعته إلى الانتحار[٢].

كما انتحر مجند شرطة يُدعى «محمد. ر.ع.» (٢٢ سنة)، داخل معسكر الإدارة العامّة للمرور بالجيزة، فى مدينة السادس من أكتوبر، بالقرب من الكيلو ٥ , ١٠ على طريق مصر إسكندريّة الصحراويّ، بسبب معاناته من أزمة نفسيّة[٣].

وانتحر أحد ركاب مترو الأنفاق بإلقاء نفسه أمام القطار عند دخوله إلى محطة كوبري القبة فلقي مصرعه على الفور، وسط عيون ملتاعة وقلوب المرتجفة من هول الصّدمة. وأوضح المهندس محمد الشيمي رئيس شركة إدارة وتشغيل مترو الأنفاق أنّ سائق القطار لم يتمكّن من التوقف نظرًا لسرعة الموقف والمفاجأة، وأنّه تمّت

---

(١) ماهر أبونور، انتحار سجين جنائي شنقًا بالوادي الجديد، موقع «اليوم السابع» الإلكترونيّ، القاهرة، ٥ يوليو ٢٠١١.

(٢) حسين حمزة، شقيق وكيل النيابة المنتحر: أخي كان يمرّ بحالة نفسيّة سيّئة، موقع «أخبار اليوم» الإلكترونيّ، ٢٦ يونيو ٢٠١٢.

(٣) محمود عبدالراضي، انتحار مجند شرطة داخل معسكر في أكتوبر بسبب أزمة نفسيّة، موقع «اليوم السابع» الإلكترونيّ، القاهرة، ١٤ يوليو ٢٠١٢.

إزالة أشلاء الجثة لتسيير حركة القطارات التي تعطلت لفترة وجيزة، مُشيرًا إلى أنّه تم تحرير محضر بالحادث مع إدلاء شهود العيان بشهاداتهم[١].

موسم الامتحانات أثار موجة جديدة من محاولات الانتحار في صفوف الطلبة.

ففي امتحان مادة الفيزياء لطلاب الثانوية العامّة والأزهريّة في العام الدراسيّ ٢٠١٠/ ٢٠١١، أصيب عدد من الطلاب بالإحباط نظرًا لما اعتبروه صعوبة في أسئلة الامتحان. وفي الدقهليّة، قفز طالب يُدعى أحمد عبدالسميع أحمد من الطابق الثالث لمدرسته بعد بدء الامتحان بنصف ساعة. وعندما اندفع الأساتذة لرؤيته والاطمئنان عليه وجدوه غارقًا في دمائه، وقام ضابط القوات المُسلّحة المُكلف بتأمين اللجنة باستدعاء طبيب وسيارة لإنقاذ الطالب، وعلى رغم إصابته فإنّه أصرّ على استكمال الامتحان[٢].

وفي امتحان اللغة الأجنبيّة الثانية في العام الدراسي نفسه، شهد الامتحان حالة انتحار، حيث أقدمت طالبة تُدعى نورة عبدالرحمن، على إلقاء نفسها من الطابق الثاني بعدما فشلت في الإجابة على امتحان اللغة الألمانيّة[٣].

إيمان، ابنة الثامنة عشرة من العمر، تخلّصت من حياتها بعد تناولها كميّة من الأقراص المُنومة ممّا أدّى إلى وفاتها قبل فور وصولها إلى مستشفي الدمرداش. وتبيّن أنّ رسوب الفتاة في امتحانات الثانويّة العامّة وراء انتحارها[٤].

---

(١) وكالة أنباء الشرق الأوسط، انتظام حركة المترو بعد انتحار أحد ركابه بـ«كوبري القبّة»، موقع «اليوم السابع» الإلكترونيّ، القاهرة، ١٨ يونيو ٢٠١١.

(٢) شيماء عادل، وأحمد البحيري، وأحمد أبوهميلة، الفيزياء «الخائنة».. محاولات انتحار وإغماءات وتمزيق أوراق الإجابة بسبب صعوبة الامتحان، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٩ يونيو ٢٠١١.

(٣) سامي عبدالراضي، وشيماء عادل، وغادة عبدالحافظ، ومحمد عبدالعال، وياسر شميس، وممدوح عرفة، وخالد الشامي، وهند إبراهيم، وأحمد عبدالسلام، وسعيد نافع، وأمل عباس، ومجدي أبوالعينين، ومحمد السمكوري، ومحمد حمدي، «فرحة» بين طلاب «المرحلة الأولى» لسهولة امتحانات «اللغة الثانية».. ومحاولة انتحار طالبة بسبب «الألمانيّ».. وشكاوى في السويس والمنيا وكفر الشيخ، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ١٧ يونيو ٢٠١١.

(٤) محمد صبري، انتحار فتاة تناولت أقراصًا منومة لرسوبها في الثانويّة.. وآخر تناول سمّ الفئران لعدم قدرته على الزواج، جريدة «الأهرام»، القاهرة، ٢٢ يوليو ٢٠١٢.

هذا الشبح المخيف ألقى بظلاله على عدد كبير من الراسبين أو أولئك الذين يخشون الفشل الدراسي.

فقد أخطرت مستشفى ساقلتة المركزي أجهزة الأمن في سوهاج بوصول طالبة بالمعهد العالي للخدمة الاجتماعيّة جثة هامدة. وتبيّن للمباحث وجود سحجات حول الرقبة، وقرّرت والدة الضحية (٢٠ عامـًا) وشقيقتها أنّهما فوجئتا بها معلقة في حبل يتدلّى من غرفة نومها، وأنّها أقدمت على الانتحار لتكرار رسوبها[1].

حوادث مأساويّة، تشير في مجملها إلى أنّه كلما كانت الظروف الاجتماعيّة والصدمات التي يعيشها الإنسان ويتعرّض لها سيّئة ولا مخرج منها، هيأ ذلك لفكرة الانتحار.. ويدلّ ذلك على أنّ الانتحار له ارتباط بالظروف الاجتماعيّة والاقتصاديّة، ممّا يطرح أهميّة الجهود التي تسعى إلى العمل على تحسين هذه الظروف وتعديلها وتغييرها.

وبعد؛

إن انهيار الفرد خطرٌ قد يصيب وَحدة الجماعة بالتصدّع، وحين تفقد الحياة معناها بالنسبة لفردٍ بسبب أزمات وانكسارات الفرديّة الضائعة، تمتدّ آثار ذلك إلى العائلة والأصدقاء وربّما المجتمع أكمله.

ومن فهم حجم الخطر وعواقبه، تبدأ رحلة التعامل السليم مع الانتحار: المفهوم والظاهرة.

---

(١) حسن أحمد حسين، وأشرف غيث، والسيد أبوعلي، انتحار عامل وطالبتين في القاهرة وسوهاج، جريدة «المصري اليوم»، القاهرة، ٢٢ يوليو ٢٠١٢ .

عن المؤلف

ياسر ثابت، صحفيّ مصريّ، من مواليد ألمانيا عام ١٩٦٤.

حاصل على درجة الدكتوراه في الصحافة عام ٢٠٠٠.

يشغل منصب مدير الأخبار في قناة سكاي نيوز عربيّة، أبوظبي، الإمارات العربيّة المتحدة، بدءًا من يونيو ٢٠١١. قبل ذلك، عمل منتجـاً أوّل للأخبار في قناة الجزيرة في قطر عام ٢٠٠٢، ورئيسـاً لتحرير غرفة الأخبار في قناة الحرّة في الولايات المُتحدة عام ٢٠٠٧، ورئيسـاً للتحرير في قناة العربيّة في دبي، الإمارات العربيّة المُتحدة، في العام نفسه.

عمل في الصحافة المصريّة المطبوعة في كلٍّ من «الأهرام» و«الدستور» و«العالم اليوم»، و«صوت الأمة» التي شغل منصب مدير تحريرها.

له مؤلفاتٌ عدّة، بينها «قصة الثروة في مصر» (دار ميريت، القاهرة ٢٠١٢)، «هيا بنا نلعب: عن الأوطان.. والأوثان» (دار اكتب، القاهرة ٢٠١٢) «لحظات تويتر» (دار العين، القاهرة ٢٠١١)، «جرائم بالحبر السريّ» (مركز الحضارة العربيّة، القاهرة ٢٠١٠)، «حروب كرة القدم» (دار العين، القاهرة ٢٠١٠)، «فتوّات وأفنديّة» (دار صفصافة، القاهرة ٢٠١٠)، «فيلم مصريّ طويل» (مركز الحضارة العربيّة، القاهرة ٢٠١٠)، «كتاب الرغبة» (الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠١٠)، «جرائم العاطفة في مصر النازفة» (الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت ٢٠٠٩)، «يوميّات

ساحر متقاعد» (دار العين، القاهرة ٢٠٠٩)، «قبل الطوفان: التاريخ الضائع للمحروسة في مُدونة مصريّة» (كتاب ميزان، القاهرة ٢٠٠٨)، «جمهورية الفوضى: قصة انحسار الوطن، وانكسار المواطن» (كتاب «ميزان»، القاهرة ٢٠٠٨)، «ذاكرة القرن العشرين» (الدار العربية للكتاب، القاهرة ٢٠٠١)، إضافة إلى كتاب «موسوعة كأس العالم» (مدبولي الصغير، القاهرة، ١٩٩٤).

نالت مدونته، «قبل الطوفان»، جائزة الجمهور كأفضل مدونة عربيّة في عام ٢٠٠٨ في مسابقة دويتشه فيله العالميّة للمُدوّنات.


Twitter: @ketab_n

ياسر ثابت

شهقة اليائسين

في هذا الكتاب يتناول الدكتور ياسر ثابت ظاهرة موجعة هي الانتحار في العالم العربي. ويكشف بالحقائق والأرقام مدى تفشي هذا الفعل الذي يعكس أزمة مجتمعاتنا في أوضح صورها. يحلل المؤلف أولاً الأسباب النفسية والاجتماعية والسياسية التي تقف وراء انتشار الانتحار في العالم العربي، وينتقل منها إلى تحليل أبرز أسماء المنتحرين في ثقافتنا وغيرها من الثقافات والذين تنوعوا بين علماء ومفكرين وفنانين لم يجدوا بيننا متّسعًا لهم فقرروا الانسحاب إلى العالم الآخر طارحين وراءهم عالمنا بما فيه من غباوة وتسلط.
ثم ينتقل الكتاب إلى محمد بو عزيزي ذلك المنتحر الذي ألهم الملايين بسحر الحياة الحقيقية فخرجوا ضد الطغيان حتى أزاحوا رؤوسه جزاءً وفاقا. وينهي المؤلف كتابه بفصل عن "أسبوع الانتحار" في مصر والذي تلا الثورة التونسية وسبق الثورة المصرية، وكيف وظّف النظام المصريّ الساقط كل طاقاته لمواجهة من هدّدوا وجوده بإزهاق أرواحهم، وكيف أن ذلك النظام الذي كان قد تحلّل بفعل أخطائه وحماقاته لم يزد الطين إلا بلّة أودت به. ويمضي المؤلف متتبعًا حالات الانتحار المستمرة بعد يناير 2011 والتي تمثل أكبر دليل على أن هذه الثورة ما زالت مستمرة، وأن أسباب اليأس لم تنضب بعد. هذا الكتاب هو باقة ورد يضعها مؤلفه وناشره على قبر كل من ضحّى بعمره من أجل أن نحيا وأجيالنا القادمة حياة "الكرامة الإنسانية".

ياسر ثابت، صحفيّ مصريّ، حاصل على درجة الدكتوراه في الصحافة عام 2000. يشغل منصب مدير غرفة الأخبار في قناة سكاي نيوز عربيّة منذ يونيو 2011. عمل منتجًا أوّل للأخبار في قناة الجزيرة في قطر عام 2002، ورئيسًا للتحرير في قناة العربيّة عام 2007. عمل في الصحافة المصريّة المطبوعة في كلٍّ من "الأهرام" و"الدستور" و"العالم اليوم"، و"صوت الأمة" التي شغل منصب مدير تحريرها.



بيروت - القاهرة - تونس
www.dar-altanweer.com

